د. يوسف القرضاوى

الشّيخ الغزالى كمَا عَرفتُه

رحلة نصف قرن

دار الشروق

الشيخ الغزالي
كما عرفته

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

مقدمة الطبعة الثالثة

هذا الكتاب «الشيخ الغزالى كما عرفته» صدر فى حياة الشيخ الغزالى رحمه الله. إذ لم أجد معنى لما يجرى عليه الناس فى بلادنا، ولاسيما بين دعاة الإسلام، حيث يُهضَم عظماء الرجال، فلا ينوَّه بمكانتهم، ولا يكتب الناس عن مآثرهم، إلا بعد رحيلهم عن هذه الدنيا. هذا مع أن رسولنا الكريم برئ ممن لم يوقروا كبراءهم، ولم يعرفوا حق علمائهم، وشرف شرفائهم[1].

وقد صدرت الطبعة الأولى، والشيخ الإمام على قيد الحياة، ورآها بعينيه، وسرّ بها كثيرا، وقرأ منها نحو مائة صفحة، كما أخبرنى قارئه وسكرتيره الخاص. وحين سافر الشيخ سفرته الأخيرة للمشاركة فى مؤتمر الجنادرية بالرياض، ووافاه الأجل هناك، كان الكتاب من متعلقاته الخاصة التى وجدت معه. اصطحبه الشيخ رحمه الله، ليكمل مطالعته كلما أتيحت له فرصة.

والآن تصدر هذه الطبعة، وقد مضت على وفاة الشيخ عدة سنوات، مشتملة على بعض التنقيحات والتصحيحات التى رأيتها ضرورية، وكنت أود أن أضيف إليها بعض الفقرات فى بعض الفصول، ولكن كثرة المشاغل لم تمكّنى من ذلك. وأعتقد أن ما كتبته كاف فى تحقيق الغرض من الكتاب.

بقى دَين على الجيل الجديد من أبنائنا الصاعدين: أن يعمق الجوانب التى تحدثت عنها، ويوسع القول فيها، ويغدو الشيخ الإمام موضعا لأطروحات علمية أكاديمية لرسائل الماجستير والدكتوراه، تتناول الجوانب الفكرية والدعوية والجهادية من حياة الشيخ، ولاسيما فى كليات الدعوة وأصول الدين والدراسات الإسلامية. فهذا من حق الشيخ الغزالى على هذه الأمة، التى وهب لها حياته، وعاش طوال عمره المبارك، مجددا لدينها، حارسا لرسالتها، مشيدا بحضارتها، ذائدا عن حرماتها ومقدساتها، شاهرا سيفه ضد أعدائها، والكائدين لها؛ ولم يكن له سيف غير قلمه ولسانه.

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه».

ولقد تحدث الكثيرون عن الشيخ بعد أن خلا مكانه، وغاب عن الساحة، وأغمد حسام طالما سل فى سبيل الله، وظل مصلتا حتى آخر لحظة فى حياته، وسقط صاحبه وهو فى يده مدافعا عن الإسلام. رضى الله عنه.

لقد رثيته ببعض ما يستحقه فى الصحف، وتحدثت عنه فى خطبتى للجمعة فى مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، وصليت عليه مع المسلمين صلاة الغائب، وأقمنا له ليلة حافلة، تحدث فيها عدد من العلماء والدعاة من إخوانه وأحبابه.

كما أقام له الإخوة فى مصر ليلة مماثلة نظمها الأخ الدكتور محمد سليم العوّا وإخوانه، وتحدث فيها عدد من العلماء والمفكرين، وشاركت فيها بكلمة بعثت بها من الدوحة.

وفى الذكرى الأولى لوفاة الشيخ، أقام المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، بالاشتراك مع جميعة البحوث والدراسات الإسلامية، والمعهد العالى للفكر الإسلامى، ندوة فى «عمّان» استمرت يوما كاملا، ساهم فيها عدد من المفكرين والباحثين بأوراق علمية مقدورة، حول تراث الشيخ الفكرى، ونشاطه المتنوع فى خدمة الإسلام، ونصرة قضاياه. وكان لى شرف الحضور والمشاركة فيها كذلك، كما حضرها من أبناء الشيخ الدكتور علاء الغزالى.

ولا يزال الحديث عن الشيخ الجليل موصولا، وسيظل إن شاء الله. وما زال إخوانه وأبناؤه وتلاميذه يذكرونه كلما جد الجد، وادلهم الخطب، وتلبدت السماء بالغيوم، على نحو ما قال الشاعر قديما:

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم ... وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر!

رحم الله شيخنا الغزالى، وتقبله فى الأئمة الهداة المهديين، وأخلف الأمة فيه خيرا.

والحمد لله أولا وآخرا.

القاهرة: جمادى الأولى عام ١٤٢٠هـ

سبتمبر عام ١٩٩٩م

يوسف القرضاوى

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على حبيبه ومصطفاه، سيدنا محمد بن عبدالله، إمام الدعاة، وأسوة المعلمين الهداة، ورحمة الله المهداة، ونعمته المسداة، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فلم يكن فى نيتى أن أكتب كتابا كاملاً عن الشيخ الإمام محمد الغزالى، فأنا أتهيّب الكتابة عن الأئمة والمصلحين الكبار، وخصوصا بعد أن سمعت الشيخ مرة يقول: لايكتب عن الأئمة إلا إمام. قال هذا تعليقا على كتب الشيخ محمد أبى زهرة عن الأئمة الفقهاء الكبار: أئمة المذاهب، وابن حزم، وابن تيمية.

وقد أخذ الشيخ هذا المعنى عن الأستاذ العقاد، الذى قال فى مقام الحديث عن عبقرياته المتعددة التى كتبها: إنه لا يحسن الكتابة عن العباقرة إلا عبقرى!

ومن لى بالإمامة أو بالعبقرية حتى أكتب عن إمام وعن عبقرى مثل الغزالى؟!

ولكنى بدأت هذا الكتاب على أنه مقالة عن الشيخ، ضمن كتاب يُهدى إليه ـ حفظه الله ـ بمناسبة بلوغه سن السبعين من عمره المديد المبارك إن شاء الله، وذلك فى عام ١٩٨٧م.

وكانت هناك مجموعة من مريدى الشيخ وأحبائه (١) ـ وأنا منهم ـ تنادوا أن يصدروا هذا الكتاب، وقسموا موضوعاته على عدد من المفكرين والكتّاب، وكان علىّ أن أكتب مقالة عن الشيخ من خلال معرفتى به ومعايشتى له.

وطفقت أكتب المقالة المطلوبة، فإذا هى تتسع أمامى، وتزداد صفحاتها أكثر مما يحتمله حجم الكتاب المنشود. وقد وجدت مجال القول ذا سعة، فتركت نفسى على سجيتها،

---

(١) منهم: د. أحمد العسال، ود. محمد عمارة، ود. عبدالحليم عويس، ود. حمال عطية، والفقير إليه تعالى.

وأطلقت لقلمي العنان، وقلت: لا بأس أن يكون هذا كتابا عن الشيخ الإمام، فهذا بعض حقه على من عرفه. وأكد هذا التوجه لدىّ: أن الكتاب الذى افترض إهداؤه إلى الشيخ لم يصدر، على عادتنا فى معظم الأعمال الجماعية، إذ إنها قلما تنجح وتؤتى أكلها. ولم يف بوعده إلا الدكتور محمد عمارة، فقد أنجز مقالته وأصدرها فى رسالة عن الشيخ، جزاه الله خيرا عما صنع (١).

وانتهت المقالة إلى هذه الدراسة التى أقدمها اليوم عن الشيخ فى فصولها العشرة:

١ ـ الغزالى الشاب فى قلب المعركة.

٢ ـ الغزالى وحسن البنا.

٣ ـ الغزالى وحسن الهضيبى.

٤ ـ الغزالى وثورة ٢٣ من يوليو.

٥ ـ الغزالى رجل الدعوة.

٦ ـ الغزالى رجل القرآن.

٧ ـ الغزالى مع السيرة والسنَّة.

٨ ـ الغزالى والفقه.

٩ ـ الغزالى مصلحا مجددا.

١٠ ـ الغزالى رجل المواقف.

بالإضافة إلى الخاتمة.

وليس هذا الكتاب تاريخا للغزالى، فلا أزعم أنى أملك كل أدوات المؤرخ، ولا أملك المعلومات الكافية لمثل هذا العمل. وأنا أعلم أن الشيخ ـ بارك الله فى عمره ـ قد كتب قصة حياته، وأسأل الله أن يمد فى عمره فى عافية وتوفيق وبركة حتى يضيف إلى كتابه فصولا وفصولا، كما أرجو أن يوفق الله بعض أبنائنا الدارسين فى أقسام الدعوة وغيرها إلى أن

---

(١) كما علمت أن الدكتور عبدالحليم عويس كتب ـ بعد ذلك ـ هو وبعض الأفاضل من غير المستكتبين ـ كالدكتور عماد الدين خليل، والدكتور رمضان عبدالتواب، والدكتور محفوظ عزام ـ مقالات عن الشيخ الغزالى، ضُمِّنت كتابا أصدرته دار الصحوة فى القاهرة عن الشيخ الغزالى.

يقدموا فى أطروحاتهم العلمية دراسات ضافية عن الشيخ وعطاءاته الخصبة والمتنوعة، بما يليق بمكانة الشيخ العلمية والدعوية والإصلاحية.

ما أقدمه اليوم إنما هو ذكريات وخواطر وأفكار، تحاول أن تقدم صورة للشيخ الإمام، صادرة من معرفتى به، ومعايشتى له، وقراءتى وسماعى له، نحو نصف قرن من الزمان.

أجل، لست أؤرخ للغزالى، فما أنا بالمؤرخ، ولكنى أشير إلى ملامح من حياته وسيرته، عرفتها عن معايشة وقرب، ولا أزعم أنى رسمت له صورة بينة الملامح، فما أنا ممن يحسن الرسم.

وربما قيل: إنك تكتب بقلم المحب لا بقلم الناقد، وأنا أشهد أنى أحب الغزالى وأتقرب إلى الله بحبه، ولكنى لم أعْدُ الحق فيما خط قلمى، ولا ينبغى أن يغمط الإنسان من يحب، فرارا من أن يتهم بالتحيز، فالعدل يحكم القريب والبعيد، والصديق والعدو ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وإنى لأنكر على الإسلاميين أنهم لا يعطون مفكريهم وعلماءهم وأدباءهم ما يستحقون من تكريم وتقدير، ينزلهم منازلهم، فى حين يصنع العلمانيون والماركسيون هالات مكبرة حول رجالاتهم، حتى يجعلوا من الحبة قبة، ومن القط جملا! وصدق فيهم قول الشاعر:

وبقيت فى خَلْف يُزيِّن بعضهم ... بعضا ليدفع مُعْور عن معور!

وإذا قيل: إنك تنظر إلى الشيخ بعين الرضا، وعين الرضا لا تبصر العيوب، فحسبى أن أقول: إنى لا أزعم أن الغزالى مبرأ من العيوب، فما هو بالملك المطهر، ولا بالنبى المعصوم، إنما هو بشر يخطئ كما يخطئ البشر، ويصيب كما يصيب البشر، ولكن أخطاءه وزلاته مغمورة فى محيط حسناته وميزاته.

و «إذا بلغ الماء قُلّتين لم يحمل الخبث»، فكيف إذا كان بحرا لا تكدره الدلاء؟!

الدوحة: ربيع الآخر عام ١٤١٥هـ.

أكتوبر عام ١٩٩٤م.

يوسف القرضاوى

الفصل الأول

الغزالى الشاب .. فى قلب المعركة

الغزالى الشاب.. فى قلب المعركة

بداية معرفتى بالشيخ الإمام:

عرفتُ شيخنا الإمام الغزالى - غزالى هذا العصر - أول ما عرفته قارئا له، فى أواسط الأربعينيات، وأنا فى أواخر المرحلة الابتدائية، وأوائل المرحلة الثانوية، طالب بمعهد طنطا الدينى الأزهرى، بعد أن ارتبطت بدعوة الإخوان المسلمين، كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، وركيزة التجديد الإسلامى، والعمل الإسلامى الجماعى، بعد سقوط الخلافة، وتمزق الأمة الواحدة إلى أمم متفرقة.

وكان الغزالى أحد كتاب الدعوة البارزين.

كان الغزالى يكتب فى مجلة «الإخوان المسلمين» الأسبوعية، فى باب ثابت تحت عنوان: «خواطر حرة»، وكان يشدنى إليه فكره الثائر، وبيانه الساحر، وأسلوبه الساخر. فقد كنت أرى فيه - إلى جوار كونه داعية - أديبا من الطراز الأول. وكان الأدب والشعر فى تلك المرحلة هو شغلى الشاغل، ومحور قراءتى واهتمامى، وكان أول ما قرأته أدب المنفلوطى والرافعى، وأحيانا العقاد. وكان الغزالى يحمل روح الرافعى وتألقه، وسهولة المنفلوطى وتدفقه، وتأمل العقاد وتعمقه. وانعقدت بينى وبين الغزالى الكاتب - على بُعد - صلة عقلية وروحية عميقة، من جانب واحد طبعا، هو جانبى، بحيث كنت أترقب المجلة، لأقرأ - أول ما أقرأ فيها - مقالتين: مقالة محمد الغزالى، ومقالة عبدالعزيز كامل.

ولم يكن يخطر ببالى أن صاحب هذا القلم البليغ شيخ أزهرى؛ فعهدى بالمشايخ الذين قرأت لهم - فى بعض المجلات الدينية مثل مجلة «الإسلام» - أن يكتبوا فى غير الموضوعات التى يكتب فيها الغزالى، وبروح غير روحه، وطريقة غير طريقته.

ولكنى فوجئت يوما بأنه وقّع على إحدى مقالاته: محمد الغزالى (الواعظ)، فسألت بعض الناس عن هذا الوصف الجديد (الواعظ): أهو (لقب) أم وظيفة؟ فأكد لى العارفون أنها وظيفة، وأن الغزالى واعظ أزهرى، وشيخ معمم، وخريج كلية أصول الدين، التى

أحبها، وأتطلع للانتساب إليها، فعمّق ذلك ارتباطي الفكرى والنفسى بالشيخ، وازددت إعجابا به وحبا له؛ فقد أضيف إلى رابطة الدعوة، ورابطة الأدب، رابطة أخرى هي (الأزهرية)، فقدكان أبناء الأزهر فى تلك الأيام يعتزون بالانتماء إليه، ويباهون به، ويَعُدّونه قلعة الدفاع عن الإسلام والعربية، وكان على رأسه شيوخ لهم مكانتهم العلمية والدينية، على المستويين المحلى والعالمى، فكل أزهرى ينبغ، يفرح به الأزهريون، ويضيف إلى رصيد الأزهر شيئا جديدا.

وظللت أتابع الشيخ فيما يكتب، فإذا هو يخوض معركة بالغة الخطر، كان هو فارسها المقدم، ورائدها الأول، وكان سلاحه فيها قلمه الصُّلْب الذى لا يكسر ولا يفلّ. تلك هى المعركة ضد الظلم الاجتماعى، والامتيازات الطبقية، والفوارق الاقتصادية الفاحشة، التى جعلت بعض الناس يزرعون القمح ويأكلون التبن، ويزرعون القطن ويلبسون (الخيش)، ويبنون العمارات الشامخة على أكتافهم، ويسكنون هم وعائلاتهم فى (البدرونات) على أحسن الفروض! على حين يعيش آخرون غرقى فى الذهب والحرير، دون أن يقدموا للحياة عملا.

وفى هذه الفترة ظهر للشيخ كتابه البكر: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، وهو أول ما دخل به ميدان التأليف، وهو فى مقتبل شبابه.

ومن نظر فى الكتاب نظرة تأمل وإنصاف، رأى فيه أفكاراً أصيلة، ونظرات جديدة غير مسبوقة ولا مطروقة، مثل: هل للفضائل أسباب اقتصادية؟ وهل للرذائل أسباب اقتصادية؟ الاستعمار الداخلى يمهد للاستعمار الخارجى. فى هذا الباب يطرق فكرة نسبت بعد ذلك للمفكر الجزائرى مالك بن نبى، وهى أن الاستعمار الغازى لا يأتى إلا بعد قابلية من الشعوب المستعمَرة، والغزالى يذكر هذا المعنى، ويؤيده من القرآن بما ورد فى قصة بنى إسرائيل فى أوائل سورة الإسراء؛ فحيث يتغلغل الفساد والإفساد فى الداخل، يأتى تسليط العدو من الخارج.

لم يدرس الشيخ الغزالى الاقتصاد الوضعى، ولم يطلع على مدارسه ومناهجه ـ اشتراكية ورأسمالية ـ اطلاع المدقق الخبير، إنما عرف روح هذه الفلسفات وأساس هذه الأنظمة، واعتقد أن الاشتراكية ـ وهو يعنى المثالية منها ـ تقف مع الكادحين والمستضعفين، الذين وقف دائما فى صفهم، باسم الإسلام.

وقد اشتبكت مرة ـ وأنا طالب بكلية أصول الدين ـ مع بعض الحقوقيين الذين درسوا

شيئا فى علم المالية وعلم الاقتصاد؛ حين هاجموا الشيخ الغزالى لأنه كتب تحت عنوان كبير وهو: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» دون أن يدرس الاقتصاد ويحيط به!

قلت لهم: إن الشيخ لم يزعم ذلك لنفسه، ولكنه رأى أوضاعا عوجا، تتمسح بالإسلام ظلما وزورا، فأراد أن يبرئ الإسلام منها، وأن يبين موقف الإسلام الصحيح من هذا الانحراف، وهذا ما بينه بجلاء فى مقدمة الطبعة الأولى، إذ يقول:

«هذا بحث مجمل فى موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية، اعتمدت فى موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين والفهم المستقل لآثاره الثابتة، ولم أجنح فى هذه الدراسة إلى المقارنة بين نظام ونظام، أو المفاضلة بين مذهب ومذهب، من هذه الأنظمة والمذاهب التى تمخض عنها تطور الفكر الإنسانى فى العصر الأخير، فليس هذا ما يعنينى، ولست أملك العدة اللازمة لاستقصاء البحث فيه! وإنما ألفت هذه الرسالة ورتبت فصولها المحدودة لغاية واحدة، هى إعطاء القارئ صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين، والروح العامة لمبادئه، والموقف الذى قد يقفه بإزاء الأفكار الاقتصادية المختلفة، وللقارئ بعدئذ أن يقارن ويفاضل ويستخلص من النتائج ما يشاء.

«وحاشاى بهذا الكلام أن أقحم الدين فيما ليس له، أو أن أحمله من الآراء ما لا شأن له به، فما إلى هذا قد قصدت. كل ما أبغيه أن أنصف الدين من سوء الفهم، وسوء الاستغلال. فقد أنكرت الشيوعية الدين، لأنها حسبته مخدرا للشعوب، ومسكنا لآلام الطبقات المظلومة، وصارفا لهمم أبنائها عن المطالبة بحقوقهم المضيعة. واحتقرت الرأسمالية الدين، إذ توسلت به إلى إشباع المطامع الجشعة وإقرار الفوارق الجائرة، وتعويق النهضات الحرة. والدين مظلوم بين من كفروه ومن حقروه: بين الشيوعية المتطرفة والرأسمالية المتعجرفة! ولابد من أن نكشف عن حقائقه، وأن نبين عن معالمه، لنرد عنه سوء الفهم وسوء الاستغلال جميعا. والسبيل العادلة إلى ذلك هى تحديد موقفه من نصوصه نفسها.

«ذلك أن الدين ـ للأسف الشديد ـ مصاب منذ القدم بإضافات زائدة، وأفكار فاسدة، شابت جوهره، وعكرت حقيقته، ولبّست تراثَ النبيين الهداة بأضاليل الشياطين الغواة. وعلينا أن نفصل الحق من الباطل، وأن نميز الخبيث من الطيب، حتى لا تختلط أمام النظرات السطحية أسباب الهدى وأسباب الضلال، فإذا تميز الخير عن الشر، وانفصل كذب الأرض عن وحى السماء، لم يبق ثمة موضع لسوء الفهم وسوء الاستغلال!! ولم

يبق على التنكر للدين إلا أقوام من المتنطعين والمتعنتين، وإلى هؤلاء لا يساق حديث ولا ينتظر إقناع.

«وقد قرر القرآن هذه الحقيقة ـ بشأن الدين وما يطرأ عليه من أوهام، وما يضاف إلى حقيقته من بدع وخرافات ـ فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤]... أجل فإن حقائق الدين من منابعه الفريدة الأولى لم تكد تسرى فى مجراها من هذه الحياة، حتى علقت بها من رواسب البيئات، ومخلفات القرون، وجهالات العامة، وشهوات الخاصة، ونزوات الحكام، ما ذهب بالكثير من صفائها ونقائها، حتى لتشبه ماء «النيل» فى مجراه الأدنى، لا يصلح للشراب إلا بعد مجهودات متعاقبة من الترشيح والتنقية ترده «سماويا» كما كان». أ. هـ.

ثم ظهر له بعد ذلك كتابه الثانى فى نفس الاتجاه: «الإسلام والمناهج الاشتراكية».

وكتب جملة مقالات فى مجلة «الإخوان»، ضمها فيما بعد كتابُه الثالث: «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، وكان ذلك قبل أن يصدر الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ كتابه: «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»، وقد كتب فى قائمة مراجعه ـ بالطبعة الأولى ـ كتابَيْ الغزالى: «الإسلام والأوضاع» و«الإسلام والمناهج».

وربما راجع الشيخ بعض ما كتبه فى هذه الكتب الأولى، منقحا ومعدلاً، كما هو شأن الإنسان دائما يتغير اجتهاده من حين إلى الآخر. ومن فضائل الشيخ أنه رجاع إلى ما يعتقد أنه الحق.

وكان الشهيد سيد قطب قد أصدر مجلة «الفكر الجديد»، وهى مجلة ثورية تُعنى بالمسألة الاجتماعية، وتستلهم الإسلام، ولم تستمر أكثر من بضعة أشهر، وكان الغزالى أحد كتابها.

ثم جاءت محنة ديسمبر عام ١٩٤٨م، حين صدر قرار حل جماعة الإخوان، ومصادرة ممتلكاتها، والتنكيل بأعضائها، واعتقال عدد كبير منهم، وانتهى الأمر باغتيال الحكومة جهرة لمؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن البنا.

وكان مما قدر الله لى أن أكون من المعتقلين فى تلك المحنة التى أحالها الله منحة، وأنا طالب فى السنة الخامسة الثانوية بمعهد طنطا الدينى. وقد حجزت أكثر من شهر فى «سجن» القسم الأول للشرطة فى مدينة طنطا، مع مجموعة من الإخوة الزملاء [1]، ثم رحلنا إلى معتقل «الهايكستب» فترة قصيرة، ومنه إلى معتقل «الطور» فى سيناء، حيث ركبنا الباخرة «عايدة» من السويس مجتازين خليج السويس إلى مقامنا الجديد فى الطور.

وما زلت أذكر تلك اللحظة التى هاج فيها ركاب الباخرة لسبب ما، وحدث شىء من الهرج والمرج، وكاد يفلت الزمام، فإذا شاب قصير القامة، مشرق الوجه، يلبس ثوبا أبيض، حاسر الرأس، يتوقد ذكاء وحيوية، يخاطب الركاب فى حزم: أيها الإخوة، يجب أن نضبط أنفسنا، حتى نصل إلى مستقرنا الجديد، فى أرض انطلقت منها شرارة الوحى المقدس، لتحرير أمة مستعبدة، من طغيان المتألهين فى الأرض...

وقد لاحظت أنه حين بدأ كلامه، صمت الجميع كأن على رءوسهم الطير، ولم يكد يتم كلمته الموجزة، حتى ساد الهدوء وسار المركب فى أمان، وكأن شيئا لم يكن.

قلت لبعض الإخوة من أهل القاهرة: من هذا المتكلم؟ قالوا: ألا تعرفه؟ إنه الشيخ محمد الغزالى!

كم كانت فرحتى غامرة بتلك اللحظة السعيدة! لقد لقيت الرجل الذى أحببته عن بعد، فها هو ذا اليوم منى غير بعيد.

وشاء الله أن نوزع على أقسام معتقل الطور، فأكون من القسم الذى فيه الغزالى، وكان يسمى (الحذا). وكان حذانا رقم (١). فها أنذا ألتقى به صباح مساء.

كان الشيخ الغزالى إمامنا فى الصلوات، وخطيبنا فى الجمعة، ومدرسنا فى الحلقات، مع أخيه ورفيقه العالم الفقيه الشيخ سيد سابق. كان يصلى بنا الصلوات الخمس ويقنت بنا قنوت النوازل، وكان من دعائه فى هذا القنوت: اللهم افكك بقوتك أسرنا، واجبر برحمتك كسرنا، وتولّ بعنايتك أمرنا. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، اللهم عليك بالظالمين!

---

(١) منهم من الأحياء: د. أحمد العسال، والمهندس حكمت بكير، والمهندس شفيق أبو باشا، والحاج إبراهيم الباجورى - حفظهم الله - وممن انتقل إلى رحمة الله: الأستاذ حسنى الزمرمى، والحاج محمود عبية، والأستاذ جمال الدين فكيه، والزميلان الصديقان: محمد الدمرداش مراد، ومصباح محمد عبده - رحم الله الجميع.

وكان الشيخ يلقى علينا محاضرات فى موقف الإسلام من استبداد الحكام، كانت نواة الكتاب الذى أصدره بعد الخروج من المعتقل، وهو: «الإسلام والاستبداد السياسى».

ومما لاينسى: أن الإخوان كانوا قد اختاروا مسئولا عنهم، كما هى سنة الإسلام: «إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم»، وكان هو أستاذنا الداعية الكبير البهى الخولى، صاحب «تذكرة الدعاة» وغيرها من الكتب الأصيلة ـ رحمه الله ـ وجزاه عن الدعوة خيرا.

ولكن الأستاذ البهى قد استدعى إلى القاهرة، حيث وجه إليه اتهام فى قضية تتعلق بالنظام الخاص. فاجتمعت كلمة الإخوان على اختيار الشيخ الغزالى قائدا لهم داخل المعتقل، برغم أن فى المعتقلين من هو أكبر منه سنّا.

وفى تلك الآونة، كان العسكريون الذين يحكمون المعتقل يأكلون حق المعتقلين، من الأطعمة الجافة و«المعلّبات» التى تصرف لهم وباسمهم من الدولة.

وكان هؤلاء يحسبون أن المعتقلين أسرى تحت أيديهم ولا يملكون أن يقولوا: لم؟ بله أن يقولوا: لا.

ولكن الشيخ الغزالى خطب الجمعة، فألهب العواطف، وفجر بركان الثورة على هذا الظلم البيّن، وهذه السرقة العلنية، متحديا أولئك الطغاة المتمردين على عدل الله، معلنا الحرب على ذلك الثنائى الدنس، المتمثل فى الفرعونية الحاكمة بأمرها فى بلاد الله، والقارونية الكانزة لمال الله عن عباد الله.

وما إن قُضيت الصلاة، حتى قاد الشيخ مظاهرة تندد بالظلم وتعلن العصيان وتملأ هتافاتها الفضاءَ: تسقط اللصوصية المنظمة! تسقط سياسة التجويع!!

وكانت مفاجأة للعسكر حكام المعتقل، فلم يملكوا إلا أن يذعنوا لمطالب المعتقلين فى تسليمهم المقررات الجافة من الأطعمة ليتولوا هم طبخها وتوزيعها بمعرفتهم.

وظللنا مدة لم تطل بمعتقل الطور، ثم فوجئنا بأن نودى علينا نحن طلاب المرحلة الثانوية، لينقلونا إلى معتقل «هايكستب»، قريبا من القاهرة، وقد قيل: إن ذلك تمهيد للإفراج عنا.

وما كان هذا بالشىء الذى سررنا به أو هششنا له، فقد كنا لا نريد فراق إخواننا بالطور، وعلى رأسهم الشيخ الغزالى.

وبعد رحلة قاسية فى صحراء سيناء، كانت مطايانا فيها «اللوريات» المكشوفة التى

حشرونا فيها كالأنعام أو الأبقار، يكوينا فيها وهج الشمس بالنهار، ويعَضنا فيها برد الصحراء بالليل، حتى وصلنا إلى «هايكستب»، فقضينا فيه عدة أشهر. ثم غيروا رأيهم، فأعادونا مرة أخرى إلى الطور، ظانين أنهم بهذا يضايقوننا ويضيقون علينا، وما دروا أننا كنا بذلك جد مسرورين، فقد التأم الشمل، وائتلفت حبات العقد المتناثرة.

وكان من حسن حظى أن أكون فى نفس القسم الذى يؤمه ويخطبه الغزالى، فحمدت الله تعالى. وكنا فى شهر رمضان المبارك، وكان الشيخ يصلى بنا التراويح، ثمانى ركعات يقرأ فيها بجزء من القرآن الكريم، فعشنا مع القرآن كله، فسمعته منه غضا طريا، وهو يحفظه عن ظهر قلب، ويتلوه فى صلواته بانتظام، لا يخْرم منه حرفا. وكان رمضان بصيامه وقيامه ودروسه، مأدبة روحية حافلة، وخصوصا وراء إمام كالغزالى، تصلك بالله تلاوته، ويدلك على الله كلامه، ويذكرك بالآخرة عمله وسلوكه.

وفى أواخر شهر رمضان، أذن الله بسقوط وزارة الطاغية الأثيم إبراهيم عبدالهادى، وبدأت الإفراجات، وكنت فى أوائل من أفرج عنهم، ولم يشب فرحة الإفراج عندى إلا البعد عن الشيخ الغزالى.

ثم ازددت اقترابا من الشيخ، فى فترة الدراسة بكلية أصول الدين، فكنت أنا وأخى وزميلى أحمد العسال على صلة وثيقة به، نزوره، ونتحدث إليه، ونستمع منه، وكثيرا ما كان يدعونا إلى الغداء فى بيته فى «درب سعادة» بحى الأزهر، فنشبع من جيد طعامه، كما نشبع من جيد كلامه، هذا لعقولنا، وذاك لبطوننا.

وقد وجدنا الشيخ الذى يشتد ويحتد فى نزاله الفكرى، فيَهدر كالموج، ويقصف كالرعد، ويزأر كالليث، حتى إنك لتحسبه فى بعض ما يكتب مقَاتلا فى معركة، لا مجادلا فى قضية، وتحسب القلم الذى فى يده، السيف أو الرمح فى يد ابن الوليد! وجدناه ـ عن كثب ـ إنسانا رقيق القلب، قريب الدمعة، نقى السريرة، صافى الروح، حلو المعشر، رضى الخلق، باسم الثغر، موطأ الأكناف، عذب الحديث، سريع النكتة، بسيطا متواضعا، هينا لينا، بعيدا عن التكلف والتعقيد والتظاهر والادعاء. تسبق العبرة إلى عينيه إذا سمع أو رأى موقفا إنسانيا، ويهتز خشوعا وتأثرا إذا ذكر الله والدار الآخرة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه، يعترف لكل ذى موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، يكره الظلم والتسلط على عباد الله، يقول بصراحة: لا أحب أن أتسلط على أحد، ولا أن يتسلط علىّ أحد.

كان الغزالى بعد خروجنا من المعتقل أواخر سنة ١٩٤٩م، هو اللسان الأول الناطق باسم الدعوة إلى الإسلام، والمحامى الأول عن حرماته ومفاهيمه.

فهو يسطر المقالات الممتعة فى مجلة «المباحث» التى استأجرها الإخوان، لتعبر عن رسالتهم، ويؤلف الكتب التى تخاطب عقل المسلم وقلبه، وتعمل عملها فى إيقاظ الوعى الإسلامى العام.

وهو يقف بالمرصاد لكل متطاول على قيم الإسلام وأحكامه، ليرسل عليه شواظا من نار، مسلحا بقلم لا يصدأ، ولا يفل، ولا يستكين.

وقد سعدت مصر فى تلك المرحلة بزيارة الداعية الإسلامى الهندى الشاب، المتوقد روحانية وحيوية: السيد أبى الحسن على الحسنى الندْوى، الذى كنا عرفناه من خلال كتابه القيم: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، وقد تعرف على الغزالى فى لقاءات شتى، وسافر معه فى رحلات دعوية متعددة، وسجل ذلك فى كتابيه: «مذكرات سائح فى الشرق العربى» و«مسيرة الحياة» فيقول:

«فقد خرجت فى تلك الفترة مع الشيخ محمد الغزالى - الذى هو أكبر كاتب وباحث إخوانى، وأوثق ترجمان للجماعة - إلى كثير من قرى مصر وأريافها مرارا وتكرارا».

صدر له فى هذه الفترة جملة من الكتب التى اشتهرت وذاع صيتها فى عالم الثقافة والفكر، مثل: «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، «الإسلام والاستبداد السياسى»، «تأملات فى الدين والحياة»، «عقيدة المسلم»، «خلق المسلم».

ومن أشهر كتبه فى تلك المرحلة: كتاب: «من هنا نعلم»، وهو كتاب رد به على كتاب: «من هنا نبدأ» للشيخ خالد محمد خالد، الذى كان صديقا للغزالى من قبل، وكانا قد تعارفا وتعاونا على العمل الإسلامى، وإن كان ذاك فى الجمعية الشرعية، وهذا فى الإخوان.

وارتضيا أن يكوّنا لجنة لنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة، تحت عنوان: «الدين فى خدمة الشعوب»، ردا على الشيوعيين الذين يزعمون أن «الدين أفيون الشعوب»!.

وكان الشيخ خالد قد وعد بنشر كتاب فى هذا الاتجاه بعنوان: «يا أربعمائة مليون هبوا»! يخاطب فيه المسلمين فى أنحاء الأرض، وكان هذا عددهم الذى يذكر فى ذلك الحين.

فلما خرجنا من المعتقل، فوجئ الجميع بأن الشيخ خالدا قد غير اتجاهه بزاوية مقدارها ١٨٠ درجة، وأصدر كتابه الجديد: «من هنا نبدأ»، الذى صفقت له، وروّجت له كل القوى المعادية للإسلام: شيوعية، وصليبية، وماسونية، وعلمانية.

وهنا تصدى له الغزالى، فى سلسلة مقالات قوية، نقد فيها شبهات خالد ورد على دعاويه، ثم جمعت هذه المقالات فى كتاب: «من هنا نعلم»، الذى كان أقوى ما رد به على الكتاب المذكور، مع رفق وأدب، ورعاية لرابطة الود القديم. وكان الغزالى ـ رغم خلافه لخالد ـ يظن به خيرا، وقد صدّقت الأيام ظنه.

والأستاذ خالد ـ والحق يقال ـ ليس كاتبا عاديا. إن له قلما يفتن قارئه برشاقة عبارته، وسحر أسلوبه، وروعة بيانه، وقوة معاصرته، لا يجحد بذلك إلا مكابر. ثم إنه رجل حر، يقول ما يؤمن به، ويكتب ما يريد لا ما يراد منه. فهو من النوع الذى لا يباع ولا يستأجر، فكان لابد أن يتصدى له قلم فى مثل مقدرته وإخلاصه لما يدعو إليه، إن لم يزد عليه. ولم يكن فى الساحة مثل الغزالى، الذى كان كتابه كما قال الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر!

وصدر بعد ذلك للغزالى كتاب آخر فى المواجهة والرد أيضا على من يتحاملون على الإسلام، ذلكم هو كتاب: «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»، ردا على كتاب أصدره أحد النصارى الأقباط، افترى فيه على الإسلام، واجترأ على حماه. لم يشأ أن يذكر اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه، حتى يموت فى مهده. كل ما ذكره عن المؤلف: أنه صاحب منصب مرموق فى الدولة.

وقد كلفه الأستاذ حسن الهضيبى ـ مرشد الإخوان حينئذ ـ أن يتولى الرد على الكتاب بالعلم والحجة، بلا سب ولا تجريح.

ومن عايش هذه المرحلة من تاريخ مصر فى عهد الملكية، يعلم أن كُتب الغزالى ومقالاته كان لها دور مهمّ فى إيقاظ العقول، وتنبيه القلوب، وإذكاء المشاعر، وتهيئتها للثورة على الأوضاع الظالمة.

ظلت الكتب تتوالى، فى ميادين الدعوة المختلفة، وأبرزها: «فقه السيرة»، ألفه الشيخ فى رحاب المسجد النبوى، وفى ظلال الروضة الشريفة، حين كان مديرا للتكية المصرية بالمدينة المنورة. وهو كتاب يتجلى فيه قلم الأديب، وفكر العالم، وروح الداعية، وعاطفة

المحب للرسول العظيم ﷺ . حتى ذكر أنه كثيرا ما كان يكتب ودموعه تنهمر على الورق الذى يكتب فيه، فيختلط الدمع بالمداد!!

كما ظهر له كتابان ـ فى أثناء خلافه مع الأستاذ الهضيبى ـ فيهما كثير من المرارة الممزوجة بالحدة والعنف فى نقده للحركة الإسلامية وقيادتها، وهما: «فى موكب الدعوة» و«من معالم الحق»، وقد اعتذر الشيخ فيما بعد عما صدر منه فيهما، وسنعرض لذلك فى حينه.

وظهر له مجموعة من الكتب فى مجال التنوير والتبصير بحقائق الإسلام، وفى مجال التنبيه والتحذير من أعداء الإسلام. من هذه الكتب:

ـ الاستعمار أحقاد وأطماع.

ـ ظلام من الغرب.

ـ ليس من الإسلام.

ـ كيف نفهم الإسلام.

ـ كفاح دين.

ـ جدد حياتك.

ـ الجانب العاطفى من الإسلام.

ـ هذا ديننا.

ـ الإسلام فى وجه الزحف الأحمر.

ـ دفاع عن العقيدة والشريعة.

ـ حقوق الإنسان بين الإسلام وميثاق الأمم المتحدة.

ـ قذائف الحق.

ـ معركة المصحف فى العالم الإسلامى.

وغيرها من الكتب...

وفى السنوات الأخيرة، جند الشيخ قلمه، لكشف التدين المغشوش أو المغلوط، ومطاردة الأفهام السقيمة للإسلام، التى ابتليت بها الساحة الإسلامية فى هذا الزمن،

والتى شغلت الناس بالمسائل الصغيرة فى الدين، على حساب القضايا الكبرى. وقد بدأ ذلك من قديم، كما يتجلى ذلك فى كتبه: «تأملات فى الدين والحياة» و«ليس من الإسلام» و«ركائز الإيمان بين العقل والقلب».

وقد صدرت له فى هذا جملة من الكتب الناقدة، ابتدأها بكتابيه الشهيرين:

(أ) «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين»، وبه شرح الأصول العشرين للشهيد حسن البنا.

(ب) «مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية»، وهو الكتاب الأول من كتب مجلة «الأمة» القطرية، الذى قدم له مدير تحريرها الأستاذ عمر عبيد حسنة، بمقدمة ضافية عن الشيخ وجهوده، وآثاره فى ميدان الثقافة والفكر الإسلامى.

وسنعرض لذلك فيما بعد.

لقد كانت كتب الشيخ ومقالاته فى شبابه صرخات عالية من شأنها أن توقظ النيام، ولم تكن همسات خافتة تبعث على التثاؤب، وتنيم اليقظان! كانت ثورة على الظلم والطغيان قبل أن يسمع الناس كلمة «الثورة».

وكان كثير من الشباب يحفظ كلمات الغزالى ويرددها لما تحمله من نصاعة البيان، وقوة الإيمان، وروح القرآن، وكان فيها من الحرارة والحيوية، ما يلائم توثب الشباب، وطموح الشباب.

أذكر أن الأخ عبدالله العقيل (1) ـ حين كان يدرس فى كلية الشريعة بالأزهر فى أوائل الخمسينيات ـ كان يحفظ مقدمة الطبعة الثانية لكتاب: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» ومطلعها:

« لم تستذل ـ فى هذا العصر ـ شعوب كما استذلت شعوب الشرق، ولم يستغل شىء ـ فى هضم حقوقها ـ كما استغل الدين، لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالى، كما يصرخ الحارس اليقظ إذا رأى جرأة اللصوص الوقحين».

وفى آخرها يقول:

« يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان، إن الشفاه التى تأمر بإذلالكم يجب أن تقص،

---

(1) الأمين العام المساعد الآن لرابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة.

والأوضاع التي تغتال حقوقكم يجب أن تقصى، والفراغ الذي خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد، يجب أن تنزاح غمته إلى الأبد».

المبارز الشريف:

لقد كانت تلك المرحلة من حياة الغزالي مرحلة «المبارزة» للباطل وأعوانه ودعاته، ولكنها مبارزة متميزة. فإن من عاشر الغزالي عرف فيه طبيعة الفرسان الشرفاء، إنه «مبارز» واثق بنفسه، لا يفر من معركة، ولا يطعن من الخلف، ولا يهاب المواجهة، ولو مع أعتى العتاة، ولا ينازل ضعيفا، أو يتبع مدبرا، أو يجهز على جريح!

لقد رد على الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه: «من هنا نبدأ»، ولكن عندما اقترح بعض الناس أن يجرده الأزهر من شهادة العالمية، استنكر الغزالي ذلك، ولم يقبل أن تدخل السلطة طرفا في الموضوع، متكئة على الأزهر، وقال في مقدمة كتابه: «من هنا نعلم»:

«إن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ، وإعطاءه حق الحياة.

«وأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش ريثما يعدم ويتوارى. والطريق التي نؤثرها أن نحارب الفكرة بالفكرة.

«ونحن الذين نعمل للإسلام لا نهاب أي هجوم عليه، لأننا موقنون أنه سوف ينكسر على حدوده.

«ولقد تحدث الناس أن الأزهر ربما سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد، وهذا إجراء أرى أن التعليق عليه واجب.

«فإن الأزهر يكيل بكيلين، بل بعدة مكاييل في هذا الموضوع، فقد أصدر قرارا ضد الشيخ علي عبدالرازق - صاحب كتاب: «الإسلام وأصول الحكم» - ثم عاد فأبطله! واكتفى بنقل الشيخ عبدالمتعال الصعيدي من الكليات إلى القسم العام - وقد زعم أن الأمر بالحدود المستقرة في الكتاب والسنة للندب لا للوجوب، وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم! إلخ . . . - وجرم خالد هو جرم هؤلاء الأشياخ».

إنه خلق المبارز الشريف، أو قل: هو خلق المسلم، الذي لا يخرجه الغضب عن الحق، ولا يدخله الرضا في الباطل ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

الفصل الثانى

الغـزالـى وحسـن البنـا

الغزالى وحسن البنا

حسن البنا فى عين الغزالى:

كبر الشيخ وعظم مقامه فى عالم الإسلام كله، ولكنه لم يكبر على حسن البنا، الرجل الذى عرف على يديه حقيقة الإسلام الحى المتحرك، وآمن بمواهبه العقلية والنفسية والروحية والعملية لقيادة الدعوة الإسلامية، والعمل الإسلامى، فى عصر ابتلى الإسلام فيه بعجز علمائه، وجهل أبنائه، وكيد أعدائه، وفساد أمرائه، وشح أغنيائه. يقول عنه الغزالى:

«كان حسن البنا ـ حيث حل ـ يترك وراءه أثرا صالحا، وما لقيه امرؤ فى نفسه استعداد لقبول الخير إلا وأفاد منه ما يزيده صلة بربه، وفقها فى دينه، وشعورا بتبعته نحو الإسلام والمسلمين.

والرجل الذى يشتغل بتعليم الناس لا يستطيع فى أحيانه كلها أن يرسل النفع فيضا غدقا، فله ساعات يخمد فيها، وساعات يتألق وينير. إن الإشعاع الدائم طبيعة الكواكب وحدها. وقد كان حسن البنا، فى أفقه الدانى البعيد، من هذا الطراز الهادى بطبيعته، لأن جوهر نفسه لا يتوقف عن الإشعاع.

سل الألوف المؤلفة التى التقت به... أو التى أشرق عليها الرجل فى مداره العتيد، ما من أحد منهم إلا وفى حياته ومشاعره وأفكاره، أثر من توجيهات حسن البنا، أثر يعتز به، ويغالى بقيمته، ويَعُدّه أثمن ما أحرز فى دنياه».

ويتحدث الغزالى عن أول لقاء تعرف فيها على حسن البنا، فيقول:

«كنت طالبا بمعهد «الإسكندرية» عندما اتصلت بحسن البنا. كان ذلك من عشرين عاما تقريبا[1]. بيد أن الأمسية الرفافة العذبة التى وصلتنى به لا تزال محفورة فى ذاكرتى.

---

(١) كتب هذا فى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين.

ولست أنسى طريقة هذا الرجل فى صقل الأرواح، ووصلها بينابيع الحياة والحركة من كتاب الله وسنة رسوله . . .

والتربية الروحية فن دقيق .

إن النار على مسافة محدودة تدفئ، وعلى مسافة أقل تحرق، وكذلك تحديث الناس عن الدنيا والآخرة . . . إن هذا الحديث قد يخلق الفدائيين، وقد يخلق الانطوائيين المتواكلين .

وأشهد أن حسن البنا عرف كيف ينقل الإسلام إلى قلوب واعية، فإذا بها تتحدى الحتوف فى ميادين البطولة، وتكسب الساحات فى ميادين العمل للدنيا .

إن خدمة الإسلام لا تصح خبط عشواء، وإنما تصح كما رسم القرآن: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ...﴾ [يوسف: ١٠٨].

والفتيان الأخيار الذين شرفوا الإسلام فى هذا العصر هم ثمار ناضجة لهذه التربية الروحية الموفقة . فُروسيتهم بالنهار وليدة رهبانيتهم بالليل . ونجاح خطاهم فى الحياة أثر صلتهم الموثقة بالله .

ترى هل تعود الليالى المباركات التى كنا نصفى فيها قلوبنا، ثم نصف أقدامنا ونصلى لله؟ ليتها تعود!» .

ظل الشيخ الغزالى محبا لحسن البنا، وفيّا لبيعته، معترفا بإمامته، ذاكرا لفضله، مشيدا بجهوده البناءة والسباقة فى سبيل البعث الإسلامى، منافحا عن دعوته وسيرته إذا مسه أحد بسوء .

ذكر أمامه - ونحن فى المعتقل - ما كتبه «العقاد» فى جريدة «الأساس» - لسان حال «السعديين» - عن الأستاذ البنا ووالده وأسرته، وكان كلاما سخيفا متحاملا، فقال الغزالى فى غضب: «أما والله لو كان لنا حرية التعبير، ومكنا من الرد، لاستطاعت أقلامنا الشابة أن تكسر تلك الأقلام التى شاخت فى الضلال»!

وفى الذكرى الأولى لاستشهاد الإمام البنا، أصدر الأستاذ صالح عشماوى عدداً خاصا من مجلة «الدعوة»، وكتب فيه الغزالى مقالا بعنوان: «غصن باسق فى شجرة الخلود»، عبر فيه عن حقيقة مشاعره نحو المرشد الشهيد، الذى عاش حياته يسوق الناس إلى الله، ويحشدهم ألوفا ألوفا فى ساحة الإسلام .

وفى أكثر من مناسبة كتب عنه بمثل هذه الحرارة.

ومنذ سنوات، حين سعدنا به أستاذا فى جامعة قطر، زارنا بكلية الشريعة أخ قديم، وزميل كريم، من أساتذة الأزهر، عرفته من الإخوان طوال عهد الدراسة، وكان يسكن معى فى شقة واحدة فى شبرا. ثم تحول إلى إحدى الطرق الصوفية، ودخل فيما يدخل فيه المتصوفة من أحوال ومواجيد. وكان يقول للشيخ بإخلاص: كم أود ياشيخنا ـ بل كم أدعو الله ـ أن تختم حياتك بالدخول فى الطريق، وتأخذ العهد على شيخى!

وكان رد الشيخ حفظه الله: يافلان، وهل رأيت شيخا أفضل من حسن البنا؟

لقد أغنانا حسن البنا عن الأخذ عن أى شيخ بعده!

وتوج ذلك شرحه لـ «الأصول العشرين» التى جعلها الشهيد أساسا لوحدة الفهم لدى العاملين للإسلام، ولهذا سمى الغزالى هذا الشرح: «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين».

وكتب له مقدمة قال فيها:

«مُلهم هذا الكتاب وصاحب موضوعه الأستاذ الإمام حسن البنا، الذى أصفه ويصفه معى كثيرون بأنه مجدد القرن الرابع عشر للهجرة. فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل المتفرق، وتوضح الهدف الغائم، وتعود بالمسلمين إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتتناول ما عراهم خلال الماضى من أسباب العوج والاسترخاء بيد آسية، وعين لماحة، فلا تدع سببا لضعف أو خمول.

وعملى كان تأصيل هذه المبادئ وشرحها فى ضوء تجاربى المستفادة خلال أربعين عاما فى ميدان الدعوة، قضيت بعضها مع الإمام الشهيد، وبعضها مع الرجال الذين رباهم، وبعضا آخر مع مؤمنين مخلصين أحبوا دينهم، وجاهدوا فى سبيله، وقاوموا ببأس شديد جميع القوى التى أغارت عليه، وحاولت إطفاء نوره، وتنكيس رايته..

ومن الخطأ القول بأن حسن البنا أول من رفع راية المقاومة فى هذا القرن الذليل. لقد سبقه فى المشرق العربى، والمغرب العربى، وأعماق الهند وإندونيسيا، وغيرها، رجال اشتبكوا مع الأعداء فى ميادين الحرب والسياسة والتعليم والتربية، وأبلوا بلاء حسنا فى خدمة دينهم وأمتهم.

وليس يضيرهم أبدا أنهم انهزموا آخر الأمر، فقد أدوا واجبهم لله، وأتم من بعدهم بقية الشوط الذى هلكوا دونه.

إن حسن البنا استفاد من تجارب القادة الذين سبقوه، وجمع الله فى شخصه مواهب تفوقت فى أناس كثيرين.

كان مدمنا لتلاوة القرآن، يتلوه بصوت رخيم، وكان يحسن تفسيره كأنه الطبرى، أو القرطبى، وله قدرة ملحوظة على فهم أصعب المعانى ثم عرضها على الجماهير بأسلوب سهل قريب.

وهو لم يحمل عنوان التصوف، بل لقد أُبعِد من طريقة كانت تنتمى إليها بيئته (١).

ومع ذلك فإن أسلوبه فى التربية، وتعهد الأتباع، وإشعاع مشاعر الحب فى الله كان يذكر بالحارث المحاسبى، وأبى حامد الغزالى . . .

وقد درس السنة المطهرة على والده، الذى أعاد ترتيب مسند أحمد بن حنبل، كما درس الفقه المذهبى باقتضاب، فأفاده ذلك بصرا سديدا بمنهج السلف والخلف.

ووقف حسن البنا على منهج محمد عبده وتلميذه صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا، ووقع بينه وبين الأخير حوار مهذب، ومع إعجابه بالقدرة العلمية للشيخ رشيد، وإفادته منها، فقد أبى التورط فيما تورط فيه (٢).

ولعله كان أقدر الناس على رفع المستوى الفكرى للجماهير، مع محاذرة لبقة من أسباب الخلاف ومظاهر التعصب.

وقد أحاط الأستاذ البنا بالتاريخ الإسلامى، وتتبع عوامل المد والجزر فى مراحله المختلفة، وتعمق تعمقا شديدا فى حاضر العالم الإسلامى، ومؤثرات الاحتلال الأجنبى ضده . . .

ثم فى صمت غريب أخذ الرجل الصالح يتنقل من مدن مصر وقراها، وأظنه دخل ثلاثة آلاف قرية من القرى الأربعة آلاف التى تكون القطر كله.

وخلال عشرين عاما تقريبا صنع الجماعة التى صدعت الاستعمار الثقافى والعسكرى، ونفخت روح الحياة فى الجسد الهامد . . .».

كان الغزالى محبا لحسن البنا معجبا به، ولكنه ليس إعجاب التقديس أو التهويل،

---

(١) يقصد. الطريقة الحصافية التى حدثنا عنها الإمام الشهيد فى «مذكرات الدعوة والداعية».
(٢) يريد. اشتباكه مع مشايخ الأزهر، ورجال الطرق الصوفية بأسلوب حادّ!

وكان يرى أن حسن البنا مهد الطريق، وعلينا أن نكمل المسيرة، لا نتراجع ولا نتوقف. لقد أدى الرجل الفذ ما عليه، وبقى على أبنائه وإخوانه أن يؤدوا ما عليهم.

وفى معتقل الطور كان للشيخ الغزالى بين الحين والحين ـ وخصوصا فى أعقاب بعض الصلوات ـ مواعظ بليغة، تميزت ـ ككل مواعظه ـ بالإيجاز لا بالإطالة والإسهاب وبما فيها من أفكار حية، ونظرات جديدة. وكان يغرس فيها معانى الإصرار والثبات والتحدى، وأن موت حسن البنا لا يعنى أن المعركة قد انتهت مع أعداء الله وأعداء الأمة، وأن الراية التى رفعها البنا قد تلقفها جنوده وتلاميذه من بعده، ولن يدعوها تسقط أبدا. وكان يستشهد بقول مهلهل بن ربيعة بعد مقتل أخيه كليب:

ولست بخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليل النهار!

ومن الطرائف التى تذكر هنا لتأكيد هذا المعنى الذى حرص الشيخ على تغذيته وتثبيته: أن أحد الناس ـ بعد خروجنا من المعتقل ـ جلس مع الغزالى يترحم على حسن البنا، الذى كان أمة وحده، ويذكر خسارة الدعوة والوطن والأمة الإسلامية بموته. فرد عليه الغزالى شاكرا له ثناءه على الشهيد البنا، ثم قال له: ولكن دعوة البنا حية لم تمت. قال الرجل: ولكن الدعوة تحتاج إلى رجال! قال الغزالى: لقد ربى حسن البنا وراءه رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه. قال الرجل: لا أظن أن هناك من يرث البنا ويحمل اللواء من بعده! وهنا قال له الشيخ مغضبا: يا هذا، أتمدح حسن البنا بكلامك أم تذمه؟ إذا كان البنا لم يخلف وراءه رجالا يخلفونه فى حمل الدعوة فقد كان يستحق القتل إذن!! وهنا لم ينطق الرجل ببنت شفة.

وفى مقابلة صحفية للأخ الصحفى المسلم اللامع الأستاذ محمد عبدالقدوس ـ صهر الشيخ ـ على صفحات مجلة «الدعوة» الصادرة فى غرة ربيع الأول عام ١٤١٥هـ ـ أغسطس عام ١٩٩٤م كان هذا السؤال الذى وجهه للشيخ الغزالى:

سألت الداعية الإسلامى الكبير عما أعجبه فى إمامنا الشهيد.. أعنى مميزاته. أجابنى قائلا: قدرة خارقة على دراسة الحقائق الكبيرة والفلسفات الخطيرة والثقافات العالية، ثم تلخيصها بأسلوب سهل قريب من العامة، لكنه لا يهبط إليها. ولذلك فهو يملك تقديم معارف جديدة للناس لم يسمعوها من قبل، وأعتقد أنه كان قارئا من الطراز الأول، وأتذكر أننى شاركت فى جرد مكتبته الخاصة عقب وفاته، فوجدت بها ألوف الكتب وعلى بعضها تعليقات له.

ومع سعة معرفته فإنه ليس عارض ثقافات تستهوى الألباب بقدر ما هو صاحب رسالة يجمع الناس حولها ويربطهم بمبادئها، ويجندهم فكريا وسلوكيا لخدمتها. . كان ذكاؤه مدهشا، وذاكرته حديدية، وقدرته على تأليف القلوب عجيبة. كان المستمع يخرج من لقائه وهو عاشق للإسلام غيور على تعاليمه، راغب فى الدفاع عنه والموت فى سبيله.

وقد سأل الأستاذ محمد المجذوب الشيخ الغزالى عن الشخصيات التى تأثر بها فى حياته العلمية والدعوية، فكان جوابه:

«تأثرت بالشيخ عبدالعظيم الزرقانى، الذى كان مدرسا بكلية أصول الدين، وهو صاحب كتاب: «مناهل العرفان فى علوم القرآن»، وكان عالمًا يجمع بين العلم والأدب، وعباراته فى كتابه المذكور تدل على أنه راسخ القدم فى البيان وحسن الديباجة ونقاء العرض.

وفى معهد الإسكندرية الدينى تأثرت بالشيخ إبراهيم الغرباوى والشيخ عبدالعزيز بلال، وكانا يشتغلان بالتربية النفسية، ولهما درجة عالية فى العبادة والتقوى، وكانا يمزجان الدرس برقابة الله وطلب الآخرة وعدم الفتنة بنيل الإجازات العلمية؛ لأن للألقاب العلمية طنينًا ربما ذهب معه الإخلاص المنشود فى الدين.

وقد تأثرت أيضًا بالشيخ محمود شلتوت الذى أصبح فيما بعد شيخًا للأزهر، إذ كان مدرسًا للتفسير، وله قدرة ملحوظة فى هذا المجال، إلى جانب رسوخ قدمه فى مجال الفقه وعلوم الشريعة إجمالاً، وقد كان ـ رحمه الله ـ شخصية عالمية بارزة يلتف حولها الكثيرون.

أما تأثرى الأكبر فقد كان بالإمام الشهيد حسن البنا، وكان عالمًا بالدين كأفقه ما يكون علماء العقيدة والشريعة، وكان خطيبًا متدفقًا ينساب الكلام منه أصولا لا فضولا وحقائق لا خيالات. . وكان حسن البنا يدرك المرحلة الرهيبة التى يمر بها الإسلام بعد ما سقطت خلافته، وذهبت دولته، ونجح المستعمرون شرقًا وغربًا فى انتهاب تركته، فكان الرجل يعارض هذا الطوفان المدمر عن طريق تكوين الجماعات التى تعتز بدينها، وتتشبث بالحق مهما واجهت من متاعب أو عوائق أو ويلات.

حسن البنا كان صديقًا لكل من يلقى من أهل الإيمان، فتغمرك بشاشته عندما تراه، وتشعر كأنك أصبحت صديقًا أثيرا لديه، وكان يضن بوقته على اللغو، فما تمر ثانية ـ ولا أقول دقيقة ـ إلا وهو يخدم الإسلام بكلمة أو توجيه، أو عمل نافع، أو دعابة لطيفة تربط بين القلوب.

وذاكرة حسن البنا كانت حديدية، وكأنها شريط مسجل، يستوعب الأسماء والمعانى، فلو التقيت به وناقشت معه إحدى القضايا، أو ذكرت له اسم إخوتك مثلا ثم لقيته بعد ذلك ببضع سنين، لبادرك بالسؤال عن إخوتك وناقشك فى القضية التى طرحتها عليه منذ سنين، واسترجع معك الحديث وكأنه تم بالأمس القريب!

والحق أن الرجل كان يحب عن إخلاص لا عن تكلف، وربما عانق عاملاً يلبس بدلة الشغل الملوثة بشحوم الآلات وسوائلها، فما يحجزه شىء من ذلك عن ترجمة حبه. وحسن البنا له عبقريات منوعة يحتاج الكلام فيها إلى كتاب منفرد» (١).

إضافة إلى الأصول العشرين:

فى «خاتمة» كتاب «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين» الذى شرح فيه الغزالى الأصول العشرين للبنا، قال:

« قد أعطى نفسى الحق فى مخالفة أى فكر دينى سابق أو لاحق، ولكنى لا أعطيها أبدا حق الشذوذ أو الخروج على الإجماع.

إننى أوثر السير مع الجماعة الكبرى، وأحب وحدة الصف والهدف، وأرى أن الفرقة هزيمة وعذاب وشؤم، وأرفض أن تكون القضايا الصغرى سببا فى تنافر الأفئدة، وأوصى أن نتشبث بمعاقد الدين وعراه الوثقى!!

إن رب العالمين يغتفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، فهلا تعلمنا من ذلك تجاوز الهنات إذا احترمت الأمهات؟

إن التعاليم العشرين التى وضعها حسن البنا ـ رضى الله عنه ـ تضمنت خيرا كثيرا، وألحقت جماعته بالركب الإسلامىّ الكبير، ولم تُفردها بسِمة شاذة، ولم تجعل منه رجلا لطائفة منفصلة عن سواد الأمة.

إنه إمام بين عدد من الأئمة الذين ظهروا خلال القرون الأربعة عشر يخدمون الكتاب والسنة، ويستمدون شرفهم من الولاء المطلق لله ورسوله، والحفاوة المطلقة بكل من يلقون فى هذا الميدان الطهور، وإن اختلفت الملامح النفسية والفكرية.

وقد تعلمت من حسن البنا الإنصاف للغير مهما خالف فى الرأى، نعم عندما أخالف

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم: للأستاذ محمد المجذوب، الجزء الأول.

أحدا فى حكم ما فلا يجوز أن أهمل ما لديه من صواب كثير، ومواهب قد أفاءها الله عليه. يجب أن أحترم ذلك فيه، بل يجب أن أحترم ما وراء خطئه من غيرة دينية، تربطنى به وإن أنكرت قوله.

إن الذى أقلق حسن البنا، ويقلق كل مصلح بعده: أصحاب الأهواء الجامحة والمعارف الضحلة عندما يستبدّ بهم جنون العظمة، ويريدون فرض قماءتهم على الناس باسم الدين!!

ولعل إخراجى لهذا الكتاب يرجع إلى ضرورة الحفاظ على الإسلام من هوس أولئك الأغرار، إلى جانب أن الجمهور فقير إلى حقائق إسلامية كثيرة حرم منها دهرا. . والمسلمون ينهضون بالعلم لا غير.

ذلك وقد أعطيت نفسى الحق فى إضافة عشرة مقررات أخرى أحسب أننا بحاجة إلى إشاعتها.

وشرحها وارد فى كتبى الأخرى وفى مؤلفات الرجال الذين يكدحون فى الحقل الإسلامى الرحب.

لا أدرى أأصبت فى هذه الإضافة أم أخطأت؟ وحسبى أن الحق قصدت. . !!

وهذه هى الإضافات التى أرى المجتمع الإسلامى محتاجا إليها:

١ ـ النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وللنساء ـ فى حدود الآداب الإسلامية ـ حق المشاركة فى بناء المجتمع وحمايته.

٢ ـ الأسرة أساس الكيان الخلقى والاجتماعى للأمة، والمحضن الطبيعى للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجوّ الصالح بينهما. والرجل هو رب الأسرة، ومسئوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعا.

٣ ـ للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها.

٤ ـ الحكام ـ ملوكا كانوا أم رؤساء ـ أجراء لدى شعوبهم، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة، ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرها، أو يسوس أمورها استبدادا.

٥ ـ الشورى أساس الحكم، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها، وأشرف الأساليب ما تمحض لله، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغش وحب الدنيا.

٦ ـ الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التي قررها الإسلام، والأمة جسد واحد لا يهمل منها عضو، ولا تزدرى فيها طائفة، والأخوة العامة هي القانون الذي ينتظم الجماعة كلها فردا فردا، وتخضع له شئونها المادية والأدبية.

٧ ـ أسرة الدول الإسلامية مسئولة عن الدعوة الإسلامية، وذود المفتريات عنها، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء نظام الخلافة في الشكل اللائق بمكانتها الدينية.

٨ ـ اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان، أو حدثت فتنة، أو ظلمت فئات من الناس.

٩ ـ علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنساني المجرد، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجة والإقناع فحسب، ولا يضمرون شرّاً لعباد الله.

١٠ ـ يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى ـ على اختلاف دينها ومذاهبها ـ في كل ما يرقى ماديا ومعنويا بالجنس البشري، وذلك من منطق الفطرة الإسلامية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء، محمد عليه الصلاة والسلام.

تلك هي المبادئ العشرة التي أقترح إضافتها، والتي أتقدم بها مع التعاليم العشرين لمجدد القرن الرابع عشر الإمام الشهيد حسن البنا، رضي الله عنه.

ولمن شاء أن يقبل أو يرفض...

وآخر ما ندعو به: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]» (١).

وهذه المبادئ أو الأصول العشرة التي أضافها الإمام الغزالي إلى الأصول العشرين للإمام البنا، لها قيمتها ووجاهتها في عصرنا، وهي مسلّمة لدى الدعاة الأصلاء. كما أنها مسلمة من الإمام البنا نفسه، كما هو واضح من رسائله ومحاضراته وتراثه.

ولكن الذي جعل حسن البنا يقتصر على تلك (الأصول العشرين)، أنه كان يخاطب

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين: ص ٢٤٩ ـ ٢٥٢، ط دار الأنصار بالقاهرة.

بها الجماعات الدينية فى مصر، والتى اختلفت فى شأن القضايا التى تعرض لها اختلافا كبيرا، باعد بين بعضها وبعض، حتى انتهى إلى حد التكفير أحيانا.

وقد كان الإمام البنا حريصا كل الحرص على التأليف والتقريب بين الجماعات العاملة للإسلام، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولم يأل فى ذلك جهدا. ولهذا صاغ هذه الأصول صياغة وسطية حكيمة، من شأنها أن تجمع ولا تفرق، متبنّيا قاعدة المنار الذهبية: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه».

ولم يعن الإمام الشهيد بخطاب العلمانيين والمتغربين من أبناء الأمة بهذه الأصول، وإلا لانتهى إلى ما انتهى إليه الشيخ الغزالى من هذه الإضافات.

وهذا ما وضحناه فى شرحنا المفصل والمطول للأصول العشرين [1].

(١) انظر: نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام: الجزء الأول: شمول الإسلام، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

الفصل الثالث

الغزالى .. وحسن الهضيبى

الغزالى.. وحسن الهضيبى

الغزالى والهضيبى فى أيام الرضا:

كانت علاقة الشيخ الغزالى بالأستاذ حسن الهضيبى ـ المرشد الثانى للإخوان المسلمين ـ علاقة طيبة، منذ اختاره الإخوان قائدا لمسيرتهم، ورضوا به إماما لجماعتهم. وكان يصطحبه معه فى رحلاته الدعوية إلى الأقاليم ويكلفه ببعض الكتابات الدعوية، التى يراه أقدر عليها من غيره. كما رأينا ذلك فى الرد على ذلك القبطى الذى تطاول على الإسلام وشريعته وحضارته وتاريخه، وظهر ذلك فى كتاب: «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام».

وظلت هذه العلاقة حسنة، حتى ظهرت على المسرح السياسى ثورة ٢٣ من يوليو، وعجزت عن احتواء الإخوان الذين وقفوا إلى جوارها، وشدوا أزرها، وحموا ظهرها، فلجأت إلى أسلوب أخبث وأمكر، وهو: محاولة الإيقاع بين قادة الجماعة، حتى يسوء ظن بعضهم ببعض، واستطاع جمال عبدالناصر أن يستغل بعض المواقف للاصطياد فى الماء العكر.

وهكذا استطاع أن يوقع بين قيادة النظام الخاص وقيادة الجماعة، حتى أدى ذلك إلى احتلال مجموعة من الشباب المتحمس المركز العام، والتمرد على قرارات القيادة المبايعة. كما استطاع أن يوغر صدور جماعة من القادة القدامى، حتى وقفوا مع هذا الشباب الثائر ضد قيادته. وكان من هؤلاء أربعة معروفون من خيرة الإخوان جهادا وسابقة وخدمة للدعوة، ومحبة لدى جماهير الإخوان. كان منهم الشيخ الغزالى (١).

وفى هذا الجو الملبد بغيوم الفتنة المحبوكة، صدر قرار القيادة بفصل الأعضاء الأربعة من الجماعة. وبهذا بلغت الفتنة هدفها، وحققت مآربها.

---

(١) هؤلاء الأربعة هم: الأساتذة: صالح عشماوى وكيل الإخوان، والدكتور محمد سليمان، وأحمد عبدالعزيز جلال، بالإضافة إلى الشيخ الغزالى، وكلهم أعضاء فى الهيئة التأسيسية للإخوان.

الغزالى فى غضبه:

قد تخالف الغزالى أو يخالفك، فى قضايا تصغر أو تكبر، وتقل أو تكثر، ولكنك ـ إذا عرفته حق المعرفة ـ لا تستطيع إلا أن تحبه وتقدره، لما تحسه وتلمسه من إخلاص لله، وتجرد للحق، واستقامة فى الاتجاه، وغيرة صادقة على الإسلام.

صحيح أنه أخذ على الشيخ أنه سريع الغضب، وأنه إذا غضب هاج كالبحر، حتى يُغرِق، وثار كالبركان حتى يُحرِق!

وقد ظهر هذا فى خلافه مع الأستاذ الهضيبى ـ المرشد الثانى للإخوان ـ وما كتبه عنه فى مجلة الدعوة، ونشره فى كتابيه: «فى موكب الدعوة» و «من معالم الحق».

وهذا ما لا يجحده الشيخ الغزالى، وما يعلمه من نفسه، ويعلمه من عايشه وعاشره.

وسر هذا أن الرجل يبغض الظلم والهوان لنفسه وللناس، ولا يحب أن يَظلم أو يُظلم، ولا أن يستخف بكرامة أحد، كما لا يستخف بكرامته أحد. كما أنه لا يطيق العوج ولا الانحراف، وخصوصا إذا لبس لبوس الاستقامة، أو تستر بزى الدين، فهو الذى يقاتله سرا وعلانية.

فإذا رأى ظلما أو عوجا ـ فى رأى نفسه على الأقل ـ لم يستطع أن يغلق فمه أو يغمد قلمه، بل صب عليه جام سخطه، ولم يحفل بما يصيبه من شرر الصدام.

ولكن يكمِّل هذا أن الشيخ لا يفجُر فى خصومته، ولا يفترى على خصمه، أو يتمنى له السوء، أو يشمت به إذا نزل به بلاء، إنما هو كما قال القائل: رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمت!

ثم إن من صفات الشيخ الغزالى أنه ـ إن كان سريع الغضب ـ فهو سريع الفىء، رجاع إلى الحق إذا تبين له، ولا يبالى أن يعلن خطأه على الناس علانية، وهذه شجاعة لا تتوافر إلا للقليل النادر من الناس. فهو شجاع عندما يهاجم ما يعتقده خطأ، شجاع عندما يعترف بأنه لم يحالفه الصواب فيما كان قد رآه.

لقد كان له رأى فى سياسة الأستاذ حسن الهضيبى، ونقد بعنف هذه السياسة، وازداد عنفه حينما أعلن فصله من دعوة الإخوان، التى قضى فيها شبابه، ونذر لها عمره، ولم يكن يتصور أن يأتى يوم يبعد فيه عن دار كان أحد بناتها وحملة حجارتها. وكان إذا لامه لائم على حدّته يتغنى بقول الشاعر القديم:

وقــالوا: قــد جننــتَ فـقلتُ: كــلا وربى مــا جننتُ ولا انتــشــيتُ!
ولـكـنى ظـلـمـت فـكدت أبـكـى من الـظلـم المبـــيّن، بـل بكـيتُ!
فـــإن الماء مـــــاء أبى وجـــدى وبشـرى ذو حـفــرتُ وذو طويتُ!

وكان مما هاج غضبه، واستثار غريزة الدفاع فيه: أن بعض أولى الهوس من الإخوان هدده وتحداه، كما حكى ذلك الشيخ فى بعض كتبه، قال:

«إن ميدان العمل لله ورسوله أرحب من أن يحتك فيه متنافسون، وأسمى من أن يشتبك فيه متشاكسون!

وقد كنت حريصا على الصمت الجميل يوم عرفت أنى سأعمل للإسلام وحدى، بيد أن أحدا من خلق الله اعترضنى ليقول لى: إن تكلمتَ قُتلت (!)، فكان ذلك هو الحافز الفذ على أن أتكلم وأطنب.

إن اللفظة الرقيقة تطوق عنقى فأستسلم، أما التحدى فإنه يهيج فى طبيعتى غرائز الخصام.

وقد يرى القارئ فيما كتبته هنا، أو فيما كتبته من قبل، خطأ فى فكرة، أو جورا فى عاطفة، أو شذوذا فى نفس، يجب أن تُحذر وأن تحاصر!! ليكن ذلك كله أو شىء منه. فهذه نفسى، وهذه صحائفى، وأرجو ألا أتملق إلا ربى، وألا أهتم لأحكام الناس...»!

ومع هذا حين تبين له طغيان عبدالناصر، وسوء موقفه من الإسلام، ومن دعوة الإخوان، وسمع ما سمع عن التنكيل والتعذيب الذى تجرع مرارته إخوانه فى السجون والمعتقلات، وعن صلابة الأستاذ الهضيبى وثباته فى وجه الجبابرة، وأنه لم يحن لهم رأسا، ولم يوطئ لهم ظهرا ـ غيّر موقفه من المرشد الهضيبى ونوه بموقفه، وأشاد بإيمانه ورجولته. وحين أفرج عنه، سارع بالذهاب إلى منزله، ليهنئه ويصافحه بحرارة وإخلاص، وقد قابله المرشد بنفس الحرارة، وروح الأخوة، التى كانت دائما إحدى السمات الأولى المميزة لعلاقات الإخوان بعضهم ببعض.

بعد أن كتب الغزالى ما كتب من مقالات ـ فى فترة الغضب بعد فصله من الجماعة ـ رأى أن يطوى بعضها فلا ينشره فى كتاب، ونشر بعضها ثم حذفه، بعد أن هدأت نفسه، واستجابت لنصح بعض إخوانه.

وأبقى بعض الأشياء ـ على ما فيها من آثار الحدة والغضب ـ للتاريخ ، ومع هذا عقب فى إحدى الحواشى عليها بقوله :

«فى هذه الصفحات مرارة تبلغ حد القسوة، وكان يجب ألا يتأدى الغضب بصاحبه إلى هذا المدى، بيد أن ذلك ـ للأسف ـ ما حدث. وقد عاد المؤلف إلى نفسه يحاسبها وتحاسبه فى حديث أثبته آخر هذا الباب» (١).

ثم عاد آخر الباب إلى الحديث عن الأستاذ الهضيبى ـ رحمه الله وأكرم مثواه ـ فقال :

«إنه ما ادعى لنفسه العصمة، بل من حق الرجل أن أقول عنه : إنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وإن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات والأهواء.

ومن حقه أن يعرف الناس عنه أنه تحمل بصلابة وبأس كل ما نزل به، فلم يجزع ولم يتراجع، وبقى فى شيخوخته المثقلة عميق الإيمان، واسع الأمل، حتى خرج من السجن.

الحق يقال . . . إن صبره الذى أعز الإيمان، رفعه فى نفسى، وإن المآسى التى نزلت به وبأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور، ولم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخنا . . . على حين خرج من السجن أناس لم تبق المصائب لهم عقلا .

وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، وأصلحت ما بينى وبينه، ويغفر الله لنا أجمعين» . أ . هـ.

حكى لى الأخ الفاضل الدكتور مالك الشعار ـ القاضى الشرعى بلبنان ـ مشهدا رآه بعينيه من الشيخ الغزالى رفعه عنده مكانة فوق مكانته. قال : كنا فى جنازة أظنها كانت لزوجة الإمام الشهيد حسن البنا، والتقى فيها الأستاذ الهضيبى والشيخ الغزالى، فما راعنى إلا رأيت الغزالى يحاول أن يمسك بيد الهضيبى، يريد أن يقبّلها. والهضيبى يأبى، والشيخ يصر، فازددت والله إكبارا وإجلالا للغزالى على هذا التواضع العجيب، مع أنه كان فى ذلك الحين ملء الأسماع والأبصار. ولكن هكذا تكون أنفس الدعاة الكبار!

وكان مما هز الشيخ الغزالى وقدّره من مواقف الأستاذ الهضيبى، أنه أوصى فى مرض موته أن يدفن فى مقابر الصدقة، التى يدفن فيها الفقراء والغرباء! وهو من هو منزلة ومنصبا وجاها. فهذا إن دل على شىء، فإنما يدل على أن الرجل من الله بمكان أى مكان!

---

(١) حاشية ص ٢١٦ من معالم الحق.

وقد سجل هذه المأثرة للرجل الكبير، مقدرا ومتأثرا فى بعض كتبه فقال:

«من أيام مات الأستاذ حسن الهضيبى - المرشد الثانى لجماعة الإخوان - وبلغتنى وصيته: لقد أوصى أن يدفن خفية، لا إعلان ولا مواكب، وطلب أن يوارى جثمانه فى مقابر الصدقة.

وعقدت لسانى دهشة، وأنا أسمع العبارة الأخيرة (فى مقابر الصدقة)!

إننى أعرف حسن الهضيبى، وقد أصلحت ما بينى وبينه قبل أن يموت بنحو عامين...

فى نفس هذا الرجل ترفع وأنفة لا يتكلفها، وهو إذا اعتقد شيئا استمات فيه دون لف أو مكر...

قلت: لم مقابر الصدقة؟!

ولم يغب عنى الجواب. لقد كان مستشارا راسخ المكانة، رفيع الهامة.

لو اشتغل بمهاجمة الشريعة الإسلامية لنال جائزة الدولة التقديرية التى نالها غيره.

ولو خدم الغزو الثقافى لعاش فى شيخوخته موفور الراحة، مكفول الرزق.

ولكنه خدم الإسلام، فتجرع الصاب والعلقم! طعن مع الدين الجريح. وأهين مع الدين المهان! فأراد أن تصحبه هذه المكانة فى منقلبه إلى الله!

فليدفن فى مقابر الصدقة مع النكرات التى لا يباليها المجتمع!

فليدفن مع ناس أسلموا أرواحهم فى غرفات السجن الحربى، وهم رازحون تحت وطأة عذاب تنوء به الجبال!

الحق يقال: إن الأمة المصرية خاصة، والأمة الإسلامية جمعاء، يجب أن تراجع نفسها طويلا قبل يوم الحساب...

وسواء صحا الضمير الراقد أم بقى غافيا، فإن أعداء الإسلام لم يتغيروا فى مواقفهم منه. لقد تحركوا مستغلين الضربات التى أطارت رشده ومزقت شمله، فطمع البعض فى تهويده، والبعض فى تنصيره، والبعض فى تكفيره، كفرا يقطع علاقته بتة بالله والمرسلين أجمعين....

وتلك نتائج لم يكن منها بد للسياسة التى سلكها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر..

وما ألفنا هذا الكتاب إلا بعد ما رأينا أن ارتداد مصر عن الإسلام، خطة يتحرك بها كثيرون يعالنون بها ولا يستسرون. . . ! !

وظاهر أن جمال عبدالناصر كان أداة رائعة فى يد القوى العالمية الحاقدة على الله وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله لورد كرومر.

ما تكون (دنشواى) بجانب مجازر طرة والحربى وغيرهما من سجون؟!

ومعلوم أن مصر، والعرب كلهم، والمسلمين فى القارات الخمس مكلفون بالتفريط فى عقيدتهم وأرضهم. . . وان مأساة فلسطين نموذج لمآس أخرى عديدة.

ومعلوم أن الحرب المعلنة علينا تعتمد على جماح دينى عند اليهود، والنصارى، أعنى المستعمرين منهم، وأن الدفاع لن يتماسك أو يقم أو ينجح إلا بعاطفة دينية مقابلة ترد الجماح المعتدى.

لقد كانت رسالة الزعيم المصرى أن يميت العاطفة الدينية عند المسلمين، وأن يطارد كل أثارة من الإسلام. . . . أى كان يمهد للتعصب الزاحف ويدع الطريق أمامه مفتوحا. ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [هود: ١٨، ١٩](١).

وكان خلاف الشيخ مع الأستاذ الهضيبى وقرار فصله من الجماعة، سببا فى نجاته من الاعتقال أوائل سنة ١٩٥٤م، وأواخرها، وكذلك سنة ١٩٦٥م، وإن كان قد أخذ إلى معتقل طرة لمدة عشرة أيام، ثم أفرج عنه، فقد كان عبدالناصر حريصا على تثبيت الفرقة بين قادة الإخوان، وتأجيج نارها ما استطاع، واعتقال الجميع يقربهم بعضهم من بعض ـ فالشدائد تؤلف بين المختلفين، والمصائب يجمعن المصابين.

ولكن الشيخ وإن عوفى من الاعتقال فى هذه السنين السود، كان قلبه يتقطع أسى من أجل إخوانه، وكم رآه زواره تذرف عينه العبرات ألما لما يلقاه البرآء الأطهار، وراء الأسوار، وما تلقاه الحرائر من أمهات وزوجات وبنات وأطفال اعتقل عائلوهم أو قتلوا. ورغم قساوة الظروف، وانتشار العيون التى للمكاتب، والآذان التى للجدران، لم يغلق بابه فى وجه أحد قصده، بل كان مكتبه وبيته وقلبه، كلها مفتوحة لإخوانه وأهليهم وذويهم، كما شهد بذلك كل ما كانوا على صلة بالشيخ فى تلك الفترة العصيبة، لا ردها الله.

---

(١) قذائف الحق: ص١٠٨، ١٠٩.

وأقول هنا: رب ضارة نافعة، ومن الشر ما يأتى بالخير.

وكم لله من سر خفى يدق خفاه عن فهم الذكى!

وقد كان التآمر على يوسف الصديق عليه السلام، وإلقاؤه فى غيابة الجب، وبيعه بثمن بخس دراهم معدودة، محنة أى محنة ليوسف عليه السلام، ولكن كان فى طيها منحة له ولمصر، ولما حول مصر، فقد كان القدر يعده لينقذها، بفضل الله، ثم بحسن تخطيطه وتدبيره وتنفيذه من مجاعة ماحقة، وقحط لا يبقي ولا يذر: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦].

وكذلك كان خلاف الشيخ الغزالى مع الأستاذ الهضيبى، وفصله من جماعة الإخوان، وهو ما آله أشد الإيلام، وضاق به أعظم الضيق، وما أسينا له جميعا أبلغ الأسى، كان منحة ورحمة من الله من جهات أخرى لم نكن نعلمها.

فقد بقى الغزالى فى الساحة يتحدث عن الإسلام، ويبلغ رسالته وإن لم تكن له الحرية الكاملة، ولكن صوته كان مسموعا، وكاد يكون هو الصوت الإسلامى الوحيد البيّن، الذى يجأر بالدعوة إلى الله، وسط الضوضاء الصاخبة التى تنعق بتقديس الطاغوت. وكان هو الشمعة الهادية فى تلك الفترة الحالكة الظلمات، وكان لسان هذه الشمعة يهتز ويتأرجح ويوشك أن ينطفئ، كلما هبت الريح من يمين وشمال، لولا أن لله مشيئة وحكمة أن يظل نورها مضيئا، حتى تبزغ شمس الحرية يوما.

الفصل الرابع

الغزالى .. وثورة ٢٣ يوليو

الغزالى .. وثورة ٢٣ يوليو

كان الغزالى ـ لطول حربه للمَلَكية الفاسدة، والإقطاع المتسلط، والظلم المتجبر ـ شديد الحفاوة بالثورة المصرية، ثورة الجيش فى ٢٣ من يوليو سنة ١٩٥٢م عظيم الترحيب بها، والمناصرة لها، وخصوصا أنها أنجزت بعض ما نادى به مثل تحديد الملكيات الكبيرة.

وكذلك كان الإخوان المسلمون جميعا، فهم الذين ساندوها من أول يوم، وسجدوا لله شكرا بانتصارها، وكانوا حراسها على المنشآت الأجنبية والوطنية التى يخشى أن يفكر خصوم الثورة فى الاعتداء عليها، وكانوا يَعُدّون الثورة منهم ولهم، وأن من قادتها من كانوا من الإخوان بالفعل، أو من أصدقاء الدعوة عن بعد، ومن تتلمذ على علماء كبار يوالون الإخوان كالعلامة الشيخ الأودن. ولا غرو أن وقفوا جميعا بجوارها، وحموا ظهرها، وحشدوا قوى الشعب لمساندتها، والرد على المشككين فيها.

ولكن الإخوان سرعان ما انكشف لهم أن عبدالناصر يريد الثورة لنفسه ولحسابه فقط، وأنه يضمر شرا للحركة الإسلامية، ولكل قوة تقف فى طريقه. وقد ظهرت دلائل كثيرة تؤكد ذلك منذ وقت مبكر ـ وأنا شخصيا لمست ذلك ـ وهذا ما جعل الأستاذ الهضيبى يتوجس شرا من عبدالناصر، ولكن الشيخ الغزالى كان حسن الظن به، بناء على ظواهر رآها منه، أو سمعها عنه. ولكن الأيام أثبتت أن فراسة القاضى المتوجس، كانت أصدق من ظن الداعية المتفائل.

ومن ناحية أخرى، كان الغزالى ـ مع فريق من الإخوان القدامى ـ يتخوفون أن يدخل الإخوان مع الثورة فى معركة غير متكافئة، معركة مع حكومة عسكرية عاتية تملك الجيش والشرطة والقوات المسلحة، ولا تبالى بما تريق من دماء فى سبيل بقائها واستمرار حكمها! وإن من الخير للإسلام ولمصر وللإخوان، أن يكونوا أكثر ليونة مع الثورة وقائدها، الذى لم يتخذ ـ فى رأيهم ـ بعد موقفا صريحا ضد الإسلام.

ولعبت الوشايات دورها، وغام الجو، والتبس الحق بالباطل، وهبت رياح الفتنة،

وحدثت أحداث ما كان ينبغى لها أن تحدث فى رحاب الجماعة التى قامت أساسًا على الإخاء والحب. وقرت بذلك عين عبدالناصر؛ ليضرب أبناء الدعوة الواحدة بعضهم ببعض، وهو يتفرج عليهم ضاحكا مسرورا. ونسوا وصية إمامهم حسن البنا، الذى حذرهم من مغبة الفرقة، حين قال لهم يوما: والله ما أخشى عليكم الإنجليز ولا الأمريكان ولا غيرهم من القوى المعادية فى الخارج والداخل، ولكن أخشى عليكم أمرين: أن تعصوا الله فيتخلى عنكم، أو تتفرقوا فلا تجتمعوا إلا بعد فوات الفرصة!

وأدت هذه الفتن إلى فصل الغزالى ونفر معه من الجماعة، وانقسام الصف، وافتراق الكلمة، وهو الأمر الذى مكن لعبدالناصر أن يبطش بالجماعة بطش من لا يخاف خالقا، ولا يرحم مخلوقا.

المهم أن الغزالى أدرك بعد ذلك خبث عبدالناصر وسوء طويته، وكيده للإسلام وأمته، وكتب فى ذلك بعض الكتب المعبرة عن وجهته هذه، مثل: «كفاح دين» و«قذائف الحق» و«معركة المصحف فى العالم الإسلامى» و«حصاد الغرور» و«الإسلام والزحف الأحمر» وغيرها...

وفى كتابه: «كفاح دين» كشف اللثام عن الخطط المبيتة لضرب كل تحرك للإسلام، والاستعانة على ذلك بأبناء المسلمين أنفسهم. وذكر فيه إحصاء بالمساجد التى هدمها رجال الثورة بدعوى تجميل القاهرة، ولم يبنوا بدائل لها.... وسلط الضوء على ما تقوم به أجهزة الإعلام من تخريب للعقول والضمائر.

وكان قد خطر له أن يجعل عنوان هذا الكتاب: «سياسة تمويت الإسلام»، سمعت ذلك منه، ثم رأى العنوان الآخر أخف وطأة، وأدل على روح المقاومة والكفاح الكامنة فى طبيعة الإسلام.

وفى كتاب: «قذائف الحق» وضع النقاط على الحروف، وفضح المؤامرات اللئيمة التى دبرت ـ وما زالت تدبر ـ للإسلام عامة، ولدعوة الإخوان خاصة، باعتبارهم القوة المتحركة والمحركة لأمة الإسلام. وسجل فى كتابه (الوثيقة الرهيبة) التى أعدها زكريا محيى الدين وشمس بدران ورجالهما، ووقع عليها عبدالناصر للقضاء على الإخوان، وعلى الروافد التى تمدهم من سائر التيارات والقوى الدينية فى مصر.

كما أكد أن القومية العربية لا يمكن أن تكون بديلا عن الإسلام، وأن العرب بدون الإسلام صفر....

وفى هذا الكتاب، عرض الغزالى لعبدالناصر فى أكثر من موضع، وخصوصا فى فصل «الدعوة الإسلامية والحكام الخونة». فقد ذكره مع (أتاتورك) و(سوكارنو) و(سوهارتو) وغيرهم ممن استخدمتهم القوى المعادية للإسلام من صهيونية وصليبية وشيوعية.

وأنكر على عبدالناصر أن يستخدم الأزهر ـ أكبر جامعة إسلامية ـ ليستقبل الداعر المنحل سوكارنو ويمنحه أعلى شهاداته العلمية وهى «العالمية» الفخرية فى العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين!!

يقول الشيخ معلقا:

«والحق أنى حائر فى فهم جمال عبدالناصر. لقد كنت ـ كما يعلم الناس ـ من جماعة الإخوان المسلمين، وأقرر أن جمال عبدالناصر وكمال الدين حسين بايعا فى ليلة واحدة على نصرة الإسلام ورفع لوائه. وقد كنت قريبا من مشهد مثير وقف فيه جمال عبدالناصر أمام قبر حسن البنا يقول:

نحن على العهد، وسنستأنف المسيرة!

كان ذلك عقب قيام الثورة بأشهر قلائل (١).

وقد وضع كتّاب مسلمون كبار مقدمات للرسائل التى كانت تصدر تحت عنوان «اخترنا لك» أمضاها جمال عبدالناصر، وفيها أشرف ما يؤكده زعيم مسلم نحو أمته ودينه.

لا أدرى ما حدث بعد ذلك....

إنه تغير رهيب فى فكر الرجل ومسيرته، جعله فى كل نزاع بين الإسلام وطرف آخر ينضم إلى الطرف الآخر:

ـ انضم إلى الهند فى خصومتها المرة ضد باكستان المسلمة.

ـ انضم إلى الحبشة فى عدوانها الصارخ على إرتريا.

ـ انضم إلى تنجانيقا وأغضى عن المذبحة الشنعاء التى أوقعتها بشعب زنجبار المسلم، ورحب أحر ترحيب بنيريرى الذى يتظاهر بالاشتراكية وهو قسيس كاثوليكى!!

ـ انضم إلى القبارصة اليونان فى نزاعهم مع القبارصة المسلمين، وجعل الأزهر يستقبل مكاريوس عدو الكيان الإسلامى للأتراك.

---

(١) كان ذلك فى شهر فبراير (١٢ منه) سنة ١٩٥٣م.

ـ كان أسدا هصورا فى قتال اليمن، وحملا وديعا فى قتال اليهود، حتى جعل اليهود ـ وهم أحقر مقاتلين فى العالم ـ يزعمون أنهم لا يقهرون فى حرب!!

سـريع إلـى ابن العم يلـطم خـده   وليـس إلى داعى النـدى بسـريع!

ـ وقد ساند «البعث العربى» الحاقد على الإسلام، ورفض مساندة أى تجمع إسلامى، واخترع حكاية القومية العربية لتكون بديلا عن العقيدة الإسلامية . . . !!».

على أن الغزالى حتى فى أيام تجاوبه مع الثورة وتعاطفه مع اتجاهاتها الأولى، لم يهبط إلى مستوى يجعله لسان إطراء لها، أو أداة طيعة فى يديها، فإن طبيعته تأبى ذلك، وتكوينه النفسى والخلقى والعقلى يرفض أن يكون من ذلك النوع من المداحين والمتملقين.

ومواقفه فى ذلك معروفة فى عهود الرؤساء الثلاثة: عبدالناصر والسادات ومبارك.

ولن ينسى أحد موقفه فى (المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية سنة ١٩٦٢م) الذى عقده عبدالناصر، وتحدث فيه الغزالى خارج الخط العام للمؤتمر، مناديا بضرورة استقلال الأمة فى تشريعها، فلا تكون عالة على غيرها: وهذا هو الاستقلال الحقيقى، وبوجوب تميزها فى تقاليدها وأزيائها ـ أزياء الرجال والنساء ـ فلا تكون مجرد نسخة مشوهة للغرب فى أفكاره وتقاليده.

وهنا ثارت ثائرة الشيوعيين والمنحلين، وأعداء الإسلام المتسترين بالثورة، والمحتمين بحماها.

وكتب رسام الكاريكاتير الملحد المعروف صلاح جاهين، المحرر بالأهرام ما كتب من سخرية بالشيخ وكلامه، وما يرمز إليه من بقاء الإسلام والأزهر والإخوان. وكان صوت الغزالى المنادى بالإسلام، وصوت الأستاذ خالد المنادى بالحرية، هما البرهان الحى على أن مصر لم تمت، وأن فى الزوايا خبايا، وأن للحق رجالا.

نشر صلاح جاهين ـ المعروف بانتمائه الشيوعى ـ ١٤ رسما ساخرا، تحت عنوان «تأملات كاريكاتورية فى المسألة الغزالية» إن دلت على شىء، فإنما تدل على أن كلمة الغزالى قلبت موازينهم، وأصابت منهم مقتلا. وهو فرد، وهم ألوف، معهم الدولة والسلطان، والصحافة والإعلام.

والناس ألـف منهـمـو كـواحـد   وواحـد كـالألف إن أمـرٌ عنا!

ولقد بلغ التبجح بصلاح جاهين أن بعض الناس قالوا له : كيف تهاجم الإسلام ورجاله، وهو دين الدولة الرسمى؟ فقال لهم: إذا كان الإسلام دين الدولة فسأحارب الدولة!

ولقد غاظ الجماهير المسلمة أن يتعرض شيخها وإمامها الغزالى لهذه السخريات من صحفى ملحد أثيم، فخرجت يوم الجمعة (١/ ٦/ ١٩٦٢) من الجامع الأزهر فى صورة مظاهرة شعبية غاضبة مزمجرة، ضمت عشرات الألوف. وقد اتجهت الجموع الصاخبة إلى دار (الأهرام) القديمة تعلن احتجاجها وسخطها، وقد حاولوا أن يحملوا الشيخ الغزالى معهم على الأعناق، فرفض رفضا حاسما.

لقد سخر الشيوعى جاهين من عمامة إمامنا الغزالى، ولكن الشيخ وقف فى المؤتمر فى اليوم التالى يقول جهرة: إن تحت هذه العمامة رأس مفكر، كان يحارب الظلم والإقطاع، أيام كان أمثال هذا الكاتب قوادين لفاروق!

ولقد سمعته ـ وأنا فى قطر ـ يتحدث على الهواء فى المؤتمر، يرد على مفتريات الصحافة، التى حرفت كلامه، وعلى الصحافيين الذين قولوه ما لم يقل، حقدا على الإسلام الذى يمثله، وكان مما قاله: إن الذى يهاجمه هؤلاء اليوم باسم التقدمية والحرية، نشر له فى عهد الملكية خمسة كتب تهاجم الأوضاع الظالمة الفاسدة، طبعت مثنى وثلاث ورباع، فى الوقت الذى كان هؤلاء وأشباههم يسبحون بحمد فاروق وحاشيته!

وخرج الشيخ حفظه الله من المعركة مرفوع الهامة، محفوظ الكرامة، مرعيا بتأييد الله، وحب الشعب.

وبعد رحيل عبدالناصر، وقدوم عهد السادات، وإفراجه عن المعتقلين، وإعلانه بدء سيادة القانون، ومحاربته لمراكز القوى فى العهد الناصرى، استبشر الشيخ واستبشر الشعب المصرى كله، بعد أن انزاح الكابوس الذى جثم على صدره ثمانية عشر عاما. وتنفس الناس الصعداء، وشرع الكتاب يكتبون عن بعض مساوئ الحكم الناصرى ومآسيه، وما ذاقه المعتقلون والسجناء فى السجن الحربى وطره والواحات، وغيرها. وظهرت كتب ومقالات كشفت بعض المستور من آثار الطغيان والقهر، وظهرت «المنابر» السياسية التى تطورت بعد إلى أحزاب، بعد أن كان الحزب الواحد هو الذى يحكم مصر، من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى، إلى الاتحاد الاشتراكى.

استراح الشيخ إلى العهد الجديد، وبدأ يمارس نشاطه فى ظله، وأبرز ما يمثله: خطبة

الجمعة، التى كان الشيخ يلقيها فى الجامع الأزهر، التى جذبت إليها المثقفين، ولا سيما الشباب.

وفى عهد وزير الأوقاف الصالح شيخنا الدكتور عبدالحليم محمود، قال للشيخ الغزالى: إنى رأيت عمرو بن العاص رضى الله عنه فى الرؤيا يشكو من هجر مسجده. وكان المسجد مهملا حتى إنه فى أجزاء منه أصبح مرتعا للقمامة من أهل الحى. وطلب الوزير من الشيخ ـ الذى كان يعمل بالوزارة مسئولا عن شئون الدعوة ـ أن يتولى الخطابة بجامع عمرو، حتى يحيا المسجد وينتعش. وسر الشيخ بهذا التكليف، فجامع عمرو هو أول مسجد فى مصر، بل هو أول مسجد فى إفريقيا كلها.

وبالفعل تجدد المسجد مبنًى ومعنًى وعاونت المحافظة والوزارة فى ذلك، وأقبل الناس على خطب الشيخ، حتى بلغ عدد الحاضرين عشرات الألوف. وكون الشيخ بخطبه مدرسة إسلامية متميزة بالاستنارة والاعتدال، وانتشرت أشرطة هذه الخطب فى أصقاع مصر، وخارجها.

وفى هذه الخطب، كما فى مقالات الشيخ وكتبه، نقد لبعض الأوضاع، وكشف لبعض المخبوء من المكايد والتآمر على الإسلام وأمته. وهذا لم يرض السياسة المصرية. وحُذِّر الشيخ من هذا التوجه الذى يلتزمه. ولكن الشيخ استمر فى طريقه الذى رسمه لنفسه، ولم يصغ إلى ما نصحه به رئيسه الدكتور عبدالعزيز كامل نائب رئيس الوزراء للأوقاف والشئون الدينية. فكان لابد أن يوقف هذا النشاط، ويعزل الشيخ عن الخطابة فى المسجد، وأن يوضع الشيخ فى القائمة السوداء.

ورأى الشيخ أن الدولة أضحت تضيق به ذرعا، وأن عليه أن يبحث عن مكان آخر، فرحبت به جامعة أم القرى، ورحب الشيخ بمجاورة المسجد الحرام، تاركا الميدان فى مصر رغما عنه.

وفى أحد اجتماعات الرئيس السادات، سأله رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة «د. عبدالمنعم أبو الفتوح» عن سر التفريط فى الشيخ الغزالى ليغادر مصر، ويحرم جمهوره منه، وتقريب الضعفاء أو المنافقين. وهنا ثارت ثائرة السادات، وهاجم الشيخ الغزالى، واتهمه بأنه من دعاة الفتنة «الطائفية»، وما كان الشيخ يوما من هؤلاء ولا يكون. ولكنه رجل صريح شجاع، يدق ناقوس الخطر، إذا لاح له ما يهدد الأمة، فلا يمكن أن يغمض عينه أو يصم أذنه، والخطر من حوله يرى ويسمع.

الفصل الخامس

الغزالى .. رجل الدعوة

الغزالى .. رجل الدعوة

عرفت فى الشيخ الغزالى أنه رجل دعوة قبل كل شىء . الإسلام لحمته وسداه، وشغل نهاره، وحلم ليله، ومحور حياته كلها . الإسلام ماضيه، والإسلام حاضره، والإسلام مستقبله، فيه يفكر، وعنه يتحدث، وعليه يعول، وإليه يدعو، ومنه يستمد.

والدعوة إلى الإسلام لها كل عقله وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهده وجهاده، لا يستطيع الابتعاد عنها إلا كما يستطيع الحوت أن يبتعد عن الماء . يعيش به، وله، وفيه . له يسالم، وله يحارب، وفيه يحب، وفيه يبغض، وله يغضب، وبه يرضى ومن أجله يصل، ومن أجله يقطع، وله يحيا، وعليه يموت . أخلص دينه لله، فأخلصه الله لدينه .

ولهذا حين يتحدث عن الإسلام، فإنما يتحدث قلبه قبل لسانه، ويعبر قلمه عما جاش به صدره، وانفعلت به حناياه . فهو رجل ظاهره كباطنه، وعلانيته كسرِّه، أكره شىء إليه نفاق الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، فهم أشبه بمقابر مزوقة، فى جوفها جيف منتنة!

لا يحب الرياء الدينى، ولا الرياء الاجتماعى، ولا الرياء السياسى . ويرفض كل المظاهر الكاذبة، التى تقوم عليها الحياة الدينية أو الاجتماعية . ويندد بأولئك الدجالين الذين يأكلون بالدين ولا يعملون به، ولا يعملون له . ويلعن أولئك الحكام الذين يشاركون فى المناسبات الدينية، وأفئدتهم خراب من احترام شريعة الله، وآخرين يحتفلون بالمولد النبوى أو الإسراء أو الهجرة، ولم تزل أفواههم رطبة من الخمر .

الغزالى رجل دعوة مخلص لدعوته، متجرد لها، ولهذا ينفذ كلامه إلى القلوب، فيلهبها بمشاعر اليقين والحب، ومعانى الإيمان والإحسان .

وأشهد أنى ما سمعت الغزالى إلا تأثرت به، وتجاوبت معه، وذلك لما لمست فيه، طوال معايشتى له، من صدق وتجرد، جعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكيه على الله عز وجل .

عاش الشيخ للدعوة عمره، وكانت هى أكبر همه، ومحور فكره وعمله. ولم يلهث وراء مال أو جاه، فجاءه المال والجاه بفضل من الله تعالى، وبركة الدعوة، وهو دائما يذكر ذلك، ويذكّر به.

لم يركض وراء المناصب التى يتهافت عليها كثيرون ممن يلبسون لبوس أهل الدين، وأحق ما يوصفون به، ما جاء عن بعض السلف: ذباب طمع، وفَراش نار!

ولقد عرض على الشيخ أكثر من مرة أن ينضم إلى الحزب الحاكم، وأن يرشَّح على قائمته، ونثرت أمامه الوعود، ولوّح له بالمناصب، التى ارتقى إليها من دونه علما وعملا ودعوة وجهادا وشهرة.

وزاره أكثر من كبير من المسئولين، يحاولون أن يلينوا عريكته، ويجروا رجله إلى القيد الذهبى البراق.

ولكن الله سدد الشيخ وثّبته أمام كيدهم، فلم تلن له قناة، ولم يسل له لعاب، وظل بعيدا عن مواكب الطبل والزمر، فما يطيق الشيخ أن يسكت عن حق، فكيف يراد له أن ينطق بالباطل؟!

إن لسان الشيخ لم يخلق ليهتف باسم مخلوق، بل ليهتف باسم الله وحده، ذاكرا له، وتاليا لكتابه، وداعيا إلى دينه... ويد الشيخ لم تخلق لتصفق لزيد أو عمرو من الناس، بل لتمسك بالقلم سلاحا تشهره فى وجوه الطواغيت، وتنير بكلماته السبيل أمام طلاب الهداية فى تيه الضلالات، وملتمسى النور فى دنيا الظلمات.

وقد أهَّل الشيخَ للدعوة - بعد دراسته الأزهرية المتعمقة - حفظه لكتاب الله من الصبا، وشغفه بالقراءة من الصغر، حتى إنه ذكر عن طفولته أنها كانت عادية، وليس فيها شىء مثير، وإن كان يميزها حب القراءة. يقول: فقد كنت أقرأ فى كل شىء، ولم يكن هناك علم معين يغلب علىّ، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك، وأقرأ وأنا أتناول الطعام.

وللقراءة أهمية خاصة - يقول الشيخ - لكل من يدعو إلى الله، بل هى الخلفية القوية التى يجب أن تكون وراء الفقيه والداعية. وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة تهمة خطيرة للمتحدثين فى شئون الدين، وإذا صحت تزيل الثقة منهم.

إن القراءة - أى الثقافة - هى الشىء الوحيد الذى يعطى فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشئونه، وهى التى تضع حدودا صحيحة لشتى المفاهيم. وكثيرا ما يكون قصور

الفقهاء والدعاة راجعا إلى فقرهم الثقافى. والفقر الثقافى للعالم الدينى أشد فى خطورته من فقر الدم عند المريض وضعاف الأجسام. ولابد للداعية إلى الله أن يقرأ فى كل شيء: يقرأ كتب الإيمان، ويقرأ الإلحاد، يقرأ فى كتب السنة، كما يقرأ فى الفلسفة. وباختصار يقرأ كل منازع الفكر البشرى المتفاوتة؛ ليعرف الحياة والمؤثرات فى جوانبها المتعددة [1].

شروط الداعية فى نظر الغزالى:

سئل الشيخ الغزالى عن «شروط الداعية» المنشود كما يراها، فأجاب بقوله:

«الدعوة إلى الله لا يصلح لها بداهة أى شخص.. إن الداعية المسلم فى عصرنا هذا يجب أن يكون ذا ثروة طائلة من الثقافة الإسلامية والإنسانية، بمعنى أن يكون عارفًا للكتاب والسنة والفقه الإسلامى والحضارة الإسلامية. وفى الوقت نفسه يجب أن يكون ملما بالتاريخ الإنسانى وعلوم الكون والحياة والثقافات الإنسانية المعاصرة التى تتصل بشتى المذاهب والفلسفات.

ويجب على من يدعو إلى الله أن يتجرد لرسالته التى يؤديها فتكون شغله الشاغل. وعليه أن يعامل الناس بقلب مفتوح فلا يكون أنانيّا ولا حاقداً، ولا تحركه النزوات العابرة، ولا ينحصر داخل تفكيره الخاص، فهو يخاطب الآخرين وينبغى أن يلتمس الأعذار للمخطئين، وألا يتربص بهم بل يأخذ بأيديهم إذا تعثروا.

ويحتاج الداعية المسلم فى هذا العصر إلى بصر بأساليب أعداء الإسلام على اختلاف منازعهم، سواء كانوا ملحدين ينكرون الألوهية أو كتابيين ينكرون الإسلام.

وقد لاحظت أن هناك أصنافًا من الناس فى ميدان الدعوة تسيء إلى الإسلام أشد الإساءة، منهم الذى يشتغل بالتحريم المستمر فلا تسمع منه إلا أن الدين يرفض كذا وكذا، دون أن يكلف نفسه أى عناء لتقديم البديل الذى يحتاج إليه الناس.. وكأن مهمته اعتراض السائرين فى الطريق ليقفوا مكانهم، دون أن يوجههم إلى طريق آخر أرشد وأصواب.

وهناك دعاة يعيشون فى الماضى البعيد، وكأن الإسلام دين تاريخى، وليس حاضراً ومستقبلاً. والغريب أنك قد تراه يتحامل على المعتزلة والجهمية مثلا، وهو محق فى

---

(١) من أجوبة الشيخ فى كتاب: «علماء ومفكرون عرفتهم» للأستاذ: محمد المجذوب.

ذلك، ولكنه ينسى أن الخصومات التى تواجه الإسلام قد تغيرت وحملت حقائق وعناوين أخرى.

وهناك دعاة آخرون لا يفرقون بين الشكل والموضوع أو بين الأصل والفرع، أو بين الجزء والكل. فهم يستميتون فى الإنكار بأى شكل من الأشكال ويبددون قواهم كلها فى محاربة هذا الشكل، أما الموضوع فهم لا يدرون ماذا يصنعون إزاءه، ولهؤلاء عقلية لا تتماسك فيها صور الأشياء بنسب مضبوطة، ولذلك قد يهجمون شرقًا على عدو موهوم ويتركون غربًا عدوًا ظاهرًا، بل ربما حاربوا فى غير عدو..

وهؤلاء وأولئك عبء على الدعوة الإسلامية يجب إصلاحهم، كما يجب إصلاح الذين يدخلون ميدان الدعوة بنية العمل لأنفسهم لا لمبادئهم، فإن العمل الذى يستهدف القيم الإسلامية غير العمل الذى يدور حول المآرب الشخصية.

تبين لى بعد أربعين سنة من العمل فى الدعوة الإسلامية أن أخطر ما يواجه العمل الإسلامى هو التدين الفاسد، أى استناد النفس إلى قوة غيبية وهى تعمل للخرافات والأوهام، أو وهى تعمل للأغراض والمآرب..

الدين مثلا يقظة عقلية، وهؤلاء يعانون تنويمًا عقليًا متصلا، والدين قلب سليم، وهؤلاء استولت على قلوبهم علل رديئة.

والأمر فى كشف التدين الفاسد يحتاج إلى تفاصيل للتعامل مع الآفات النفسية والعقلية التى تسبب هذا البلاء. وقد خصص أبو حامد الغزالى جزءًا ضخمًا من كتابه: «الإحياء» فى علاج هذه الآفات والتحذير منها، كما وضع ابن الجوزى كتاب: «تلبيس إبليس» للكشف عن صور التدين الفاسد، وإبعاد العامة والخاصة عنه.

وقد ألفت بعض كتبى وأنا مستغرق فى محاربة هذا الجانب من التدين المعلول، سواء كان رسميًا أو شعبيًا، مثل كتاب: «تأملات فى الدين والحياة»، وكتاب: «ليس من الإسلام» وكتاب: «ركائز الإيمان بين العقل والقلب» وأخيرًا كتابى: «الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر».

والحقيقة أن التدين الفاسد سر انحراف كثير من العقلاء؛ لأنهم ينظرون إلى الدين من خلال مسالك بعض رجاله وآثارهم فى الحياة العامة. والواقع أن بعض المتدينين كانوا فى القديم والحديث بلاء على الدين» (١).

---

(١) المصدر السابق.

خطب الغزالى من أدوات الدعوة:

الغزالى داعية موهوب . وقد أتاه الله أدوات عدة للدعوة، فى مقدمتها: الخطابة [1].

ولقد استمعت إلى الشيخ الغزالى خطيبا، منذ معتقل الطور ـ فى فبراير عام ١٩٤٩م ـ إلى اليوم، فما تغيرت طريقته.

إن خطبه دائما تخدم موضوعا علميا محددا، يوضح معالمه وعناصره، ويستدل له من القرآن الكريم الذى يستحضر آياته فى كل موضوع كأنها مصنفة بين يديه، ومن السنة المطهرة، التى قرأ الكثير منها فأحسن قراءته، والفهم له، والاحتجاج به. وربما استدل بالضعيف منها ـ فى بعض الأحيان ـ أخذا برأى جمهور العلماء فى الاستدلال بالضعيف فى الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال.

وهى دائما مرتبطة بالواقع، تقوم عوجه، وتعالج أمراضه، وتسدد مسيرته، فى ضوء تعاليم الإسلام.

والشيخ داعية وناقد اجتماعى بصير، ينفذ ببصيرته إلى ما وراء الظواهر والأعراض؛ ليكشف عن حقائق العلل والأمراض، ولا يغيره الزيف ولا التهويل، الذى يغطى العيوب بتمويهات لا تخفى على اللبيب، كما لا تخفى حقيقة الداء على الطبيب.

وهو فى خطبه معلّم موجه، أكثر منه خطيبا محرضا.

وهو يخطب كما يكتب، عذوبة ورشاقة وأناقة. فخطبه كلها، قطع أدبية، لا تجد فيها حوشىّ الكلام، ولا سوقيه، كما لا تجد فيها التقعر والإغراب، الذى يحوجك إلى المعاجم لتبحث عن معانى ما سمعت.

وقارئ هذه الخطب يجد فيها أثر الثقافة المتنوعة، والتمكن الأزهرى، وأصالة الدراسة اللغوية والأدبية.

وهو متمكن من اللغة، واع لقواعد النحو والصرف، لا يلحن ولا يخطئ، كأنما يقرأ صحيفة مضبوطة بالشكل. وهو حريص على أن يكون أداؤه صحيحا مائة فى المائة،

---

(١) قد وفق الله بعض الإخوة لتفريغ مجموعة طيبة من خطبه المسجلة، وقام على ذلك الأخ الشيخ قطب عبدالحميد قطب، وراجعها الدكتور محمد عاشور، وتولت نشرها (دار الاعتصام)، وقدم لها الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين. فجزى الله الجميع خيرا: من سجّل، ومن فرغ، ومن نشر، ومن قدم. فهى ذخيرة لكل مسلم، ولا سيما الدعاة.

ولا يسامح نفسه فى زلة يسبق بها لسانه. وقد رأيته مرة تحمس فى خطبة فسبقت إلى لسانه هفوة نحوية يسيرة، فأسف لذلك أسفا شديدا، وقال: هذا نتيجة الانفعال، وسأحاول ألا أكرر ذلك ما استطعت!

ويلحظ المهتم بالعربية أن الشيخ يراعى الدقائق النحوية التى يغفل عنها الكثيرون، مثل اجتماع الشرط والقسم، وتقديم القسم أو ما يدل عليه، فلا يقع فيما يقع فيه من لا يعرف القواعد، ويقرن الجواب بالفاء. كقول بعضهم: لئن فعلتم كذا فسيعاقبكم الله. والصواب: لئن فعلتم كذا ليعاقبنكم الله. وفى هذا يقول ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم   جواب ما أخرت، فهو ملتزم

ولقد حدث الشيخ عن نفسه: أنه بعد تخرجه عين إماما وخطيبا بمسجد عزبان بالعتبة، وأنه بعد عدة أسابيع نفدت بضاعته ولم يجد ما يقوله للناس، فبدأ تكوين نفسه من جديد، يقرأ فى علوم الدين، ومعارف الدنيا، فى الكتب القديمة والكتب الحديثة، فى مصادر الشرق وما ترجم عن الغرب، حتى أمكنه أن يرضى عن نفسه، وأن يجد عندها ما يستطيع أن يمنحه لغيره. فالشهادة ليست هى نهاية العلم، بل مفتاحه، والداعية يجب أن يظل قارئا ما عاش، فالقراءة هى حياته، والله تعالى يقول لرسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، والسلف يقولون: لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل. ومن مأثوراتهم: اطلب العلم من المهد إلى اللحد.

وقد شدت خطب الغزالى جماهير المثقفين والشباب إليه، فكانوا يفدون إليه من أنحاء شتى مستمعين ومستفيدين، وخصوصا فى المساجد التى كان يخطب فيها بانتظام، مثل مسجد الزمالك، وجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص، الذى أحيته خطب الشيخ بعد أن كان شبه مهجور، وهو أول مسجد أسس للإسلام فى إفريقيا.

أنشأت هذه الخطب مدرسة إسلامية فى فهم الإسلام وإفهامه، وهى مدرسة تقدم الدين من ينابيعه الصافية، موثقا بالأدلة، خالصا من الزوائد والشوائب، بعيدا عن التحريف والتزييف، لا تسكت عن حق، ولا تتكلم بباطل، ولا تبيع دينا بدنيا. ولكنها لا تعرض لأشخاص بأسمائهم على المنبر، ولا تعتمد الإثارة والتهييج فى الموضوعات الحساسة، بل تعالج أدق القضايا بمبضع الجراح، متبعا ما أمر الدين به من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومستأنسا بما قاله السلف: من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

وبالرغم من أن الغزالى الخطيب كان هو المسئول عن الدعوة وشئون المساجد فى وزارة

الأوقاف المصرية، نراه يقول الحق، وإن كان مرا، لا يخشى فى الله لومة لائم، وهذا ما أزعج السلطات، التى تتوجس من هذا النوع من الخطب التى تنير العقول بالحقائق، قبل أن تثير المشاعر بالمبالغات.

وانتهى الأمر بمنع الشيخ من الخطابة بمسجد عمرو.

الدعوة بالقلم:

على أن الشيخ الغزالى ليس داعية بلسانه فحسب، بل هو داعية بقلمه كذلك، حتى إن أكثر الذين عرفوه - وأنا منهم - عرفوه أولا من نتاج قلمه، الذى بلغ إنتاجه اليوم نحو ستين كتابا.

وهو صاحب قلم متميز ببلاغته وروعة أسلوبه وقوة منطقة، جنده للدعوة من أول يوم؛ لتوضيح معالم الإسلام، وبيان حقائقه، والرد على أباطيل خصومه فى الداخل، وأعدائه فى الخارج، وإضاءة طريق البعث لأمته، حتى تعرف غايتها، وتستبين طريقها، بين أضاليل المضللين، وشبهات المبطلين.

ومن قرأ للغزالى أدرك أنه أمام كاتب مقالة من الطراز الأول وأن القلم فى يده أشبه بالسيف فى يد ابن الوليد أو صلاح الدين، فهو سيف الله المسلول على أعدائه، به يدافع، وبه يهاجم، وهو قوى فى دفاعه، قوى فى هجومه، دون أن يعتدى على أحد، فإن الله لا يحب المعتدين.

ربما كان عيب الشيخ الغزالى لدى بعض المتعالين والمتعالمين: أنه فى غاية الوضوح، وأنه مفهوم لمن يقرؤه، لا يجد قارئه معاناة فى فهمه والنفوذ إلى فكره.

كما يجد ذلك فيما يقرأ لبعض المتفلسفين والمتكلفين، الذين يعمدون إلى الإغراب والرمز والغمز، وتكثيف المصطلحات، إلى حد الإلغاز والإخفاء والتجهيل، ربما ليخفوا أفكارهم المسمومة وراء هذه الأكنة من التعابير الغامضة، التى تحتاج أبدا إلى حواشٍ لشرحها، ويعدون ذلك مزية لهم يباهون بها، فى مقابل الوضوح البين، والبيان الواضح، عند الغزالى وأمثاله، مما يَعُدّونه عيبا، ينزل بمرتبة أصحابه الفكرية والأدبية.

فإن كان هذا عيبا، فالأمر كما قال الشاعر:

وإذا تكون المكرمات معايبا   فالعجز أن تحيا ولست معيبا!

إن الغزالى يخاطب بكتاباته الفطرة، ويجتهد أن يقنع العقل، ويحرك القلب؛ لهذا لايتقعر، ولا يتكلف ولا يتعسف، وقلما يستخدم المصطلحات والكلمات التى بين قوسين، بل يحاول أن ينفذ إلى قارئه بنصاعة الأديب المبدع، ووضوح الداعية المشبع، وله فى بيان الله ورسوله أسوة حسنة.

منبر الصحافة:

ومن منابر الغزالى وميادينه للدعوة والبلاغ: منبر الصحافة.

فقد كان الشيخ منذ شبابه المبكر أحد كتاب مجلة «الإخوان المسلمون» الأسبوعية، ثم من كتاب مجلة «المباحث» التى استأجرها الإخوان بعد خروجهم من المعتقل سنة ١٩٤٩م، ثم مجلة «الدعوة» التى أسسها المدعو له بالرحمة الأستاذ صالح عشماوى، وكذلك المجلات الإسلامية المعروفة مثل: مجلة «لواء الإسلام» فى مصر، ومجلة «الأمة» القطرية التى استمرت ست سنوات ثم توقفت فجأة، وهى توشك على الظهور مرة أخرى إن شاء الله [١].

وهو فى السنوات الأخيرة يكتب بصفة منتظمة فى عمود أسبوعى بجريدة «الشعب» المصرية تحت عنوان: «هذا ديننا»، وصحيفة «المسلمون» السعودية، تحت عنوان: «الحق المر».

ولا يكاد حادث ذو بال يمر على المستوى المحلى أو الإقليمى أو الإسلامى أو الدولى إلا وكان للشيخ وقفة معه، وتعليق عليه، من وجهة النظر الإسلامية، بقلم الأديب المبدع، وروح الداعية المحلق، وعقل المفكر الملتزم، ونظرة الناقد المصلح.

ويكتب الشيخ أحيانا مقالات ممتعة لبعض المجلات لإيضاح بعض المفاهيم الإسلامية، أو بعض الشبهات، أو نقض بعض الافتراءات على الإسلام ودعوته.

وفى بعض السنوات أجرت جريدة الشرق الأوسط استفتاء لدى القراء عن «الكاتب الأول» فى نظرهم لهذا العام، فكان الشيخ الغزالى هو الفائز بأكثر الأصوات، وحاز الجائزة المرصودة لذلك.

ويتصل الشيخ بالصحافة عن طريق آخر، هو طريق الحوارات التى يجريها معه كثير من

---

(١) كان ذلك أملا أو حلما لم يتحقق حتى اليوم، وندعو الله أن يحققه.

الصحفيين، الذين يحرصون على معرفة رأى الشيخ فى كثير من القضايا التى تهم الناس، فيجيبهم إجابات تقصر أحيانا، وتطول أحيانا، حسبما يسمح به المقام.

ومن أشهر الحوارات هنا: ما أجرته مجلة «الأمة» معه من حديث حول القضايا الإسلامية، ونشره مدير تحريرها الأستاذ عمر عبيد حسنة ضمن كتاب «الأمة» الذى صدر بعنوان: «الدعوة الإسلامية ملامح وآفاق».

وأكثر هذه الإجابات مهم، وينبغى أن يجمع وينشر حتى ينتفع به الناس.

منبر الإذاعة والتلفزة:

ومن منابر الدعوة لدى شيخنا الغزالى: الإذاعة والتلفاز، وقد أذيعت له أحاديث كثيرة فى أقطار شتى، فى الإذاعة المسموعة، والإذاعة المرئية، عملت فى تنوير العقول بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة، وفى ترقيق القلوب وتزكية الأنفس بالمعانى الربانية، والمثل الأخلاقية الرفيعة، ما يعمله الغيث فى الأرض العطشى، يحييها بعد موتها.

وقد ظلت أحاديثه تذاع من إذاعة الصباح فى السعودية لسنوات، وكذلك كانت له أحاديث مذاعة ومتلفزة فى قطر والكويت والإمارات من بلاد الخليج.

وفى الجزائر كان له حديث أسبوعى مساء كل اثنين يبثه التلفاز، كان الناس فى أنحاء الجزائر يترقبونه، وينصتون إليه، ويجدون فيه معانى جديدة فى فهم الإسلام والحياة، تكمل ما بدأته المدرسة الإصلاحية التجديدية فى الجزائر: مدرسة عبدالحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمى، التى جعلت شعارها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وجعلت نشيد أبنائها:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال: حاد عن أصله ... أو قال: مات؛ فقد كذب

وأحسب أن أحاديث الشيخ هذه كان لها أثرها فى امتداد الصحوة ونموها، ورسوخ جذورها، وعلو فروعها، بجوار الكتب والمحاضرات والأشرطة وملتقيات الفكر الإسلامى، وعمل الدعاة والمربين أفرادا وجماعات.

مصارعة القوى المعادية للإسلام

وهناك جانب أساسى من جوانب الدعوة عند الغزالى، وهو: مصارعة القوى المعادية للإسلام، والتصدى لتياراتها، والعمل على كشف عملائها، وهدم أوكارها، وهتك أستارها، والوقوف فى وجه أخطارها وآثارها. والغزالى هنا مقاتل عنيد، لايستسلم ولا يطأطئ ولا يلين، ولا يقبل اللقاء فى منتصف الطريق، أو الرضا بأنصاف الحلول، بل صبر ومصابرة ومرابطه حتى النصر أو الشهادة.

فى وجه الاستعمار:

لذا وقف فى وجه الاستعمار، وكشف عن حقيقته ودوافعه، وأنها (أحقاد وأطماع). فليس الاستعمار مجرد طامع فى أرض المسلمين ونهب ثرواتهم وخيراتهم، ولكنه ـ إلى جوار ذلك ـ حاقد صليبى، يحمل ضغائن قديمة لم ينسها بعد الحروب الصليبية المعروفة، بل منذ احتل الأرض التى كانت مسيحية، بالشام ومصر وشمالى إفريقيا والأناضول، وحولها إلى قلاع إسلامية. وقد ظهر هذا فى موقف الغرب من قضايا الإسلام، وآخرها: قضية البوسنة والهرسك.

فى وجه الصهيونية:

وقف فى وجه الصهيونية العالمية، التى احتلت أرض النبوات، وانتهكت حرمة المقدسات الإسلامية، وشردت أبناء الأرض من ديارهم بغير حق. صنعت ذلك كله باسم التوراة، وتحت راية العقيدة اليهودية، التى جمعت اليهود المتفرقين فى الأوطان، ويراد للعرب وللفلسطينيين أن يقاتلوهم بغير دين، فيدخل اليهود المعركة ومعهم التوراة، ويدخلها العرب وليس معهم القرآن. وكان للشيخ فى ذلك كتابات كثيرة لا تحصى، من أبرزها ما أصدره بعد النكبة أو النكسة، وهو كتاب: «حصاد الغرور».

فى وجه التنصير:

ووقف فى وجه «التنصير» الذى يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم، فإن لم يقدر

على إدخالهم فى النصرانية اكتفى بزعزعة إسلامهم، وتشكيكهم فى دينهم. وللشيخ فى ذلك كتابات شتى، بأساليب متنوعة، لعل آخرها كتابه: «صيحة تحذير من دعاة التنصير»، وقد كتبه بعد أن قرأ ما صدر عن مؤتمر «كلورادو» سنة ١٩٧٨م من تقرير ضخم ضم أربعين (٤٠) دراسة عن الإسلام والنصرانية، وهو المؤتمر الذى اجتمع بهدف تنصير المسلمين فى العالم، ورصد لذلك ألف مليون دولار، وأنشأ لهذه الغاية «معهد زويمر» لتخريج متخصصين فى تنصير أمة الإسلام.

فى وجه الشيوعية:

ووقف فى وجه الشيوعية ومحاولاتها لغزو ديار الإسلام، وما صنعته بالمسلمين وراء الستار الحديدى من تصفيات جسدية، وحملات قمعية، وحمامات دموية. وللشيخ فى ذلك كتابات كثيرة أبرزها: كتاب: «الإسلام فى وجه الزحف الأحمر».

فى وجه الحضارة المادية:

ووقف الشيخ فى وجه مادية الحضارة الغربية، وإباحيتها الجنسية، وعصبيتها العنصرية، ومحاولات سيطرتها على حضارات العالم الأخرى، وإن لم ينكر ما فيها من عناصر إيجابية، مثل العلم والتكنولوچيا وحسن الإدارة واحترام حقوق الإنسان، وخصوصا فى داخل أوطانها، وله فى ذلك كتابات قديمة وحديثة من أبرزها كتاب: «ظلام من الغرب».

فى وجه العلمانية:

ولعل أبرز المعارك التى خاضها الشيخ، وأطولها نَفَسًا، وأشرسها هجوما، هى معركته مع «العلمانية» اللادينية، التى تعارض حاكمية الله لخلقه، وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة وعن المجتمع، وتحارب الذين يدعون إلى الإسلام الشامل، وتَعُدّهم دعاة الرجعية وأعداء التطور.

وقد بدأ هذا فى كتابات الشيخ منذ وقت مبكر، حينما رد على صديقه الشيخ خالد ـ فى فصل «قومية الحكم» من كتابه: «من هنا نبدأ»، حين كتب فصل «إسلامية الحكم لا قوميته» فى كتابه «من هنا نعلم».

ولكن الشيخ كان رفيقا بالأستاذ خالد، وكان حسن الظن به، وقد صدقت الأيام ظنه، كما ذكرنا ذلك من قبل، وعاد خالد يدعو إلى الإسلام عقيدة وشريعة، ودينا ودولة.

بَيْدَ أن الشيخ وقف بقوة وحرارة فى وجه العلمانيين الأصلاء فى العلمانية، المبغضين علانية لشريعة الإسلام، المجاهرين بتحقير حكم الله ورسوله، الداعين إلى تغريب المجتمعات الإسلامية.

كانت معارك الشيخ مع هؤلاء تتسم بشىء من الشدة والحدة بقدر نفور هؤلاء من الإسلام، وتنفيرهم منه، ومعاداتهم للدعاة إليه. وكلما أوغل هؤلاء فى عداوة الدين والشريعة كان قلم الشيخ كأنما هو شعلة من نار، نار تكوى وتحرق، ولا يخبو لها لهيب، كما نرى ذلك واضحا فى تعقب الشيخ لسقطات محمد سعيد العشماوى، ونصر أبو زيد، وفرج فودة، الذين أظهرت كتاباتهم مبلغ كراهيتهم لدعوة الإسلام، وتحكيم شريعته.

والشيخ يقول عن هذا النوع من العلمانيين: لماذا لا نسمى هؤلاء بأسمائهم الحقيقية؟ والاسم الحقيقى لهؤلاء: المرتدون. فهؤلاء قد مرقوا من الدين مروق السهم من الرمية، ولم يعد فى قلوبهم توقير لله تعالى، ولا تعظيم لكتابه، ولا احترام لرسوله، ولا انقياد لشريعته. ويعجب الشيخ من موقف هؤلاء المرتدين فى حقيقة أمرهم، لماذا يحرصون على أن يحتفظوا باسم الإسلام، وأن يظلوا محسوبين على المسلمين، والإسلام منهم براء، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول المثقّب العبدى:

فإما أن تكون أخى بصدق ... فأعرف منك غثى من سمينى!
وإلا فاطرحنى واتخذنى ... عدوا أتقيك وتتقينى!

كان هؤلاء العلمانيون يظهرون فى أثواب متباينة الأشكال. فقد يلبسون لبوس اليسار الثورى، وقد يلبسون لبوس اليمين الليبرالى، وقد يتحلون بعباءة القومية العربية، وقد يبدون فى أثواب أخر، ولكنهم جميعا شركاء فى الجرأة على الله تباركت أسماؤه، وفى التعالُم عليه جل علاه، والاستدراك على شرعه! فهم يزعمون أنهم أعلم من الله بخلقه، وأبر منه بعباده. وأنه تعالى حين شرع لهم ما شرع لم يكن يدرى ما يحدث لهم من تطورات، وما يجرى عليهم من أحداث، فهم لذلك يرفضون حكمه وحكم رسوله، ولا يرتضون مرجعية الإسلام فيما شجر بينهم.

وأكثر ما يغيظ الشيخ من هؤلاء العلمانيين الذين لا دين لهم هو : دجلهم وكذبهم على الله عز وجل! وذلك حين أقحموا أنفسهم على دين الله، وليسوا من الله فى كثير ولا قليل. وهم الذين يَعُدّهم الشيخ «نباتات سامة فى حقول الإصلاح»!

إنهم ورثة مسيلمة الكذاب الذى زعم أنه نبى يوحى إليه، ولم يوح إليه شىء، وظن المغفل أنه يدرك المجد بهذا الدجل المكشوف، فلم يدرك إلا القاع، وبقى اسمه إلى الأبد رمزا للكذب.

وتتابع الكذابون فى عصور مضت، فإذا أناس لا أثر لهم فى ميادين الفلسفة، ولا أثر لهم فى مجالات العلم، ولا ثقة بعقولهم فى شىء طائل يقتحمون ميدان الدين، ثم يزعم هذا أنه نبى بعد محمد! ويزعم أن الله قد حلّ فيه، وأنه مجلى لبهائه!!

وظاهر أن الاستعمار العالمى أراد الكيد للإسلام، والنيل من تعاليمه، فاستغل هذه «المانيخوليا» عند أصحابها، وروج لها وعَدّ أصحابها مؤسسى أديان ومحدَّثين عن الله، وساندهم بدهاء وإلحاح، فكان له ما أراد أو بعض ما أراد.

وعندما شرع المسلمون يفيقون من غفوتهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويدمغون الكهان الجدد، لاحقهم الاستعمار بنفر آخرين، هم امتداد للنبوات الكاذبة فى العصور السابقة، بفرض هؤلاء أنفسهم على الإسلام، بغية الإجهاز عليه من داخله، ولا شىء لديهم من علم أو فلسفة إلا ما ورثوه عن مسيلمة وغلام أحمد وبهاء الله، مزيج من المانيخوليا، والجراءة والكهانة والادعاء.

هذا دجال ظهر فى السودان يأخذ القرآن المكى ويرفض القرآن المدنى (١)، ويوفر له الأمن سنين عددا!! وهذا دجال ظهر فى مصر يقبل الكتاب ولا يقبل السنة (٢).

وبديه أن كلا الشخصين لا يعتمد فى مزاعمه على إسناد علمى، ولا ينجح فى مقارعة حجة بحجة. ماذا تقول لمسيلمة أو لسجاح أو لطواغيت القاديانية والبهائية، أو لطلائع الغزو الثقافى الذين يقسمون الوحى قسمين، فيمسكون قسمًا، ويطرحون قسمًا؟

---

(١) يقصد: محمود محمد طه، الذى قضت المحكمة العليا فى السودان بردته وبالدعوة إليها.

(٢) يريد: حسين أحمد أمين، الذى كتب فى مجلة «المصور» مقالات هاجم فيها الشريعة والسنة وفقهاء الأمة، والسلف الصالح وعمر بن عبدالعزيز، ودافع عن طغيان الحجاج. انظر: ردنا عليه فى كتابنا. فتاوى معاصرة جـ٢. فتوى: عمر بن عبدالعزيز وهل كان جاهلا بالسياسة؟ وانظر كذلك فى الردّ عليه كتاب: الكاذب الحزين، نشر دار الصحوة وتأليف منذر الأسعد وتقديم الدكتور عبدالحليم عويس.

هناك منطق عقلى أو تجريبى يحكم المقولات الفلسفية والقضايا المادية، أما هؤلاء فمنزع آخر تسيِّره أمراض نفسية، واضطرابات ذهنية، ونوع من الجنون المقدس أو عبادة الذات، وعلى الدهماء أن تسمع وتطيع . .

وتعاليم الإسلام فى هذه الأيام تهبّ عليها رياح صفراء من مصادر جديرة بالتفرُّس والحذر . . وغايتها لا تخفى علينا. إنها الإطاحة برسالة محمد كلها تحت عناوين مفتعلة: الاعتماد على القرآن واطراح السنة! الاعتماد على القرآن المكى وترك القرآن المدنى! تعطيل نصوص قائمة قد تكون عبادية كشريعة الصيام، فيقال: الصيام يضرّ الإنتاج فلنلغ رمضان! وقد تكون معاملات اجتماعية كأنواع الحدود والقصاص، فيقال: إقامة هذه العقوبات تكثر العاهات وتشيع البطالة فلنتجاوزها إلى ما هو أعدل منها وأرعى للصحة العامة!!

فضح عملاء الغرب:

ومما أخذه الشيخ على نفسه: أن يفضح عملاء الغرب الصليبى والشرق الشيوعى فى ديارنا، ويهتك أستارهم التى يتخفون وراءها ويتخذون لها عناوين شتى، من الحرية والتقدمية والتطور والتحرر والتنوير، وماشابهها.

لابد من تعرية هؤلاء الذين لاهمّ لهم إلا ترويج سلع الغرب الفكرية فى أرضنا، وبين أهلنا، وإن كان فيها السم القاتل لأمتنا؛ فهذا السم يوضع فى الدسم أو فى الحلوى، حتى يقبل ويشتهى.

من أجل ذلك هاجم سلامة موسى، ولويس عوض، وميشيل عفلق، وقسطنطين زريق، وچورچ حبش، وغيرهم من النصارى. كما هاجم لطفى السيد، وساطع الحصرى، وطه حسين، ونزار قبانى، وعبدالرحمن الشرقاوى، وصلاح چاهين، وحسين أمين، وغيرهم من المسلمين، سواء منهم من تسربل برداء القومية أو الاشتراكية أو التحررية، أو أى رداء كان.

ونأخذ هنا مثالا لموقفه من طه حسين ومحاولات أنصاره العمل على تخليد ذكراه، باعتباره الرائد الأول فى الأدب، والقائد الأول للفكر!

يقول الشيخ فى كتابه «علل وأدوية»:

«قرأت للدكتور طه حسين، واستمعت له، ودار بينى وبينه حوار قصير مرة أو مرتين، فصد عنى وصددت عنه!

أسلوب الرجل منساب رائق! وأداؤه جيد معجب، وهو بين أقرانه قد يدانيهم أو يساويهم، ويستحيل أن يتقدم عليهم. . بل عندما أوازن بينه وبين العقاد من الناحية العلمية أجد العقاد أعمق فكرا، وأغزر مادة، وأقوم قيلا. وأكاد أقول: إن الموازنة المجردة تخدش قدر العقاد. .

وأسلوب زكى مبارك أرشق عبارة وأنصع بيانا من أسلوب الدكتور طه حسين، ولولا أن الرجل قتله الإدمان لكان له شأن أفضل.

ودون غمط لمكانة الدكتور الأدبية نقول: إنه واحد من الأدباء المشهورين فى القرن الماضى، له وعليه. . وحسبه هذا.

بيد أننى لاحظت أن هناك إصرارا على جعل الرجل عميد الأدب العربى، وإمام الفكر الجديد، وأنه زعيم النهضة الأدبية الحديثة.

ولم أبذل جهدا مذكورا لأدرك السبب. إن السبب لا يعود إلى الوزن الفنى أو التقدير الشخصى. السبب يعود إلى دعم المبادئ التى حملها الرجل، وكلف بخدمتها طول عمره. إنه مات، بيد أن ما قاله يجب أن يبقى، وأن يدرس، وأن يكون معيار التقديم.

تدبر هذه العبارة للدكتور «العميد»:

«إن الدين الإسلامى يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومى، لا كدين إلهى نزل يبين الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح فى الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام فى صميم الحياة السياسية! أو يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة (!) فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين».

ويمكن الرجوع لمثل كتابه: «مستقبل الثقافة فى مصر» لتجد أشباها لهذه العبارات السامة.

ويشاء القدر أن تقع عينى على هذه العبارة: وقد قررت «إسرائيل» وقف الطيران فى «شركة العال» يوم السبت احتراما لتعاليم اليهودية!

إن الإسلام وحده هو الذى يجب إبعاده عن الحياة العامة، أما الأديان الأخرى فلتقم باسمها دول، ولترسم على هداها سياسات.

وظاهر أن الدكتور طه حسين كان ترجمانا أمينا لأهداف لم تعد خافية على أحد عندما طالب بإقصاء الإسلام وأخلاقه وأحكامه، وعدم قبوله أساسا تنطلق الأمة منه، وتحيا وفق شرائعه وشعائره.

قائل هذا الكلام يجب أن يكون عميد الأدب العربى فى حياته وبعد مماته، وأن تشتغل الصحافة والمسارح بحديث طويل عن عبقريته، ليكون علما فى رأسه نار، كما قال العرب قديما.

أما العقاد وإسلامياته الكثيرة، فيجب دفنه ودفنها معه. ومع أن الرجل حارب الشيوعية والنازية وسائر النظم المستبدة، وساند «الديمقراطية» مساندة مخلصة جبارة، فإن العالم «الحر» ينبغى أن يهيل على ذكراه التراب، ليكون عبرة لكل من يتحدث فى الإسلام، ولو بالقلم! فكيف إذا كان حديثا بالفكر والشعور، والدعوة والسلوك، والمخاصمة والكفاح؟! هذا هو الخصم الجدير بالفناء والازدراء.

والقوى التى تعمل دائبة على تخليد ذكرى الدكتور طه حسين، وتجديد فكره، وإعلاء شأنه معروفة لدينا، ونريد أن نكشف عنها، إذ لا معنى لبقائها فى جحورها تلدغ ثم تستخفى، وتنال منا باسم حرية العلم، وهى لا تعرف من الحرية إلا لونا وحيدا: كيف تضرب الإسلام وتطفئ جذوته وتميت صحوته؟

ذلك، إلى أن الريح تعصف اليوم ضدنا أكثر مما كانت تعصف يوم ألَّفَ الدكتور طه ضد ديننا وتراثنا. لقد أقامت اليهودية على أنقاضنا دولة تريد اجتياح حاضرنا ومستقبلنا، وهى تربى النساء والأطفال لتحقيق هذه الغاية، وتَعُدّ المدرسة ثكنة عسكرية، والثكنة معبدا دينيا، والتوراة دينا ودولة» (١).

علماء الأزهر وحملة نابليون:

وكما فضح الغزالى العلماء، دافع بقوة عن الشرفاء، ومنهم علماء الأزهر، الذين اتهمهم بعض الشيوعيين أنهم استسلموا لنابليون!

يقول الشيخ:

« لقد تابعت بعض العروض الروائية والسير التاريخية لرجالنا وأحوالنا الأولى،

---

(١) علل وأدوية: ص ٧٩ ـ ٨١.

فوجدت العجب من تزوير التاريخ والكذب على الأحياء والأموات. زعم بعضهم أن علماء الأزهر لاذوا بالتقية عند مجيء نابليون بونابرت ولم يؤدوا واجبهم الوطنى. وضربت كفا على كف لهذه الصفاقة الغريبة . . . !

إن جثث العلماء المسلمين بعثرت حول القلعة وهم يقاومون الفرنسيين، وضرب الأزهر بالمدافع، ودخله الجيش الفرنسى بخيله، وقتل أحدُ الأزهريين القائدَ «كليبر»، وانتقم الفرنسيون منه فقتلوه شر قتلة. فكيف يطوى ذلك كله، ويذكر أن النسوة المعلمات هن اللائى قاومن الفرنسيين؟

قبحك الله من مؤلف كذوب. . . ولكن التهجم على الإسلام هدف يشترك فيه الرعاع وبعض الرؤساء عمدا، لينالوا من الإسلام نفسه، ولتعيش الأمة بلا عقيدة، ولتجد الصهيونية الطريق أمامها مفتوحا إلى ما تريد.

وإلى القارئ هذا الشاهد الآخر من شواهد تزوير التاريخ والحملة على الإسلام وعلمائه:

كتب السيد صلاح چاهين شيئا من الشعر العامى عن مصر وتاريخها الطويل جاءت فيه هذه الكلمات:

زحف الفرنسيس وزحفت قبلهم جواسيس
غايصين لقاعها وعارفين باعها من باريس
وإيش يعمل القاع قصير الباع.. فى القمة؟
وإيش تعمل العمة فى البرنيطة يا أئمة؟
العمة ما اتكلمت(!!) وتن صوتها حبيس!
غير مرة لما البوليس قال: نوروا الفوانيس!
وده كفر طبعا. ولا يدخل لنا فى ذمة
اطمّن الغرب أن فى بلدنا ناس رمة
وانهش يا ديب فينا واقضى بمنتهى الهمة

على اسم مصر

وأنا أعتذر أولا عن تدوين هذه التعابير السوقية فى صحيفة محترمة، لا يجوز أن تنشر على

بغـام العـامـة ، ولكنى مـضطر لتفنيـد ما حـوت من إفك خـسيس على تاريخ الجـهـاد العلمى لأمتنا . .

يرى هذا الكاتب أن علماء الأزهر قابلوا الغزو الفرنسى لمصر بصوت محبوس ، وهمة مشلولة ، وأنهم ما تحركوا محتجين إلا عندما أنار الفرنسيون القاهرة ؛ لأن إبقاء المصابيح كفر ، وإشاعة الظلام بالليل هو ما يعمل له علماء الدين (الرم) . . !!!

ولست أستغرب من منكر لله أن يفترى على خلقه! ولكن الافتراء يوم يعلن على أنه علم ، وعهد الناس قريب بالحقيقة ، فإن الأمر يستدعى الكى لا التكذيب المعتاد . .

ولقد علم الغرب والشرق أن الحملة الفرنسية لما وطئت أرض مصر قاد الإسلام ـ وحده ـ حركة المقاومة ، وقاتل الفرنسيين شبراً شبراً فى هذا الوطن المحروب ، وأن علماء الدين كانوا قادة هذه المقاومة الباسلة ووقودها المتوهج .

ولما انتفضت القاهرة ضد الغزاة ، وكان الجامع الأزهر مصدر الثورة اقتحمت الخيل الفرنسية حرمه ، ويقول الجبرتى : « إنهم تفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، ودشتوا المصاحف والكتب على الأرض ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه ـ أى بالوا داخله ـ وشربوا الشراب ـ أى الخمر ـ وكسروا الأوانى وألقوها بجوانبه» .

ويحكى التاريخ العدل الصدوق أن الشيخ الشهيد سليمان الحلبى كان ـ قبل أن يقتل بأشنع الطرق ـ رابط الجأش ، وصرح فى التحقيق الذى أجرى معه أنه قتل الجنرال «كليبر» فى سبيل الله ، وكان ينظر إلى من حوله «بعين رفيعة» .

ولقد قبض الفرنسيون على الشيخ أحمد الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبدالله الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، وعروهم من ثيابهم ، وصعدوا بهم إلى القلعة ، فسجنوهم إلى الصباح ، ثم أنزلوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة ، ولم تعرف لهم قبور . هكذا يذكر الجبرتى فى تاريخه ، ويجىء رجل شيوعى وغد ليقول فى علماء الأزهر كلهم :

وأنا لو «نابليون» لكنت عدمتهم تقتيل
ما دمت أقدر أسيح دمهم فى النيل
واخلع ذقونهم وابين أنها تضليل
على اسم مصر

أهكذا يكون تزوير الوقائع ، وتشييع شهداء المقاومة الشريفة؟ ولم هذا كله؟

لنثبت بطريق الخداع والكذب أن الدين «أفيون الشعوب»، مع أن كل شيء يصرخ هنا بأنه محرر الشعوب ونافخ نارها ومعلى منارها؟

ونجيء أخيرا للقصة السمجة، قصة أن علماء الإسلام قاوموا تعليق المصابيح على البيوت؛ لأن الظلمة طاعة، والضوء معصية! كما يذكر رجال الأهرام الأغر.

إنه أضاف بهذه القصة منقبة لنابليون لم تعرف له. ألم يكتشف أنه جاء من فرنسا بجيشه كي ينير القاهرة؟!

واتهم الإسلام بمثلبة لم يوردها أشد أعدائه صغارا. ألم يقف علماؤه ضد إنارة الشوارع والحارات؟!

وقصة تكليف الأهالى بإنارة الطريق أمام بيوتهم أوردها الجبرتى، وذكر حولها بعض وقائع السلب والنهب التى تبعتها.

ورأينا أن هذا التصرف الفرنسى كان إجراء عسكريا ليحكم الغزاة وثاق القاهرة الجريح، وتشتد قبضتهم عليها، حتى لا يستخفى القناصة والفدائيون فى جنح الليل.

لكن سدنة القومية العربية الذين يقودون صحافتنا المعاصرة، يريدون تشويه كل شيء لتحقيق مآربهم، وفرض مبادئهم.

وباسم القومية العربية، يحارب البيان العربى الصريح، ويتم التمهيد للعامية الهابطة.

وباسم القومية العربية، ينقم العرب على أضوأ اسم فى تاريخهم، وأشرف إنسان مشى على الثرى فى الأولين والآخرين. . ينقمون على محمد بن عبدالله وينالون من رسالته!

إن هؤلاء الناس ـ بداهة ـ ليسوا مسلمين. فهل هم عرب كما يوصفون أو يتصفون؟

كلا. إن هؤلاء ـ سواء كانوا أجراء أو مخلصين ـ أفضل لإسرائيل من كل أسلحة الدنيا التى ترد إليها» (١).

---

(١) قذائف الحق: ص ٩١ ـ ٩٤.

دعاة فتانون

يضيق الشيخ فى ميدان الدعوة بمن سماهم (الدعاة الفتانين) يعنى: الذين يفتنون الناس عن دين الله. وقال النبى ﷺ لمعاذ حين طول بالناس، وهو يؤمهم فى الصلاة: «أفتان أنت يا معاذ؟» وكررها ثلاثا. فهؤلاء الدعاة المنفّرون أشد فتنة.

يعلم الشيخ أن أعداء الإسلام فى هذا العصر أقوياء. ومع استمتاعهم بمقادير كبيرة من العلم والدهاء، ومع أنهم أحرزوا ضد الإسلام انتصارات كبيرة فى أكثر من ميدان، مع هذا كله يقول الشيخ: فلست أخافهم على ديننا قدر ما أخاف على هذا الدين من متحدث جاهل، أو منافق عليم اللسان، أو سياسى يتخذ إلهه هواه.

المتحدثون الجهال بحقائق الإسلام وحقائق العصر:

أما المتحدثون الجهال، فإن قصورهم فتح علينا أبواب شرور كثيرة.

إن قصة «الغرانيق» لم يخترعها مبشر كذوب، وإنما روجها متحدث أحمق من جلدتنا يتكلم بلغتنا.

وفرية «عشق الرسول لزينب» بنت جحش لم يختلقها عدو كاشح، وإنما ألفها متعالم من عندنا، خفيف العقل والحكم.

وقد اضطرب السلوك الإسلامى فى بناء الأسرة، لأن حديثا موضوعا ينهى عن تعليم النساء الكتابة، وعن إسكانهن الغرف، شاع بين الناس..

وآفة بعض المتحدثين فى الإسلام، أنهم يستقبلون المرويات التافهة وأذهانهم خالية أو فقيرة من الوعى بتوجيهات القرآن الكريم، وهو دستور الإسلام الأول.

ولا يجوز لفقيه أن يتناول السنن الصحاح، وهو جاهل بالقرآن نفسه، فكيف بما هو دون الصحيح من تلك المرويات؟!

إن الصورة المكتملة والجميلة للإسلام تؤخذ من الكتاب والسنة، الكتاب أولا ثم السنة بعد ذلك.

والسنة أساسها ما تواتر ثم ما صح!! أما المرويات الضعيفة وما أكثرها فلها شأن آخر، يعرفه الراسخون فى العلم.

وقد وقع فى يدى كتاب يوزع فى بعض العواصم الإسلامية، ويتأثر به الكثيرون، وجدت على غلافه ثلاثة أسماء (لعلماء) لهم مناصب مهمة. وطالعت الكتاب فاستغربت ما حوى من صور رديئة للإسلام وتعاليمه فى قضية اجتماعية كبيرة الشأن.

هل صحيح أن البيت المسلم سجن، وأن الزوجة داخله متهمة إلى الأبد، وأن أنواع الحيطة تتخذ لمنعها من الإثم؟

كذلك يقول الكتاب. فقد جاء به تحت عنوان «نظام سليم لحياة المرأة يتجلى فى الحجاب» هذه العبارات:

« قال علىّ رضى الله عنه: ألا تستحون؟! ألا تغارون؟ يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها!! وكان الصحابة رضى الله عنهم يسدون النوافذ وثقوب الجدران؛ لئلا تطلع منها النساء على الرجال أو الرجال على النساء(!) وقد رأى معاذ بن جبل زوجته تطلع فى كوة فضربها، وأقره النبى ﷺ. وكان على رضى الله عنه يقول: اكفف أبصارهن بالحجاب(!) فإن شدة الحجاب عليهن خير من الارتياب.. فإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل! فالحجاب حصن حصين للمرأة يمنع عنها الشكوك والأوهام، ولزومها بيتها خير وأسلم عاقبة...».

نقول: هذا الكلام كله هراء، ولا تصح نسبته لا إلى رسول الله ولا إلى أصحابه. والمرويات التى يعتمد عليها هذا الكتاب ظاهرة المخالفة لما تواتر من خروج النساء إلى المسجد النبوى من الفجر إلى العشاء، يرين الرجال ويراهن الرجال، ولكن مع غض البصر كما أمر الله ورسوله. إن الإسلام لم يأمر بعدم النظر، وإنما أمر بغض البصر.

وقد تصورت المشرفين على هذا الكتاب فى مواقف تستحق الدراسة. لقد روى البخارى أن صحابية أحبت أن تكون مع المجاهدين فى البحر، تركب الأسطول، وتقاتل فى سبيل الله، وطلبت من الرسول أن يدعو الله لها بذلك، فأجابها وطمأنها وبشرها..

لو كان مؤلف الكتاب حاضرا لقال لها: مالك يا امرأة وهذا العمل؟ وما تكَلُّفك أمرا لا تحسنينه؟ امكثى فى بيتك ولا تكونى من العصاة!

وتصورت أن المؤلف مع بنت شعيب [1] وهي تقول لأبيها في شأن موسى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦]، أنه سيضربها على فمها ويقول لها: اخرسى ما أدراك أنه قوى؟ لعلك نظرت إليه وفكرت فيه يا. . . [2].

إن هذا النوع من الدعاة هو الذى يبرر الأوضاع الجائرة، ويسند الأنظمة المنحرفة بفتاواه التى يضعها فى غير موضعها، وهو الذى يشيع الثقافة الرديئة فى الأمة التى جعلت الماركسيين يقولون: إن الدين أفيون الشعوب!

إن الظلوم الطاغية يقبض على زمام الحكم بالقوة أو بالحيلة، فيقول هؤلاء فى تسويغ وجوده: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

أما أن المنصب أمانة ومسئولية، ويجب أن يتم بالاختيار الحر والبيعة والرضا، فلا يذكر فى هذا المقام.

ومن انتهب ثروة ضخمة أخذها سرا أو علانية، بمقتضى امتيازات منحت له أو لأسرته دون خلق الله جميعا، فلا يقول أحد له: من أين لك هذا؟ بل يقولون: ﴿ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وقد ينشدون هنا قول الشاعر:

ملك الملوك إذا وهب	لا تسألنّ عن السبب
الله يعطى من يشا	ء فقف على حد الأدب!

هؤلاء الدعاة يقولون للشعوب: إن السلطان ظل الله فى أرضه، إن عدل فله الأجر، وعليكم الشكر، وإن ظلم فعليه الوزر، وعليكم الصبر. وفى الحالتين عليكم أن تسمعوا له وتطيعوا، وإن فكرتم فى نصيحته ففى السر لا فى الجهر، فإن النصيحة على الملأ

---

(١) لا يوجد دليل على أن البنتين اللتين كانتا عند ماء مدين وسقى لهما موسى عليه السلام: هما ابنتا شعيب عليه السلام، إذ السياق القرآنى يدل على أن شعيبا كان قبل موسى. ولو كان هذا الشيخ الكبير شعيبا الرسول ما أبهمه القرآن، ولم يكن لائقا أن يدع الناس ابنتى نبيهم ورسولهم دون أن يقدم لهما أحد عونا. ربما كان الرجل اسمه شعيب، ولكنه ليس النبى.

(٢) علل وأدوية: ص ١٥٩ ـ ١٦١.

فضيحة. وإياكم أن تكتبوا كتابا أو تنشروا مقالا، أو تلقوا محاضرة، تنتقدون بها الأوضاع العوج، فإن هذه دعوة إلى فتنة، والفتنة أكبر من القتل، فاحذروا أن تخسروا فيها رقابكم!

وهم يقولون للسلطان: إن لك أن تستشير، وليس عليك أن تأخذ برأى المشيرين، وإن كانوا جمهور الأمة، أو أكثرية أهل الحل والعقد، فالشورى معلمة لا ملزمة. فالسلطان هو الراعى المسئول عن رعيته، وعليه أن يتصرف كما يشاء بمقتضى مسئوليته.

أما ما ورد عن أبى بكر: إن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى. أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم..

وما جاء عن عمر ـ فى قوله لمن قال له على الملأ: اتق الله يا عمر ـ: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.. وقوله: من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومنى..

فكل هذا ينسى إذا ذكرت حقوق الشعوب على حكامها. ويقول هؤلاء: احذروا من الديمقراطية ووسائلها، فإنها من المنكرات. وربما كانت من الكفر!

هذه هى الثقافة الدينية التى يروجها هؤلاء (الدعاة الفتانون) كما سماهم الشيخ، وهى ثقافة يقاومها ويندد بها، لأنها تعرض وجه الإسلام دميما أمام الإنسان المعاصر، وتصد عن سبيل الدعوة إلى الله

المنافق العليم اللسان:

وكما شن الشيخ غارته على المتنطعين المتزمتين من أهل العلم، الذين يحجّرون على الناس ما وسع الله، ويأخذون الناس بأشد الأقوال حرجا فى القضايا الاجتماعية التى تهم جماهير الناس، نجده كذلك يشدد الحملة على كل «منافق عليم اللسان» ممن يبيعون دينهم بعرض يسير من الدنيا. إنهم هؤلاء العلماء المنحلون الذين يرون الموبقات تقترف فيصادقون أصحابها، ويرون أحكام الإسلام ميتة فلا يحاولون إحياءها، ويرون أنصار الحق مستوحشين ضعافا، فلا يؤنسون وحشتهم، ولا يدعمون جانبهم.

وما ظنك بعالم دين يقف ليصفق مع المصفقين، ويهتف باسم واحد من أولئك الذين يحيون على أنقاض الإسلام ورفات المكافحين؟! إن هذا الصنف المنحل الملق لا يصلح لشىء، بل ما يصلح الدين إلا بزواله.

والدعوة الإسلامية منكوبة بالمتزمتين البله والمتملقين اللئام.

ولا تزيدنى الأيام إلا إحساسا بهذه الحقيقة : إن حاجة الإسلام إلى الذكاء لا تقل عن حاجته إلى الإخلاص ، أو بتعبير القدامى : لابد من الفقه الواسع إلى جوار النية الخالصة .

لو كان الأمر بيد المتزمتين لبقيت أسواق النخاسة فى أرجاء الدنيا تبيع الأحرار على أنهم رقيق ، ولو كان الأمر بيدهم ما فتحت مدرسة لتعليم البنات أبدا .

أما حزب المنافق العليم اللسان ، فهو وراء فساد المجتمع ، وجور الحكام ، وضياع الجماهير [1] .

(١) علل وأدوية : ص ١٦٦ .

مرتكزات الفكر الدعوى عند الغزالى

يستند الفكر الدعوى عند الغزالى إلى مرتكزات أساسية، يلمسها كل من سمعه، خطيبا أو محاضرا، أو قرأه كاتبا ومؤلفا.

أول هذه المرتكزات وأعظمها: القرآن الكريم.

فالقرآن هو مصدر الشيخ الأول، الذى يغترف منه صباحه ومساءه، فلا يشبع ولا يفتر. وهو جنته الدانية القطوف، التى يتفيأ أبدا ظلالها، ويقتطف من ثمارها. وهو الصاحب الدائم الذى يعايشه تاليا متدبرا، وشارحا مفسرا.

ومن سمع الشيخ أو قرأ كتبه ومقالاته، منذ فجر شبابه، علم علم اليقين: مدى حفاوته بالقرآن، وتذوقه لأسرار بيانه، وتفهمه لأغوار معانيه، وحسن استشهاده به، ووجد له نظرات ووقفات مع الآيات والسور، تدل على أنه ابن القرآن حقا.

وسنعود لبيان هذا فى فصل خاص به.

والسنة النبوية المشرفة هى المصدر الثانى للشيخ، وهى مرتكزه بعد القرآن، يقتبس من مشكاة النبوة، وينهل من معين الرسالة. بها يوضح معانى القرآن، ويعمق مدلولاتها، ويفصل ما أجمله، ويعطى الأمثلة والصور التطبيقية التى حفلت بها السنة لشرح القرآن وبيانه نظرا وعملا، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

ولا نجد خطبة أو محاضرة أو درسا للشيخ، أو مقالا أو بحثا إلا رأيته يحسن سياق الأحاديث الصحاح والحسان محتجا بها، أو الضعاف مستأنسا بها. وهذه كتبه أمامنا حافلة بهذه الأحاديث.

وسنرجع لتفصيل موقف الشيخ من السنة فى فصل مستقل.

ومرتكزه الثالث: التاريخ الإنسانى العام، والإسلامى الخاص، وقمته السيرة النبوية، فهى بداية تاريخ الإسلام، ونقطة انطلاقه.

والشيخ قارئ جيد للتاريخ، مدرك لوقائعه الحاسمة، وأحداثه الكبرى، ومراحله

المتلاحقة وبخاصة التاريخ الإسلامى، وأسرار انتصار أمته وتفوق حضارته، ثم تراجع هذه الحضارة، وتخلف الأمة وتمزقها، وغلبة أعدائها عليها، وأسباب ذلك.

والداعية الموفق هو الذى يحسن توظيف التاريخ ووقائعه ومواقف أبطاله فى خدمة دعوته، وتبليغ رسالته. والأمة الموفقة هى التى تستفيد من التاريخ؛ فهو ذاكرتها التى يختزن فيها ماضيها. وكثيرا ما استشهد الشيخ بشعر أمير الشعراء أحمد شوقى:

مثل القوم نسوا تاريخهم ... كلقيط عيّ فى الحى انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة ... يشتكى من صلة الماضى انقضابا

ومرتكزه الرابع: الثقافة العامة: الثقافة الدينية، والثقافة الإنسانية. فقد تخرج الشيخ فى كلية أصول الدين، وهى كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة: التفسير والحديث والعقيدة والملل والنحل والمنطق والفلسفة والتصوف وعلم النفس والتاريخ وأصول الفقه. وكان الشيخ أزهريا متمكنا متفوقا، وأكد ذلك بدراسته فى تخصص الدعوة والإرشاد، ثم أضاف إلى ذلك قراءته الخاصة، طوال حياته فى مختلف حقول المعارف.

وإلى جوار هذه الثقافة الدينية والإنسانية الأصيلة نجد ثقافة أدبية ولغوية عميقة، أساسها دراسة الشيخ الأزهرية، ثم قراءاته الحرة المستمرة.

ومرتكزه الخامس. الواقع، وفقهه، عن طريق المعايشة والاطلاع، سواء كان واقع المسلمين أو واقع القوى المعادية لهم، الواقع المحلى (المصرى) والواقع الإقليمى (العربى)، والواقع الإسلامى (واقع البلاد الإسلامية) والواقع الدولى (خارج عالم الإسلام).

هذا الواقع كتاب مفتوح لدى الشيخ، يقرأ سطوره وما بين سطوره، ويتدبر أحداثه ويتعلم منها ويعلم، ويوظفها فى نصرة دعوته وتحقيق مقاصدها.

لا يهتم فى الواقع بالجانب المادى أو الحسى فيه، مغفلا الجوانب الأخرى، بل اهتمامه - مع ذلك - مركوز على ما وراء المادى والحسى، من الأفكار والأخلاق والعقائد والتقاليد، فهى التى تصنع الإنسان والمجتمعات، وتميز بعضها عن بعض.

موقف الغزالى من السلف والسلفية:

وهنا قد يسأل سائلون: ما موقف الغزالى من السلف والفكرة السلفية، وبخاصة أنه قد

اشتبك مع بعض دعاة السلف فى كثير مما كتبه فى السنين الأخيرة، ووقف فى الصف المقابل لهم فى أغلب ما يثيرونه، ويجعلونه من ركائز دعوتهم؟

والواقع أن الشيخ الغزالى ـ مثل شيخه حسن البنا ـ رجل سلفى، فالسلفية من خصائص الدعوة أو المدرسة التى آمن بها، وانتمى إليها، ووظف جهده فى نصرتها. وقد قال حسن البنا فى وصف هذه المدرسة: إنها دعوة سلفية.. وطريقة سنية.. وحقيقة صوفية.. وجماعة ثقافية.. وهيئة سياسية.. إلخ وهذا ما يؤمن به مفكرنا الغزالى.

ولقد كتب الشيخ فى وقت مبكر ـ أوائل الخمسينيات ـ كتابه: (عقيدة المسلم)، فرجح فيه مذهب السلف، وقاوم الشرك كله أكبره وأصغره، وجليه وخفيه، وانتصر للتوحيد الحق، وإن كان فى الكتاب نَفَس أشعرى، وخصوصا فى التقسيم والتبويب، وهذا لا يخلو منه أزهرى، فالأزهر ـ مثل الزيتونة والقرويين وديوبند (أزهر الهند) وغيرها من الجامعات الدينية فى العالم الإسلامى ـ كلها أشعرية أو ماتريدية. وقد قلت فى أحد المؤتمرات يوما لمن سألنى عن الأشاعرة: إن الأمة الإسلامية، منذ قرون ـ فى جملتها ـ أشعرية!

فما يضير الشيخ أن يتأثر بالأشعرى أو الماتريدى، أو حتى بالمعتزلة، أو بالفلاسفة! المهم ألا يعبّد نفسه لطائفة منهم، تحكم فكره، وتسلبه حريته. فالمرجع الأعلى عنده القرآن والسنة.

وقد استفاد إمام السلفيين ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم من تراث المعتزلة، واقتبسا منه ما كان حقا فى قضايا أفعال العباد، والحسن والقبح، والحكمة والتعليل، وذكر ابن القيم أن منهجه أن يأخذ الحق حيث وجده مع أى طائفة، ويدع الباطل من أى طائفة، وأن يجمع الحق كله بعضه إلى بعض، ويكون من مجموعه مقولته.

على أن الغزالى نقد منهج علم الكلام الأشعرى الذى يدرس فى الأزهر نقدا شديدا؛ لأنه خاض فى مسائل ميتافيزيقية لا طاقة للعقل البشرى بها، ولا طائل من وراء بحثها، مما يتصل بالذات والصفات، وهل هى عين الذات أو غيرها؟ أو لا عين ولا غير؟

وهو يفضل أن يتم تعليم العقائد على دعامتين:

الأولى: القرآن الكريم، الذى يخاطب الفطرة السليمة، والعقل الرشيد، ويلفت النظر إلى الكون والإنسان والتاريخ، لتكون مسرحا للتفكر، ويبتعد عن الإلغاز والتعقيد. وهو يتفق هنا مع الإمام ابن الوزير فى ترجيح «أساليب القرآن على أساليب اليونان».

والثانية: العلم الحديث، وما كشف من آيات الله فى كونه، ومن بدائع صنع الله فى خلقه: فى عالم الأفلاك، وفى عالم الجمادات، وفى عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان. وفى العوالم كلها من الذرة إلى المجرة.

وبذلك يلتقى كلام الله فى كتابه، مع فعل الله فى كونه، وكلاهما يدل عليه، ويهدى العقول والقلوب إليه.

الغزالى يؤمن بالسلفية التى كان عليها الصحابة والتابعون، فَهْمًا متكاملا للإسلام، وإيمانا حيا وصادقا بمَنَزِّله وبمبلِّغه، وعملا بما جاء به من أحكام، والتزاما بما هدى إليه من أخلاق، ودعوة إليه على بصيرة، وبالحكمة والموعظة الحسنة، وجهادا فى سبيله بالنفس والمال واللسان.

يقول الشيخ حفظه الله:

«إن السلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعا من جزيرة العرب، وتحيا على نحو اجتماعى معين.

إننا نرفض هذا الفهم ونأبى الانتماء إليه.

إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون، وتعمق ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى عرق أو لون.

وفهمها للإسلام وعملها له يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه على العقل.

* وقد رأيت أناسا يفهمون السلفية على أنها فقه أحمد بن حنبل رضى الله عنه، وهذا خطأ؛ ففقه أحمد أحد الخطوط الفكرية فى الثقافة الإسلامية التى تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا.

* ورأيت ناسا يفهمون السلفية على أنها مدرسة النص، وهذا خطأ؛ فإن مدرسة الرأى كمدرسة الأثر فى أخذها من الإسلام واعتمادها عليه.

وقد كان من هؤلاء من تسموا أخيرا بأهل الحديث، وسيطرت عليهم أفكار قاصرة فى فهم الأخبار المروية، وأحدثوا فى الحرم فتنة منكورة.

والحديث النبوى ليس حكرا على طائفة بعينها من المسلمين، بل إنه مصدر رئيسى للفقه المذهبى كله.

* ورأيت ناسا تغلب عليهم البداوة أو البدائية، يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة، ولا يحسنون الانتفاع بها فى دعم الرسالة الإسلامية وحماية تعاليمها. يرفضون الحديث فى التلفزيون مثلا، لأن ظهور الصورة على الشاشة حرام! ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزء والإنكار!! وهؤلاء فى الحقيقة لا سلف ولا خلف، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد!

* ورأيت ناسا يتبعون الأعنت الأعنت، والأغلظ الأغلظ، من كل رأى قيل، فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم، وينغص معايشهم، ويؤخر مسيرة المؤمنين فى الدنيا، ويأوى بهم إلى كهوفها المظلمة!

وهؤلاء أيضا لا سلف ولا خلف، إنهم أناس فى انتسابهم إلى علوم الدين نظر، وأغلبهم معتل الضمير والتفكير.

* ورأيت ناسا يتبعون إلغاء الرقيق بعيون كئيبة! قلت لهم: ألا تعرفون أن هؤلاء العبيد هم أحرار أولاد أحرار، اختطفتهم عصابات النخاسة من أقطارهم، وباعتهم كفرانا وعدوانا ليكونوا لكم خدما، وهم فى الحقيقة سادة؟

ما السلفية التى تقر هذا البلاء؟ وما هؤلاء العلماء الذين ضاقوا بسياسة الملك فيصل فى تحريرهم، وإلغاء بيعهم وشرائهم؟ إن الرجل الشهيد أولى بالله منهم.

* ورأيت ناسا يقولون: إن آية ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ [البقرة: ١٩٠] مرحلية، فإذا أمكنتنا اليد، لم نُبق على أحد من الكافرين!

قلت: ما هذه سلفية، هذا فكر قطاع طرق لا أصحاب دعوة شريفة حصيفة، وأولئك لا يؤمَنون على تدريس الإسلام لجماعة من التلامذة، بَلْه أن يقدموا فى المحافل الدولية والمجامع الدولية.

إن العالم الإسلامى الآن متخلف حضاريا، ومضطرب أخلاقيا واجتماعيا وسياسيا، وبينه وبين الأمم القائدة الصاعدة أمد بعيد.

هذه الأمم تعلم ظاهرا من الحياة الدنيا، وتفتقر إلى جيل من البشر يذكرها بالله ولقائه.

والإسلام وحده هو المالك لهذه الحقائق الهادية، ولكى تؤدى أمته رسالتها يجب عليها أمران:

الأول: أن تطوى مسافة التخلف الحضارى، والاضطراب الإنسانى الذى يشينها ولا يزينها.

والثانى: أن تتقدم بشرف وكياسة لتقول للناس كلهم: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء: ١٧٤].

ولكى ننجح فى عملنا يجب أن نقتفى آثار سلفنا.

والسلفية هنا عنوان كبير لحقيقة كبيرة، أساسها العقل الحر المكتشف الدءوب.

إن هذا العقل عندما رغب عن «البحث فى الذات العليا وحقيقة الصفات» كان يحترم نفسه عندما توقف.. والعلم المعاصر نجح أيما نجاح عندما بحث فى المادة التى بين يديه، ولم يبحث فى ربها - سبحانه - فأنى له البحث فيما لا يملك ولا يقدر؟

من أجل ذلك نرفض النظريات الكلامية، ونقبل المذاهب الفقهية، ونضع الشبكة القانونية التى يتطلبها انتقال الحياة من طور إلى طور.

من أجل ذلك نهشّ للتقدم العلمى ونطوعه لنصرة مبادئنا ومثلنا.

ومن أجل ذلك نرى ضرورة إزاحة البُلْه وذوى العقد النفسية من قيادة الفكر الدينى، فإنهم غشاوات على البصائر، وحجب على الضمائر.

إننا محتاجون إلى فقهاء يستطيعون النظر فى سياسة المال والحكم، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتذاب الشعوب الفقيرة فى هذه الميادين الخطيرة، ومحتاجون إلى فقهاء يهيمنون على شئون التربية والإعلام برحابة الإسلام وبشاشته لا بالتزمت والتكلف.

إن الفقه الإسلامى كما قدمه سلفنا حضارة معجزة، أما الفقه الإسلامى كما يقدمه البعض الآن فهو يميت ولا يحيى»[1]. ا. هـ.

---

(١) انظر: دستور الوحدة الثقافية: ص ١٢٠ - ١٢٤، ط دار الأنصار بالقاهرة.

خصائص الداعية ومؤهلاته عند الغزالي

ليس كل إنسان يصلح لأن يكون داعية، فقد يكون المرء عالما كبيرا، ولا يكون داعية كذلك. فالداعية له مؤهلات أو خصائص قد لا تتوافر لغيره من العلماء الباحثين (الأكاديميين). والدعاة متفاوتون فى حظهم من هذه الخصائص، وللشيخ الغزالى من هذه الخصائص القدح المعلى.

١ ـ العقل العلمى المبصر:

وأول هذه الأدوات المطلوبة: العقل الواعى البصير، الذى يستطيع أن يدعو بالحكمة، ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩]، فقد قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهذا العقل هو الذى يمكن صاحبه من الدعوة على بصيرة كما أمر الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[يوسف: ١٠٨].

هذا العقل هو الذى يستطيع أن يوظف ما يقرؤه فى خدمة الدعوة التى يؤمن بها، سواء كانت قراءة فى الدين، أم قراءة فى الأدب، أم قراءة فى العلم.

وهذا العقل هو الذى يستطيع أن يوظف التاريخ، ويوظف الواقع، ويوظف الثقافة كلها، فى سبيل الدعوة والرسالة.

وقد أوتى الشيخ هذا العقل البصير الناقد، الذى يرفض التقليد الأعمى، سواء كان تقليدا للشرق القديم أم للغرب الجديد، ولا يلقّى زمامه لأحد ليقوده كما يشاء دون أن يدرى إلى أى وجه هو ذاهب، بل هو عقل حر متفتح، يقبل ما يقبل من الأفكار، ويدع ما يدع منها، وفق ما يلوح له من الأدلة والبراهين، وما يرجع إليه من القيم والموازين، ولا تهوله الأسماء ولا الألقاب، بل هو بحاثة عن الحق حيثما كان، ومع أى كان.

وربما كان هذا العقل الناقد الثائر هو الذى جلب على الشيخ كثيرا من المتاعب فى رفضه لآراء وأقوال يقدسها بعض الناس، ويضفون عليها ما يشبه العصمة، وفى نقده الحاد لبعض الأفكار التى يراها ضارة بدعوة الإسلام، سواء من داخل الساحة الإسلامية أم من خارجها.

ومن العبث الذى لا يقبل شرعا ولا عقلا ولا عرفا: أن يطالب الشيخ بأن يتنازل عن عقله لعقل غيره، وأن يدع ما يقتنع به من أجل اقتناع فلان وعلان، وأن يترك اجتهاده ليعمل باجتهاد الآخرين، فهذا ما لا يسيغه العقل، ولا يجيزه الدين.

قيمة العقل فى الدين:

فى بواكير ما كتب الشيخ: فى «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» نقرأ من هذه الفقرة تحت عنوان «قيمة العقل فى الدين»:

«إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأى عناصر لابد منها فى تكوين الإيمان الصحيح. فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح، والفهم الناضج، يصبح اليقين غير ذى موضوع!!

ولا يحسب أحد أننا بذلك نظلم البلهاء، أو نغمط الحمقى حقهم - إن صحت لهم حقوق - بل إننا نستوحى هذا الحكم من نصوص القرآن الكريم نفسه. فالعقول الذكية وحدها هى التى تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله فى شتى الأمكنة والأزمنة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

والعقول الذكية وحدها هى التى تميز الحق من الباطل، وتعرف حقائق الوحى من نزغات الهوى وتلفيق الضلال: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩].

والعقول الذكية وحدها هى التى تستفيد من عبر الماضى، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل، وقصص الأبطال أو الأنذال، من المصلحين أو من المفسدين: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

ولا تكون الحكمة فى معالجة الأمور، والدقة فى الحكم على الأشخاص، والمسائل، والبصر بالمقدمات والنتائج، إلا لأصحاب العقول الواسعة والمواهب الرائعة: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وتربية العقول، وإذكاء المواهب، وتفتيق الملكات الإنسانية، ليست أمرا هينا. فمراحل

التعليم فى المدرسة، ومراحل التجريب فى الحياة، واستيراد الأفكار البعيدة، وضم ما لا نعرف إلى ما نعرف، والنظر فى الجديد نظرة تلطف وإيلاف، لا نظرة جمود واعتساف، والتطويف فى آفاق العوامل المادية والأدبية ـ هذه جميعا وسائل لترقية العقل الإنسانى، ثم هى بعد وسائل العقل السليم لمعرفة الله، وحسن الإيمان به والإفادة من دينه» [1].

عقل يرد على الشبهات:

هذا العقل البصير هو الذى استطاع به الغزالى أن يفند الشبهات، ويدفع المفتريات، التى يثيرها أعداء الإسلام، على اختلاف مللهم ونحلهم، وخصوم الفكر الإسلامى على اختلاف توجهاتهم.

بهذا العقل رد الشيخ على الذين أثاروا شبها على العقيدة الإسلامية من الشيوعيين والمنصّرين، والذين أثاروا شبها على الشريعة الإسلامية من العلمانيين والمتغربين، والذين أثاروا شبها على الحضارة الإسلامية من المستشرقين والكتاب الغربيين.

أكتب هذه السطور وبين يدى كتاب قديم للشيخ ظهر منذ أكثر من ربع قرن، هو كتاب: «قذائف الحق» فى طبعته الرابعة، التى قدم لها الأخ عبدالله العقيل.

وفى هذا الكتاب ناقش الشيخ بعقله البصير طوائف شتى، وكرّ على شبهاتهم شبهة شبهة بحجج الإسلام وبراهين القرآن.

الرد على أباطيل العهد القديم:

ناقش الشيخ اليهود وما ذكروه عن الخالق جل شأنه فى أسفار (العهد القديم)، وكيف وصفوا الله سبحانه بالعجز بعد أن خلق الكون فى ست أيام، فتعب، واستراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، ولهذا يحرم اليهود العمل والكدح فى هذا اليوم. حتى جاء فى التوراة: أن موسى عليه السلام أمر بأن يقتل رجمًا أحد الحطابين الذين أبوا إلا الكدح فى هذا اليوم!

والقرآن الكريم يقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية: ص ١٠٥، ١٠٦.

ثم تبع هذا الحديث عن عجز الله تعالى حديث آخر عن جهله! فقد كان الرب الإله يتمشى فى الجنة عند هبوب ريح النهار، فسمع آدم وزوجه صوت الرب، فاختبأ منه. فنادى الرب آدم: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك، فخشيت لأنى عريان، فاختبأت! فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة. . . ؟

أين هذا مما ذكره القرآن: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[ق: ١٦].

وتبع هذا الجهل حزن وقلق غريب. فإن الرب الإله، يبدو وكأن ملكه أصبح مهددا بهذا التمرد الآدمى. فقد ارتكب آدم الجريمة الأولى وأكل من شجرة المعرفة، وارتفع بهذه المعصية إلى مصاف الآلهة، فقد غدا يدرك الخير والشر. وكان الرب عندما خلقه حريصا على بقائه جاهلا بها.

ومن يدرى، فقد يزداد عصيانه وتمرده، ويأكل من شجرة الخلد، ويظفر بالخلود. «فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض، وتأسف فى قلبه».

هذا ما يقوله سفر التكوين من التوراة الحالية، والذى يؤمن بها اليهود والنصارى جميعا. يقول الشيخ: «إن الإله فى هذه السياقات الصبيانية كائن قاصر، متقلب، ضعيف. وما أشك فى أن مؤلف هذه السطور كان سجين تصورات وثنية عن حقيقة الألوهية وما ينبغى لها. وأول ما نستبعده حين نقرأ هذه العبارات أن تكون وحيا أو شبه وحى» (١).

وما قالته التوراة عن (الله) جل جلاله، قالت أسوأ منه وأدهى عن أنبياء الله ورسله! فنسبت إليهم من الزنى والسكر والفجور واستباحة الدماء ما يخجل المرء أن يصف به إلا السفلة المجرمين من الناس.

وقد ساق الشيخ أمثلة لذلك واستنكرها: نوح السكير وأسرته، لوط الزانى، إبراهيم الديوث، يعقوب المحتال!

إن مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) ليس الذى قرره (ميكافيللى) كما يقال، بل التوراة (٢).

---

(١) قذائف الحق: ص ٢١ ـ ٢٥.
(٢) نفسه: ص ٢٦ ـ ٣١.

الرد على تثليث النصارى:

وبهذا العقل المبصر ناقش الشيخ النصارى فى عقيدة (التثليث)، وبين منافاتها لعقيدة التوحيد، كما بين استحالة كون الثلاثة واحدا، كاستحالة كون الواحد ثلاثة!

وبهذا العقل أوضح تهافت الأساس العقلى والدينى لعقيدة الصلب والفداء. يقول الشيخ:

«إن المسيحيين يقولون: إن الله (الابن) صُلب! لكنهم يقولون كذلك: إن الأب هو الابن، وهما - والروح المقدس - جميعا شىء واحَد!

إن كان الأمر كذلك فالقاتل هو المقتول! وذاك سر ما قاله أحد الفرنجة المفكرين: (خلاصة المسيحية: أن الله قتل الله لإرضاء الله!!)» [1].

الرد على الإلحاد الشيوعى:

وبهذا العقل رد الشيخ على أباطيل الملاحدة الشيوعيين، الذين ينكرون وجود الخالق سبحانه.

دار هذا الحوار بين الشيخ وواحد منهم ننقل منه هذه السطور:

«قال الملحد: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟

قلت له: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لابد لكل شىء من خالق!!

قال الملحد: لا تُلقنى فى متاهات، أجب عن سؤالى.

قلت له: لا لفّ ولا دوران. إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أى أن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلا وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذى خلق العالم ليس لوجوده أول؟

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدّق نفسك حين تقررها وتكذب غيرك حين يقررها؟ وإذا كنت ترى أن إلها ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذى تسير عليه..!!

---

(١) نفسه: ص ٤٣.

قال: إننا نعيش فى هذا العالم ونحس وجوده فلا نستطيع أن ننكره!

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟

إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا فى طريق رهيب، فتساؤلنا ليس فى وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير؟!

ومن ثم فإننى أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك. فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين..

قال: تعنى أن الافتراض العقلى واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قلت: إننى أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب. أما الافتراض العقلى فليس سواء بين المؤمنين والكافرين..

إننى ـ أنا وأنت ـ ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندسا أقامه، وترى أنت أن خشبه وحديده وحجره وطلاءه قد انتظمت فى مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها..

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أننى وجدت قمرا صناعيا يدور فى الفضاء، فقلت أنت: انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه. وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر..» (1).

وحدة الوجود خرافة:

وبهذا العقل أيضا رد الشيخ على غلاة المتصوفة الذين قالوا بـ «وحدة الوجود»، وأذابوا الحدود بين الخالق والمخلوق بين الرب الأعلى وهذا الكون، الذى خلقه فسواه.

يقول، الشيخ تحت عنوان «وحدة الوجود خرافة»:

«إن الشعور بالوجود الإلهى يجب أن يكون حيا غامرا لدى أولى الألباب...

(1) قذائف الحق: ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

لكن الكون شيء غير صاحبه، والعالم شيء غير الله، ومعرفتنا بالله فيما أوجد لا تعني أن الموجد هو الموجود.

ومن السخف أن يرتكس الفكر الإنساني في هذه الحمأة.

إن الآلة شيء غير من اخترعها، والقصر شيء غير من بناه...

وقد خلقنا الله وكلفنا، ورتب على تكاليفه مثوبات وعقوبات، وأنزل بذلك كتبا وبعث رسلا..

فكيف نجرؤ على وصفه بالهزل والتزوير في ذلك كله؟

ولقد أحصى العلماء العناصر التي يتكون منها العالم، وقرروا ما لكل عنصر من خصائص لا تزيد ولا تنقص، فكيف توصف هذه العناصر بعد ذلك بأوصاف الألوهية؟

إن القول بوحدة الوجود هو - عند التأمل - نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها...

فالماء مثلا مادة معروفة، وقد شرح الكيميائيون أسلوب وجودها من عنصريها الأساسيين.

وهي من قبل ومن بعد لن تكون إلا الماء.

فالزعم بأنها إله أو جزء إله تخرص علمي سيسقط من تلقاء نفسه، وتبقى بعد ذلك العناصر وحدها دون أي وصف إلهي.

ومن ثم قلنا: إن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله، وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط، وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه!» (1).

ويحذر الشيخ من بعض «التعبيرات الموهمة» في هذا المقام الخطير، فيقول في كتاب آخر:

«ولابد هنا من توكيد التفرقة بين وجود الله ووجود العالم، فإن بعض الناس يستغلون المعاني التي شرحناها للبس الحق بالباطل.

---

(1) ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ص ١٥٨، ١٥٩.

إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات، وهذا العالم منفصل عن ذاته جل شأنه انفصالا تاما.

وقد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول:

إنه يرى الله فى كل شىء.

وهذا التعبير صحيح إن كان يعنى أنه يرى آثاره وشواهده.

أما إن كان يعنى وحدة الخالق والمخلوق، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبة، فالتعبير باطل من ألفه إلى يائه، والقول بهذا كفر بالله وبالمرسلين» (١).

مناقشة المستشرقين:

وبهذا العقل ناقش الشيخ كبار المستشرقين، ورد على مطاعنهم حول الإسلام: قرآنه الكريم، ورسوله العظيم، وعقيدته الحنيفية، وشريعته السمحة، وحضارته المثلى. وقد تجلى ذلك فى كتابات شتى، ولا سيما فى كتابه: «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»، الذى رد به على المستشرق الشهير «جولدزيهر» فى كتابه: «العقيدة والشريعة فى الإسلام» المترجم إلى العربية.

مناقشة القوميين:

وبهذا العقل أيضا رد على غلاة القوميين العرب، الذين أرادوها قومية علمانيةمبتوتة الصلة بالإسلام، تتغنى بأمجاد الإسلام، ولكنها ترفضه مرجعية عليا لها، ولا تقبل شريعته حكما فى قضاياها، وهذا مبثوث فى كثير مما كتب، ولكنه مركز فى كتابه: «حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى». وهو فى الأصل محاضرات ألقاها على طلبة كلية الشريعة بالأزهر بتكليف من عميدها الشيخ محمد المدنى ـ رحمه الله ـ وقد كانت المادة مقررة فى عهد عبدالناصر، والحديث فيها شائك وخطر، ولكن الشيخ عرض فكرته بما يثبت للعروبة فضلها ومكانتها، ولكنه لا يغنيها بحال عن الإسلام، الذى صنعها، ورفع ذكرها وخلدها وجعل لها رسالة فى العالمين.

---

(١) قذائف الحق: ص ١٨٦.

الرد على مزاعم الروحية الحديثة:

وبهذا العقل البصير رد كذلك على «مزاعم الروحية الحديثة» التى تقوم عليها جمعيات شتى فى بلاد الغرب، مشبوهة النسب والصلات، تروج لدين جديد، له تعاليم جديدة، هى - كما يقول الشيخ - مجموعة خرافات، نبتت من الأرض ولم تنزل من السماء. وهى تقوم على وحدة الوجود، فالله والعالم شىء واحد! وعلى تناسخ الأرواح، وخلود الحياة المأنوسة لنا الآن. فلا فناء للدنيا، وليس هناك يوم للبعث والحساب العام. وعلى أن الشرائع القديمة قد استنفدت أغراضها، وأن الروحية الحديثة هى التى ستهدى العالمين بوحيها العصرى المتقدم!

إننا لا نشك فى أن مبادئ هذه الروحية الحديثة هى من عبث مردة الجن، الذين استغفلوا نفرا من أبناء آدم، واصطادوهم إلى هذه المجالس: مجالس الأشباح والأوهام، أو مجالس تحضير الأرواح كما يقال، ليملوا عليهم هذا المنكر من القول [1].

٢ - النفس الشاعرة:

لم يقل الشيخ الغزالى الشعر كلاما موزونا مقفى [2]، ولكنه يحمل روح الشاعر، ونفس الفنان، الذى يتفاعل مع كل ما حوله، ويرى فى كل نبتة فى الأرض، أو نجيمة فى السماء، روحا توحد الله، ولسانا يسبح بحمد الله.

وكم له من كلمات صورتها صورة النثر، وروحها روح الشعر.

ومن رأيه: إنه لا يستطيع أن يخدم الإسلام بحق إلا ذو نفس شاعرة.

وقد سمعته يقول ذلك عندما زار الشيخ الندوى مصر سنة ١٩٥١م، وأهدى إلى الغزالى بعض رسائله، ومنها: من العالم إلى جزيرة العرب، ومن جزيرة العرب إلى العالم.

وفيها يصور الشيخ الندوى - وهو العالم الداعية الأديب - العالَم يوجه رسالة إلى جزيرة العرب، وهى رسالة عتاب منه على تَخلفها عن دعوتها له، ومناشدة لها أن تقوم

---

(١) انظر: فصل «مزاعم الروحية الحديثة» من كتاب: ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ص ٣٤٣ - ٣٦١

(٢) هكذا قلت فى الطبعات الأولى من الكتاب، ثم عرفت أن الشيخ قد كتب الشعر فى ريعان شبابه، ونشر له ديوان تحت عنوان «الحياة الأولى» وقد أعادت نشره دار الشروق. ولكن العجيب أن الشيخ لم يحدثنا عن شعره هذا مرة واحدة!

فى الزمن الأخير بما قامت به فى الزمن الأول، من حمل رسالة الهداية التى حملها ربعى ابن عامر والصحابة إلى الفرس.

ورسالة أخرى من جزيرة العرب إلى العالم تحمل هذه الروح.

من قرأ للشيخ الغزالى أيقن أنه أديب عظيم متميز، له مذاقه الخاص، وأسلوبه الأصيل، لا يقلد أحدا، ولا ينتمى إلى مدرسة أدبية معينة، وهو لا يحب أن ينتمى فى الفكر أو فى العلم أو فى الأدب إلا إلى مدرسة محمد بن عبدالله ﷺ.

وكم قلت فى مناسبات مختلفة: إن الغزالى موهبة أدبية من طراز نادر، ولو قدر له أن يتفرغ للأدب، لكان من أعظم الأدباء البارزين فى العالم العربى، ولسبق اسمه كثيرا من الأسماء المعروفة.

ثم قرأت بعد ذلك ما يؤكد هذا المعنى للكاتب الصحفى الكبير الأستاذ أحمد بهجت، فى عموده اليومى بصحيفة الأهرام القاهرية.

وإن كان الغزالى لم يقل الشعر، فإنه يتذوقه أعمق التذوق ويطرب له، ويتخذ منه أداة للبيان، وسلاحا فى معركة الدعوة ويستشهد به فى محاضراته إذا حاضر، وفى خطبه إذا خطب، وفى مقالاته إذا كتب. وقلما استمعت إلى الغزالى خطيبا أو محاضرا أو محدثا إلا رصع كلماته ببعض أبيات من الشعر، تقع موقعها من العقل والقلب.

ومما ساعده على ذلك محصوله الكبير، الذى يحفظه من شعر العرب، قديمه وحديثه، جاهليه وإسلاميه. وهو ينتقى من روائعه ما يستشهد به، فيحسن الاستشهاد. وله احتفاء خاص بشعر أبى الطيب فى الأقدمين، وشعر شوقى فى المحدثين. وأحسبه يكاد يحفظ «ديوان الحماسة» كله لأبى تمام، حتى شعر الغزل العف نراه يتغنى به وينشده لنفسه ولغيره، وكثيرا ما ذكر فى هذا المقام غزل النابغة:

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها ... لم تؤذ أهلا، ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيبا أن يكون بها ... فى جيد واضحة الخدين معطار

على حين يرفض الغزل الداعر، كغزل امرئ القيس، أو عمر بن أبى ربيعة!

وأكثر ما يحتفل له من الشعرنوعان:

الشعر الإنساني:

النوع الأول: الشعر الإنساني، الذى يدور حول كرامة الإنسان وحريته وحقوقه، ويحفزه إلى اقتحام المخاطر، وخوض الغمرات، ومقاومة الاستبداد والطغيان، الشعر الذى يدعو إلى الإيثار، ويقاوم الأثرة والأنانية، مثل شعر حاتم الطائى الذى كثيرا ما يتمثل به معجبا:

إذا كنت ربا للقلوص[1] فلا تدع	رفيقك يمشى خلفها غير راكب
أنِخْها وأردفه فإن حملتكما	فذاك وإن كان العقاب [2] فعاقب

وقول عروة بن الورد:

دعينى أطوّفْ فى البلاد لعلنى	أفيد غنى فيه لذى الحق محمل
أليس عظيما أن تلم ملمة	وليس علينا فى الحقوق معول؟

ومن أوائل ما سمعته من الشعر الذى يرويه قول حوط بن رئاب الأسدى:

دببتَ للمجد والساعون قد بلغوا	جَهْدَ النفوس، وألقَوْا دونه الأزُرا
فكابروا المجد حتى مل أكثرهم	وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله	لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وفى معتقل الطور سمعته يتمثل بشعر أحمد شوقى فى قصيدته عن «توت عنخ آمون» وفيها يخاطب الفرعون:

زمان الفرد يا فرعون ولى	ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض	على حكم الرعية نازلينا

وكان ذلك دأبه طوال مدة الاعتقال: تأكيد معانى الحرية والكرامة والاستبسال فى كفاح الفراعنة والمتجبرين، برغم مالا يخفى من وجود آذان وعيون تنقل إلى السلطات كل ما يقال أو يفعل داخل الأسوار.

---

(١) القلوص: الناقة.　　(٢) العقاب: التعاقب والتناوب فى الركوب.

الشعر الربانى:

النوع الثانى: الشعر الربانى، الذى يتحدث عن الله تعالى وكتابه ورسوله، ويعمق اليقين بلقاء الله تعالى وحسابه، وهو لهذا يطرب لشعر البوصيرى فى (البردة)، وإن أنكر عليه شروده عن الصواب فى بعض الأبيات، وكذلك (همزيته) الرائعة، وإن لم ترج رواج البردة عند جمهور الناس. وكثيرا ما ردد مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء؟ يا سماء ما طاولتها سماء
إنما مثّلوا صفاتك للنا س كما مثّل النجوم الماء

كما يطرب لشعر شوقى فى مدائحه النبوية، نهج البردة، والهمزية وغيرهما، ويتأثر غاية التأثر إذا سمع قصيدته «إلى عرفات الله» تغنيها أم كلثوم، وتدركه حالة من الوجد، يبكى معها طويلا، حتى إن أولاده ليشعرون بذلك، فيدعونه فى استغراقه الوجدانى، لا يقطعون عليه بكلام ولا سلام، ويزداد خشوعا وتأثرا حينما يناجى الشاعر ربه منيبا إليه، راجيا خائفا:

ويارب هل تغنى عن العبد حجة وفى العمر ما فيه من الهفوات؟

ويأسى لحال المسلمين، وما انتهوا إليه، برغم ما بين أيديهم من قرآن وسنة، وينشد مع شوقى:

شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق سبات!
بأيمانهم نوران: ذكر وسنة فما بالهم فى حالك الظلمات؟!

وهو يختار من شعر المحدثين والمعاصرين المجيدين ما يؤكد القيم والمعانى التى يدعو إليها. فتجد عنده من شعر حافظ وأحمد محرم ومحمود غنيم، ومصطفى حمام، وعمر الأميرى وغيرهم، حتى إنه أحيانا ينقل قصائد كاملة مطولة فى بعض كتبه مثل قصيدة: «وقفة على طلل» لمحمود غنيم، وقصيدة: «علمتنى الحياة» لمصطفى حمام، وقصيدتى عن «السعادة». وفى ختام مقدمة كتابه: «قذائف الحق» استشهد بأبيات شاعر التحليقات الإيمانية، والنجاوى المحمدية، الأستاذ الأميرى، وقد ذكرناها فى خاتمة كتابنا.

كما يستشهد بشعر ابن الرومى فى وصف المتهجدين، وسنذكرها فى هذا الفصل.

٣ـ الروحانية الدافقة:

ومن الخصائص أو المؤهلات البارزة عند الغزالى: روحانيته الغامرة الدافقة.

وهذه الروحانية ضرورية لكل من يحدث الناس عن الله جل جلاله. ويدعوهم إلى وصل حبالهم به، وربطهم بهدى كتابه الكريم، وهدى رسوله العظيم ﷺ .

وهذه الروحانية الدافقة الصادقة لها مصدر فذ أوحد، هو حسن معرفة الله تعالى، وصدق الإيمان به، واليقين بلقائه وحسابه وجزائه، واستحضار القيامة كأنها رأى عين.

هذه الروحانية ليست مجرد دعوى تدعى، ولا محض كلام يقال، أو شعار يرفع، أو مظاهر تخدع، وليس وراءها تقوى حقيقية. فالتقوى إنما هى خشية تعمر القلب، وليست عبارات يتشدق بها اللسان. والرسول ﷺ يشير إلى صدره ويقول. «التقوى ها هنا»، ويكررها ثلاثا. والقرآن يضيف التقوى إلى محلها الأصيل، إذ يقول: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

المدار إذن على صدق المعرفة والإيمان بالله تباركت أسماؤه. يقول الغزالى:

«درجات المؤمنين فى معرفة الله متفاوتة إلى حد بعيد.

لا تقبل هذه المعرفة ـ ابتداء ـ إلا إذا كانت صحيحة، مطابقة للواقع. فإذا شاب هذه المعرفة جهل فاضح ـ كالشرك أو التجسيد ـ ردت فى وجه صاحبها ولم تغن عنه شيئا. . .

والمعرفة الصحيحة مراتب، فالذى يعرف ربه معرفة واضحة غير الذى يعرفه معرفة غائمة.

ووضوح الرؤية للغاية المنشودة شىء آخر غير الاندفاع بإحساس غامض، ونظر مختلط.

والمعرفة العميقة غير المعرفة السطحية، الأولى تبقى على اختلاف الظروف، والأخرى قد تهتز مع الاختبارات العارضة.

والمعرفة الآلفة المستمرة غير المعرفة العابرة المارة. فقد تعرف إنسانًا معرفة جيدة، وتنشغل عنه بأمور كثيرة أو قليلة، وقد تعرف آخر معرفة صحبة واستقرار. .

والذى يعرف ربه كلما شعر بحاجة إليه، فإذا انتهت حاجته شغلته نفسه، غير الذى أنشأ علاقة مع ربه يتعهدها بالتحبب والتردد على ساحته، فهو مُوالٍ له، معتز بصلته.

والمعرفة الموقنة الناشطة التى تجعل المؤمن يسارع فى الخيرات، وينهض بالتكاليف، غير المعرفة الكسول الوانية التى يصحبها التفريط فى الواجب أو استثقال أدائه.

والمعرفة العاصمة من الدنايا الكابحة للجماح، غير المعرفة المنهزمة أمام النزوات . . .

والمعرفة المورثة للتوكل على الله فى مواطن القلق والفزع . . . غير المعرفة التى تجعل المرء ضارعا للخلق ذليلا أمام أصحاب الحول والطول . .

إن الإيمان يزيد وينقص، وآثاره فى النفس والحياة تمتد وتنكمش

والزيادة والنقصان ليسا فى أصل المفهوم العقلى وإنما فى كمه وكيفه. فالصوت من الفم العادى يتضاعف ألف مرة عندما يمر بمذياع ضخم البوق، بعيد الصدى.

والإيمان فى بعض الناس قد يتحول إلى حياة تصبغ الشعور والفكر، وتهيمن على الحركات والسكنات، وتجعل صاحبها فى نهار دائم من الأنس بالله وإلف عظمته . . .

ومن ثم لا يتفاضل المسلمون فى أصل عقيدة التوحيد، وإنما يتفاضلون فيما يبلغه التوحيد فى نفوسهم من أبعاد وآماد.

ومن الجور أن نسوى بين العميق والضحل، والمتين والضعيف . . .

وأقدار المؤمنين عند الله وحظوظهم من مثوبته تتبع درجات إيمانهم على ما شرحنا . . .

واكتمال الإيمان يوصل إليه بعد جهاد طويل، ورياضة متصلة . . .

ومن الخير أن نعترف بمدخل العناية العليا فى هذا المضمار، فإن الفالحين يغرسون جميعا، لكن حصيلة الثمر فى كف القدر.

وما من جهد يذهب هدرا، حاش لله، فهو القائل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والمشكلة ليست فى أن الله جل جلاله يثيب من قصده . . . فهو مثيب مجيب، وإنما الذى يجب أن يعرف بحسم أن العبد فى هذا الميدان محتاج إلى سعة الفضل لا إلى ضمان العدل، وأن ما يأخذه إن كان أجرا على عمل فلن يعدو المرء مكانه، أما إن كان تطولا من ذى الجلال والإكرام: ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

ولذلك لا يسبق إلا فقير متجرد من الدعوى، متعرض للمنحة، متطلع إلى عطاء المنعم الواسع تبارك اسمه» [1].

الغزالى بين العقل والقلب:

يشيد الغزالى بالعقل، وينوه بالفكر والمنطق، ويحمل على البلداء والمغفلين، الذين يحملون الدين وزر بلادتهم وغباوتهم، ويسخر ممن يزعم أن أكثر أهل الجنة «البله»، فى حين يجعل القرآن أهل الجنة هم «أولى الألباب»!

ويغذى هذا الاتجاه بالحجج والأمثلة، من نصوص الدين، ومن تاريخ الأمة فى عصور ازدهارها، حتى يكاد قارئه يحسبه رجلا «عقلانيا» محضا. وقد رأينا «العقل البصير» أول مؤهلاته.

الغزالى القديم والغزالى المعاصر:

والواقع أن الغزالى المعاصر، كسميّه الغزالى القديم، حجة الإسلام. فقد أشاد هذا بالعقل، وأقام عليه الوحى والدين، وجعله مناط التكليف، ولكنه هو هو الغزالى صاحب «الإحياء» و«ميزان العمل» و«منهاج العابدين» وغيرها من كتب التصوف والسلوك.

وغزالينا لا يجحد دور «القلب»، ومكانة «الروح» فى الدين، بل الدين الحق عنده: عقل رشيد، وقلب سليم.

وهذا المعنى الربانى مبثوث فى كل كتبه، ففيها تجد فكر الفيلسوف، وقلب العاشق، والعبادة عنده تقوم على الحب، أكثر مما تقوم على الخوف.

الجانب العاطفى فى الإسلام:

وفى كتابه: «الجانب العاطفى فى الإسلام» إبراز لهذا الجانب المهم، الذى صد عنه بعض الناس، نظرا لما شابه من بعض الشركيات فى العقيدة، والبدع فى العبادة، والسلبية فى التربية، والإهمال لسنن الله فى الكون والحياة.

وهذا الكتاب مصنف فى التصوف، مكتوب بلغة سلفية معاصرة، وقد شرح فيه معانى

---

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ص ١٤٩ ـ ١٥١.

الإسلام والإيمان والإحسان فى ضوء القرآن والسنة، بعيدا عن جدل المتكلمين وشطحات المتصوفين، كما بين عناصر الكمال النفسي (الروحى) التى يريدها الإسلام من المسلم.

وفى هذا الباب ألقى الضوء على كلمات من «حكَم» ابن عطاء الله السكندرى الشهيرة، كساها بها معانى حية، وألبسها لبوس العصرَ دون أن يتقيد بكلام الشراح، الذين قد يختلط فى شروحهم الحق بالباطل.

شرح عصرى لبعض حكم ابن عطاء:

وأذكر لك فقرتين مما شرحه الشيخ من (الحِكَم):

يقول ابن عطاء الله:

«أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا عنها. ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه! فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!».

ويشرحها الغزالى فيقول:

لا يبحث عن الشفاء إلا من أحس المرض. أما من أصيب بعلة فلم يشعر بها ولم يستشف منها، فإن جراثيمها تستشرى فى أوصاله حتى تأتى عليه.

وكذلك النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء، والشعور بالنقص أول مراحل الكمال.

وقد قال الله تعالى على لسان أحد أنبيائه المطهرين: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣] (١).

فإذا وجدت امرأ راضيا عن نفسه فافقد منه الأمل؛ لأنه ينطوى على ركام من العيوب والنقائص وهو لا يلتمس الخلاص منها، بل إنه فاقد الشعور بوضاعتها.

وهيهات لمثل هذا اكتمال أو نجاة.

---

(١) والصحيح ـ كما يدل عليه السياق ـ أنها على لسان امرأة العزيز، لا على لسان يوسف، وإن كان ما ذكره الشيخ هو الأشهر عند المفسرين وغيرهم.

والعلم النظرى لا يرفع قدر أصحابه، فأى قيمة لشخص يختزن فى رأسه قدرا من المعلومات ولكن نفسه طافحة بآثام لم تعالج، وخشونة لم تهذب، ثم هو - مع ما يختزن من معرفة - لا يدرى أنه عليل.

مثل هؤلاء يكون علمهم آفة يقوى جهالاتهم ولا يزيلها، ويغرهم بما أوتوا بدلا من أن يزيل من أنفسهم ما يسوءها.

وأفضل من هؤلاء رجل قليل المعرفة وعميق الإخلاص، كثير التفتيش عن عيوبه، مجتهد فى تزكية نفسه، وترقية أحواله، إن هذا أرجى عاقبة وأرقى عاجلة من العلماء الكبار إذا رضوا عن أنفسهم، وغفلوا عن إصلاحها. . .

ويقول صاحب الحكم:

«لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى، يسير والمكان الذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]. وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١). فافهم قوله عليه الصلاة والسلام، وتأمل فى هذا الأمر إن كنت ذا فهم».

ويشرحها شيخنا بقوله:

قال الله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٥١].

هذه آيات خمس، الثلاثة الأولى منها وصفت الأكوان، علوها وسفلها وما انبث فيها من حياة وأحياء، والاثنتان الأخريان انتقلتا من الأكوان إلى المكون فتحدثتا عن وجوده ثم توحيده.

ولفت الناس هنا إلى الله، جاء بصيغة عجيبة: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ... ﴾. وهذا الفرار إنما يكون مما يحذر ويخاف.

(١) رواه البخارى.

والحق أن الانحصار فى الكون والاحتباس بين مظاهره فواحش عقلية ونفسية، لا يرضاها لنفسه أريب.

إن من له أدنى مسكة يعرف ـ من العالمين ـ رب العالمين، ويعرف ـ من الأكوان ـ صاحب هذه الأكوان!!

إن هذا الملكوت الضخم الفخم من بدائع ذراته إلى روائع مجراته، شاهد غير مكذوب على أن له خالقا أكبر وأجل...

وإنها لجهالة أن يغمط هذا الإله العظيم حقه، وإنها لنذالة أن يوجد بشر ينكره ويَسفَه عليه.

ولكن: ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٤].

والعاقل ينظر فى الكون فيتعلم منه تسبيح الله وتحميده، ويستنتج من قوانين الحياة وأحوال الأحياء ما يستحقه المولى الأعلى من أسماء حسنى، وصفات عظمى...

والناس صنفان: صنف يعرف المادة وحدها ويجهل ما وراءها، ولا نتحدث الآن مع هؤلاء...

وصنف مؤمن بالله مصدق بلقائه، ولكنه هائم فى بيداء الحياة، ذاهل وراء مطالب العيش، مستغرق المشاعر بين شتى المظاهر، فهو لا يكاد يتصل بسر الوجود، أو يتمحض لرب العالمين.

ومع هذا الصنف المؤمن نقف لنرسل الحديث...

هناك قوم لا تخلص لله معاملاتهم، بل هى مشوبة بحظوظ النفس ورغبات العاجلة، وهؤلاء لن يتجاوزوا أماكنهم ما بقيت نياتهم مدخولة، حتى إذا شرعت أفئدتهم تصفو بدءوا المسير إلى الأمام.

وهناك قوم يعاملون الله وهم مشغولون بأجره عن وجهه، أو بمطالبهم منه عن الذى ينبغى له منهم، وهؤلاء ينتقلون عن أنفسهم من طريق ليعودوا إليها عن طريق أخرى!

إنهم مقيدون بسلاسل مثبتة مع أنانيتهم، فهم يسيرون ولكن حولها، لو حسنت معرفتهم لله ما حجبتهم عنه رغبات مادية ولا معنوية، بل لطغى عليهم الشعور به، وبما

يجب له، وتخطوا كل شيء دونه، فلم يهدءوا إلا فى ساحته، ولم يطمئنوا إلا لما يرضيه هو جل شأنه، على حد قول أبى فراس:

فليتك تحلو والحياة مريرة　　وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر　　وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين　　وكل الذى فوق التراب تراب [1]

وابن عطاء الله يرى أن العامة يترددون بين مآربهم، كحركة بندول الساعة، لا تتجاوز موضعها على طول السعى، أو هم ـ على حد تعبيره ـ كحمار الرحى: ينتقل من كون إلى كون، والمكان الذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل منه.

والواجب على المؤمن أن يقصد وجه الله قصدا، وأن يتفصى تفصيا عن ألوف الأربطة التى تشده إلى الدنيا، وتخلد به إلى الأرض!!»ا. هـ.

رجل صادق الربانية:

إن الغزالى لا يعد من المتصوفة، ولكنى أشهد أن الرجل أقرب إلى الله من كثير من الذين يزعمون لأنفسهم أنهم أصحاب الأحوال والمقامات! إنها تقوى القلوب، وليست دعوى الألسنة، ولا بريق المظاهر، ولا حمل الألقاب.

إنه يتحدث عن الله تعالى حديث المحب الواله لا حديث الناسك المحترف. ويتكلم عن الله الواحد، كأنه يراه بين يديه بجلاله وجماله وكماله!

ومن قريب رأيته ـ وقد غلبته الدموع ـ يتحدث عن كلمة التوحيد: عن (لا إله إلا الله) ويقول: إنى أحب هذه الكلمة وأود لو أقبّلها، أبثها حبى وشوقى وولهى! وحديثه عن أحباب الله وأصفيائه حديث عامر فياض.

كثيرا ما سمعته يردد أبيات ابن الرومى ـ بتأثر ووجد ـ فى وصف قُوَّام الليل، وقد سجلها فى بعض كتبه:

---

(١) هذا البيت ليس لأبى فراس، وإنما هو للمتنبى فى مدح كافور، ولفظه فى ديوانه:
إذا صح منك الود فالمال هين　　وكل الذى فوق التراب تراب!

تتجافى جنوبهم عن وطىء المضاجع
كلهم بين خائف مستجير وطامع
تركوا لذة الكَرَىٰ للعيون الهواجع
ورعَوْا أنجم الدُّجى طالعًا بعد طالع
لو تراهم إذا هُمُ خطروا بالأصابع
وإذا هم تأوّهوا عند مَرّ القوارع
وإذا باشروا الثرى بالخدود الضوارع
واستهلت عيونُهم فائضات المدامع
ودعَوْا: يا مليكنا يا جميل الصنائع
اعف عنا ذنوبنا للوجوه الخواشع
اعف عنا ذنوبنا للعيون الدوامع
أنت - إن لم يكن لنا شافعٌ - خيرُ شافع
فأُجيبوا إجابة لم تقع فى المسامع
ليس ما تصنعونه أوليائى بضائع
تاجرونى بطاعتى تربحوا فى البضائع
وابذلوا لى نفوسكم إنها فى ودائعى (١)

ولا ريب أنك إذا اقتربت من الغزالى وعايشته، وجدت ملء إهابه رجلا عميق الربانية، دافق الروحانية، عامر القلب بخشية الله تعالى، غزير الدموع إذا تذكر الآخرة، دائم التلاوة لكتاب الله عز وجل، عميق الحب لله سبحانه، عميق الحب لرسوله ﷺ، كما يتبين ذلك من كتبه عامة، ومن كتابه: «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» خاصة.

وما أكثر الوقفات التى تجدها فى كتبه منثورة هنا وهناك، تدل على تلك النفس الشفافة كأنها البلور، والروح الصافية صفاء ماء المزن.

اقرأ هذه الفقرة من كتاب له:

قلت يوما لرجل تعود السكر: ألا تتوب إلى الله؟ فنظر إلىّ بانكسار، ودمعت عيناه، وقال: ادع الله لى!!

---

(١) من شعر ابن الرومى - ديوان ابن الرومى ٤/ ١٤٨٢، ١٤٨٣، طبعة دار الكتب المصرية.

تأملت فى حال الرجل، ورق له قلبى: إن بكاءه شعور بمدى تفريطه فى جنب الله، وحزنه على مخالفته، ورغبته فى الاصطلاح معه.

إنه مؤمن يقينا، ولكنه مبتلى! وهو ينشد العافية ويستعين بى على تقريبها.

قلت لنفسى: قد تكون حالى مثل حال هذا الرجل أو أسوأ. صحيح أننى لم أذق الخمر قط، فإن البيئة التى عشت فيها لا تعرفها، لكنى ربما تعاطيت من خمر الغفلة ما جعلنى أذهل عن ربى كثيرا، وأنسى حقوقه.

إنه يبكى لتقصيره، وأنا وأمثالى لا نبكى على تقصيرنا، قد نكون بأنفسنا مخدوعين!

وأقبلت على الرجل الذى يطلب منى الدعاء ليترك الخمر، قلت له: تعال ندع لأنفسنا معا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

الاعتراف بالفضل لإخوانه:

ومن فضائل الغزالى ودلائل إخلاصه: اعترافه بالفضل لإخوانه، والإشادة بمواهبهم ومواقفهم وفضائلهم.

فتراه يثنى على الشيخ سيد سابق ـ حفظه الله ـ ويبرز مكانته فى الفقه، ويحيل عليه، وعلى كتابه: «فقه السنة».

ويقول عن الشيخ عبدالمعز عبدالستار ـ حفظه الله ـ: إنه داعية وخطيب من الطراز الأول.

ويقول عن زكريا الزوكة ـ رحمه الله ـ: إن له قلما جديرا أن يجعل له مكانا بين كتاب الدعوة.

ويقول عن أخيه وزميله الشيخ إسماعيل حمدى: إنه رافعى زمانه.

وكثيرا ما نوه بشخصى الضعيف فى المؤتمرات والندوات، وأنا أحد تلاميذه، ويقول: اسألوا يوسف، فهو أولى منى!

وفى الصيف الماضى كنا فى ألمانيا، وكنا نتحدث فى إحدى القضايا العلمية، وأحال علىَّ الإجابة فيها، فلما فرغت فاجأنى بل أخجلنى بقوله أمام الملأ كبار الأساتذة: لقد كان يوسف تلميذى فيما مضى، وأما اليوم فأنا تلميذه!

وهذه منزلة لا يرقى إليها إلا الصادقون، وأحسبه منهم، والله حسيبه ولا أزكيه على الله عز وجل.

إن كبير القدر لا يصغره تنويهه بقدر غيره، بل يزيده عظمة، ويرفعه مكانا عليا. أما الصغار فلا يعرفون قدر الكبار، ولو عرفوه لخشوا أن يتحدثوا عنه، فيشعر الناس بصغرهم.

وليس يعرف لى فضلى ولا أدبى ... إلا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

إضافة الجانب الربانى إلى علم التوحيد:

وهو يرى أن الثقافة الدينية لا تتم إلا باستكمال هذا الجانب الإيمانى فى نفس المسلم، من الخشية والرجاء والصبر والشكر والحب، ونحوها، من جملة الأخلاق، التى يكون الإيمان بدونها صفرا.

وهو لهذا يرى أن تدخل فى علم العقيدة، ولا تترك للمؤلفين فى التصوف على أنها مراحل للطريق، أو للمتحدثين فى الوعظ على أنها من مرققات القلوب، ومكانها الأول ـ فى رأيه ـ فى علم التوحيد، إذ لا دين مع فقدانها.

يتحدث عن حب الله تعالى فيقول: جمهور المسلمين يحسب هذا الحب صفة كمال، أو درجة عليا لبعض العابدين، وهذا غلط شنيع، فإن فقدان هذا الحب فسوق، ويغلب أن ينتهي إلى الكفر البواح [1]. ويستدل بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

هذا هو الغزالى: عقل كبير، وقلب كبير، وهو بعقله وقلبه مع الله وفى الله ولله. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

---

(١) من كتاب: سر تأخر العرب والمسلمين

الفصل السادس

الغزالى .. رجـل القرآن

الغزالى ... رجل القرآن

الشيخ الغزالى رجل قرآنى، فهو مع القرآن أبدا، يديم القراءة له، والتأمل فيه والتدبر لآياته.

حفظ الشيخ القرآن حفظا جيدا منذ صباه، فقلما تند منه آية أو كلمة، أو تلتبس عليه آية أخرى. وهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، ويقرأ ما تيسر منه فى صلواته ـ إماما أو مأموما أو منفردا ـ من حيث وقف وِرْده. ولم أره احتاج إلى المصحف الشريف للقراءة أو للمراجعة، إنما مصحفه صدره.

وهو دائم التدبر لكتاب الله، إيمانا منه بأن ثمرة التلاوة التدبر والتذكر، كما قال الله تعالى فى وصف القرآن: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وهو لا يتعامل مع القرآن بعقله وحده، بل بعقله وقلبه معا. وحين كنا نستمع إليه فى صلاة التراويح، ونحن فى معتقل الطور، كنا نحس أن للرجل حالا مع القرآن: يستبشر بوعده، ويرتعش من وعيده، ويتجاوب مع قصصه، ويحيا فى عبره وأيام الله فيه. فتلاوته ليست تلاوة محترف ولا غافل، بل تلاوة عقل يقظ، وقلب مشرق، ووجدان حى.

وهذه المعايشة الدائمة للقرآن جعلت معانيه ومعارفه بين يديه، وكأنها جنة دانية القطوف، يقطف من ثمارها ما شاء الله.

ومن قرأ كتب الشيخ ـ منذ المراحل الأولى ـ وجده يحسن الاستشهاد بآيات القرآن، ويستنبط منها معانى جديدة، يتخذ منها حجة فى معركته ضد الظلم والجهل، والفساد والاستبداد، ساعده على ذلك حسه الأدبى الفياض، وتعبيره البيانى النابض بالحياة.

قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت:

انظر إلى تعليق الشيخ على قصة الذين ذكرهم الله فى سورة البقرة بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ... ﴾ [البقرة: ٢٤٣ ـ ٢٤٥].

يقول الشيخ تحت عنوان: (هذه الأمم تموت حتمًا):

الأمة التى تقبل الخنوع وتعطى الدنية من نفسها، لن تحرم من مكان تعيش فيه، فإن سادة العالم لن يرفضوا الاستكثار من الخدم والأتباع. ولا ضير على الواحد منهم، إن سخر مستعمرة واسعة الرقعة، ليعيش ما فيها من حيوان، وما فيها من إنسان، سواسية فى العمل له والفناء فيه. بيد أن الشعوب الخادمة لغيرها، ليست إلا شعوبا ماتت فيها المواهب الإنسانية العليا، وارتكست فيها الملكات الذكية اليقظة، فهى توصف بالحياة، كما يصف السادة بالحياة كلاب الصيد التى تلهث بين أيديهم، أو أبقار الحرث التى تعمل فى حقولهم! أما هم من الناحية الإنسانية المحضة فأموات.

وكل أمة تنكل عن حمل أعباء الحياة الحرة الأبية، وتنكص عن الإقدام فى ساحات الجهاد والتضحية، وتخشى عواقب المخاطرة والجرأة ـ فلابد أن تصدر عليها محكمة التاريخ حكمها بالإعدام.

وهكذا بدأ القرآن يقص أنباء هذه الأمة التى فرّت من تكاليف الحياة فأدركها الموت!:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ﴾.

فحقت عليهم كلمة العذاب، وماتوا فى الديار التى عجزوا عن الدفاع عنها، كما تموت الآن شعوب كثيرة فى المستعمرات، وفى الأمم المستقلة اسمًا، والمرتبطة مع قاهريها بمعاهدات!

فلما أراد الله أن يعلم هذه الأمة كيف تحيا، أشعرها أن دون نيل الحياة الكريمة، بذل النفس والنفيس، ودفع الضرائب المفروضة على الدم والمال فقال لهم: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ... ﴾. ثم قال لهم: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾.

وهيهات أن تستطيع الأمم الخوارة، دفع ذلك الثمن الغالى! وكيف تدفعه من نفوس هى بها - فى الحق - شحيحة! ومن أموال هى بها - فى الخير - ضنينة؟

وبدأ القرآن يفصل حوادث هذه القصة الرائعة. فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

لِمَ تموت الأمم؟

ومن هذه الآية، تعرف مجموعة من أحوال الشعوب المستضعفة: فهى تعرف المجد والحرية والاستقلال، ولكن هتافًا يزحم الجو، وأكفًا يعييها التصفيق. فإذا جد الجد وكشف الأمر عن ساق، وتلفت الوطن يطلب الحماة الذين يغسلون عنه العار، لم يجد أحدا من هذه الجموع الحاشدة.. وقد كان زعيم هذه الأمة خبيراً بشئونها، فلما تجمهروا حوله، وغلبتهم فورة الحماسة فصاحوا: نريد القتال! قال لهم: فى تثبت المرتاب، ولهجة الحائر: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾؟ فازدادت هتافاتهم حدة: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾.

فلما حانت الساعة الفاصلة، ودق النفير العام، لم تر ساحة الجهاد إلا علَما ينشره النسيم ويطويه، على حفنة من الرجال! هم بقايا الجماهير التى طلبت بالأمس الجهاد، ثم صفرت منهم اليوم ميادينه: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾.

سماهم القرآن ظالمين مع أنهم مظلومون، فكيف جازت هذه التسمية؟ إن الظلم نوعان: ظلم الإنسان لنفسه، وظلمه لغيره. وكثيرا ما يكون النوع الأول، عاملا ممهدا لوقوع النوع الثانى، فالذى يقبل الذل والانحناء، يغرى الآخرين بالبغى والاعتداء!

وقلما يقع العدوان على ذى أنفة وحمية، فإن الباغى يعرف أن خسائره من وراء ذلك العدوان، أضعاف أرباحه إن كان هناك ربح يحتنى فى مثل هذه المعركة. وقلما تتحرك الجيوش للهجوم، إلا على أمة يرجى منها أن تسلّم وتلين، ولذلك كثرت حروب الاستعمار فى الشرق وحده، وصدق القائل:

أنصــفت مظلومًــا فأنـصف ظالما　　في ذلـة المظـلوم عـــذر الظـالم!
من يرض عـدوانا عليـه يضيـره　　شــر من العـادى عليـه الغـاشم!

وسواء كـان شرا منه أو دونه، فـهو ظالم لنفسـه. وسيـاق الآية هنا يؤكد هـذا المعنى، ويحمّل الأمم النائمة ـ على المظالم ـ أوزار ما تقاسى وتعانى.

الدراسات القرآنية للشيخ

وللشيخ فى الدراسات القرآنية المحضة جملة كتب.

منها: «نظرات فى القرآن»، وهو كتاب قديم يتحدث عن بعض علوم القرآن بأسلوب جديد.

ومنها: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم»، وهو من كتبه الأخيرة، التى بين فيها المحاور الأساسية التى تدور حولها سور القرآن وآياته، وهى: الله الواحد.. والكون الدال على خالقه.. والقصص القرآنى.. والبعث والجزاء.. والتربية والتشريع.

ومنها: «التفسير الموضوعى للقرآن»، وفيه يتحدث عن كل سورة من السور باعتبارها وحدة تدور حول موضوع معين. وهو يحاول أن يرسم «صورة شمسية» لها، وأن يربط أوائل السورة بأواخرها، ويصل بين أطرافها وأوساطها، وأن يتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها. وللشيخ فى هذا المقام نظرات جديرة بالتأمل وفى مقدمة تفسيره ذكر أنه تأسى فى ذلك بالعلامة الشيخ محمد عبدالله دراز، عندما تناول سورة البقرة ـ وهى أطول سور القرآن ـ فجعل منها باقة ملونة نضيدة (١). وهو أول تفسير موضوعى لسورة كاملة فيما أعتقد.

وقد صدر من هذه الدراسة جزءان، كل جزء يشمل ثلث القرآن، وهو يعمل الآن على الثلث الأخير، ونسأل الله أن يوفقه لإتمامه (٢).

وقد ذكر الشيخ أنه استفاد فى نظراته فى التفسير من الإمام حسن البنا، رحمه الله. ففى مجلة (الدعوة) غرة ربيع الأول عام ١٤١٥هـ يقول: «حسن البنا أستاذى الأول فى ميادين

(١) وذلك فى كتابه القيم: النبأ العظيم. وللإمام الشاطبى فى «الموافقات» حديث قريب الشبه عن سورة «المؤمنون».
(٢) عرفت من الشيخ أخيرا أنه فرغ منه وسلمه للمطبعة، والحمد لله.

كثيرة، وكنت ـ وأنا طالب ـ أستمع إلى محاضراته فى القرآن الكريم، وأتأمل معه فى النظرات التى كان يرسلها، وكنت أعود إلى بيتى فألخص ما استطعت فهمه من هذه المحاضرات، حتى تجمّع لدى كتاب فى هذا الصدد، لكنه للأسف ضاع منى، لكن معانيه بقيت فى ذاكرتى، واستفدت من الإمام الشهيد، فى طريقة التفسير التى تعتمد على المعاناة الخاصة، والذوق الشخصى، وذلك لطول تدبره فى كتاب الله، وشدة ارتباطه به، فقدكانت قدرته خارقة على فتح القلوب لأسرار الوحى. . . ».

كما ذكر فى كتابه: «الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا» أنه لمح فى نظرات الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا فى «تفسير المنار» مبادئ النظرة إلى موضوع السورة، وأن لها هدفا ومحورا تدور حوله آياتها.

فى التفسير الموضوعى:

عنى الشيخ الغزالى فى تفسيره الأخير بالنظر فى كل سورة باعتبارها وحدة متكاملة، يمهد أولها لآخرها، ويتمم آخرها أولها. وهو توجه جديد فى التفسير، سماه (التفسير الموضوعى) باعتبار موضوعية السورة المفسرة.

ولكن للشيخ عناية قديمة جديدة بالتفسير الموضوعى بالمعنى الآخر، الذى يتبادر إلى الذهن، وهو النظر فى الموضوع الواحد، من خلال الآيات المتعلقة به فى القرآن، وبيان نظرة الكتاب العزيز إليها على غرار ما فعلناه فى كتابنا: «الصبر فى القرآن».

وللشيخ فى هذا النوع من التفسير جهد مشكور أيضا، ظهر قديما فى كتابه: «نظرات فى القرآن»، وظهر حديثا فى كتابه: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم».

وظهر فى بعض كتبه قبسات منه، تدل على عمق صلة الشيخ بالكتاب المجيد، وعلى شمول نظرته لما تضمنه من معان وموضوعات شتى.

أولو الألباب فى كتاب الله:

ولا بأس بأن أذكر هنا نموذجا لهذا اللون من التفسير عند الشيخ حول «أولى الألباب فى القرآن». يقول:

أشعر بغضاضة وغضب عندما يفهم الدين على أنه ركون إلى غيبيات غامضة، أو انسياق

وراء مشاعر مبهمة، كأن الإيمان فكر قاعد والإلحاد فكر متحرك، أو أن الإنسان المؤمن يستكين للمجهول. أما الآخرون فيستكشفون الأسرار، ويبحثون عن المعرفة.

ربما كان بعض المنسوبين إلى الدين رديء النظر عليل الفطرة، فما ذنب الدين إذ يحمل لهؤلاء أو يَحمله هؤلاء؟

لقد رأيت القرآن الكريم يتحدث عن «أولى الألباب»، يعنى أصحاب العقول، فى ستة عشر موضعا، نستطيع عند تدبر كل موضع منها أن نعرف المستوى العالى لذوى الإيمان الصحيح، وكيف يتحرك العقل المؤمن فى كل اتجاه ليقرر الحق، ويقود إليه.

ونكتفى الآن بسرد هذه الآيات المنوهة بقيام الدين وأحكامه على الرشد والصواب لا على الجزاف والفوضى.

فى سورة البقرة ثلاث آيات مختلفة السياق والموضوع هى:

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وللحكمة مواضعها الحميدة، سواء فى تبليغ الدعوة أو فى إنفاق المال، أو فى أى شأن آخر.

وفى سورة آل عمران آيتان: الأولى: تتحدث عن عصمة الفكر من البحث فيما وراء المادة؛ لأن هذا النوع من البحوث يقوم على التخمين والتوهم. .

والثانية: تطلق العنان للفكر كى يبحث ويستنتج فى المادة وأسرارها وقوانينها، وقيام الله عليها، وإحكامه لوجودها.

قال تعالى فى الموضع الأول:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

أما الحث على التأمل فى الكون فهو فى الموضع الثانى من السورة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ومعرفة الحق لا تكترث بالتقاليد السائدة، ولا تتقيد بالعرف الشائع، إنها بحث حر لا علاقة له بكثرة الأصوات أو قلتها.

والمغالاة بالحق مطلوبة فى وجه المنكرين له، أو النافرين منه مهما كثروا، فهم كما قيل:

إن شئت أن يسود ظنك كله   فأَجِلْهُ فى هذا السواد الأعظم!

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

ولمعرفة التاريخ العام أثر عميق فى صوغ العقل ونفعه بتجارب لا حصر لها، فإن حاضر الإنسانية امتداد لماضيها البعيد، ومهاد لمستقبلها المرتقب، وعلى المؤمنين أن يلتمسوا العبرة مما مضى؛ ليصونوا يومهم وغدهم، وهل للتاريخ ثمرة إلا هذا؟ قال تعالى فى سورة يوسف:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يوسف: ١١١].

وهذه الآية ختام لفصل متكامل من التاريخ البشرى الحافل، وهو ختام صريح فى أن القصص القرآنى واقع لا خيال، وأخبارٌ صادقٍ لا تأليف مفتعلٍ كما يشيع بعض المبشرين التائهين.

فى سورة الرعد حديث مفصل عن الخلال النبيلة التى يستجمعها أولو الألباب، وتضبط مسالكهم كلها، والذى يثير الانتباه هنا هو ارتباط الفضائل الإنسانية بالبصر العقلى! وبراءة المؤمنين من التخبط الذى يقع فيه العميان وكل من ضل الطريق!

قال تعالى فى الموضع التاسع من ذكر أولى الألباب:

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد: ١٩، ٢٠].

وفى سورة إبراهيم نجد وصفا للصراع بين الحق والباطل، والآثار القريبة والبعيدة لهذا الصراع، سواء فى دنيا الناس أو فى اللقاء الأخير مع رب العالمين.

وقد ختمت السورة بهذه الآية: ﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

واستمر الشيخ يتكلم عن بقية المواضع التى ذكر بها (أولو الألباب) بهذا النفس، وبهذا البيان..

نظرة فى ترتيب سور القرآن:

وللشيخ الغزالى نظرات وتأملات عميقة حول القرآن ينفرد بها، مثل هده النظرة فى ترتيب السور، التى سجلها فى كتابه: «علل وأدوية».

كتب الشيخ يقول:

«أحيانا أشعر - وأنا أتلو القرآن - ببعد المسافة الزمنية بين سورة وسورة، أو آية وآية، وأتساءل: هل إشعار القارئ بهذه المسافة البعيدة مقصود فى سوق الآيات وترتيب السور؟

ولأضرب مثلا لما أعنى: فى الجزء الأخير من المصحف الشريف تعقب سورة النصر سورة الكافرين، وسورة النصر من آخر ما نزل بالمدينة المنورة، وسورة الكافرين من أول ما نزل بمكة المكرمة، أى أن بين السورتين أكثر من عشرين سنة، يطويها القارئ فى لحظات سريعة، وهو ينتهى من هذه ويبدأ فى تلك.

السورة الأولى نزلت فى غربة الدين وعناء الدعاة وعناد الكافرين. نزلت لترسى دعائم التوحيد العملى، وتمهد له الطريق مهما فدح الثمن وازدادت العوائق.

والسورة الثانية نزلت وبشائر النصر تلوح فى كل أفق، والقبائل التى نفرت من التوحيد أول أمرها أخذت تثوب إليه وتقبل عليه، وصاحب الرسالة العظيم يستعد للعودة إلى ربه بمزيد من التسبيح والاستغفار بعدما قضى العمر فى جهاد يضنى الأبطال ويوهى الجبال.

كلتا السورتين تقابل الأخرى كأن الأولى تصور البذر، والأخرى تصور الحصاد! وأتساءل مرة أخرى: هل هذا الشعور مقصود فى ترتيب السور؟

ويعود السؤال على نحو آخر عندما نتدبر سورة «ق» المكية بعد سورة «الحجرات»

المدنية. إن السورة المدنية تبرز طائفة من الآداب المطلوبة فى مجتمع مستقر، له قيادة يجب توقيرها وإحسان التلقى عنها، مجتمع له مشكلات يجب التلطف فى حلها؛ كى تبقى الأمة موحدة الصفوف واضحة الهدف.. أما السورة المكية فإن الكلام فيها طال عن البعث والجزاء، وعن قمع الطبائع المتمردة بأهوال النار وشدة الحساب، أو استهواء النفوس النائية بالخيرات الحسان والمغفرة الشاملة.

وبين السورتين قرب معنوى وإن فصل بينهما مكان وزمان. فإن الأخلاق الزكية والسير الطاهرة إنما تنبجس من قلب مؤمن، يعرف الله ويتهيأ للقائه ويرجو وعده ويخشى وعيده.

إن الإيمان بالله واليوم الآخر هو العدو الأول للإباحية والفوضى والعنصر الأول للتسامى والأدب! وكأن مجىء سورة «ق» بعد سورة «الحجرات» تذكير بمصدر الطاقة الروحية وراء كل تربية ناجحة واتجاه سليم»[1].

حاجة المسلمين إلى القرآن:

لقد ألح الشيخ على بيان حاجة المسلمين الماسة إلى القرآن: «حاجتهم أفرادا، وحاجتهم أمة، ليعرفوا فى ضوء آياته الفلسفة العامة للدين وللحياة، ويؤسسوا نظرتهم الصحيحة إلى الإنسان والكون، وإلى ربهما وخالقهما. وهذه الحاجة تشمل كل مسلم بخلاف السنن والأحاديث.

فقد يحتاج الصيادون إلى كل ما ورد فى الصيد من سنن، وقد يحتاج المغسلون اللحادون إلى كل ما ورد فى الأكفان والأغسال من سنن.

أما الصورة العامة للإسلام ورسالته العظمى، فلها شأن آخر ينبغى أن يعرفه عارضو الإسلام فى هذا العصر المواّر بشتى الفلسفات والنزعات.

وعلاقة المسلمين بقرآنهم هى أسمى العلاقات وأرسخها، ولذلك يجب أن ندع نفوسنا للقرآن الكريم يشكلها بتوجيهاته وهداياته، ويضبط اهتمامها بشعب الإيمان، فلا يطغى فرع على أصل، ولا يموت فرع بإزاء أصل.

إن الموظف فى ديوان المحاسبة قد يحيا فى عالم من الأرقام، ولكن هل العالم كله

---

(١) علل وأدوية: ص ٢٥١، ٢٥٢.

أرقام؟ إن الإسلام دين تحدث فى شئون الحياة كلها، بيد أن القرآن الكريم هو الكتاب الذى أعطى الخطة العامة والملامح الرئيسية، ومجموعة الظلال والأضواء التى تكشفها» (١).

ضرورة العناية بالقرآن الكريم:

وفى مقام آخر يؤكد الشيخ ضرورة العناية بكتاب الله، وتقديمه على ما سواه. يقول:

« الذى أرانى مضطرا إلى التنبيه إليه هو ضرورة العناية القصوى بالقرآن نفسه، فإن ناسا أدمنوا النظر فى كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجوراً، فنمت أفكارهم معوجة، وطالت حيث يجب أن تقصر، وقصرت حيث يجب أن تطول، وتحمسوا حيث لا مكان للحماسة، وبردوا حيث تجب الثورة! نعم: من هؤلاء من ظن الأفغانيين من أتباع أبى حنيفة لا يقلون شرا عن الشيوعيين أتباع كارل ماركس، لماذا؟ لأنهم وراء إمامهم لا يقرءون فاتحة الكتاب(!). والذهول عن المعانى الأولية والثانوية التى نضح بها الوحى المبارك لا يتم معه فقه ولا يصح دين.. ذكر أبو داود حديثا واهيا جاء فيه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تركب البحر إلا حاجا أو معتمرا أو غازيا فى سبيل الله تعالى فإن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا». هذا الحديث الضعيف المردود خدع به الإمام الخطابى، وعلل النهى عن ركوب البحر بأن الآفة تسرع إلى راكبه ولا يؤمن هلاكه فى غالب الأمر..!! والكلام كله باطل، فقد قال المحققون: لا بأس بالتجارة فى البحر، وما ذكره الله تعالى فى القرآن إلا بحق. قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

إن الغفلة عن القرآن الكريم والقصور فى إدراك معانيه القريبة أو الدقيقة عاهة نفسية وعقلية لا يداويها إدمان القراءة فى كتب السنة، فإن السنة تجىء بعد القرآن، وحسن فقهها يجىء من حسن الفقه فى الكتاب نفسه. وقد ذكر ابن كثير أن الإمام الشافعى قال: «كل ما حكم به الرسول ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»، فكيف يفقه الفرع من جهل الأصل؟

إن الوعى بمعانى القرآن وأهدافه يعطى الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعين على تثبيت السنن فى مواضعها الصحيحة.

والإنسان الموصول بالقرآن دقيق النظر إلى الكون، خبير بازدهار الحضارات وانهيارها، نيّر الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حاضر الحس بمشاهد القيامة وما

(١) انظر: علل وأدوية. ص ٢٥٣.

وراءها، مشدود إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان، وذلك كله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض، وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن ومتممة لهداياته فقد أوتى رشده» (١).

قرآن واحد:

ويؤمن شيخنا الغزالى بأن الله قد حفظ هذا القرآن فنقلته الأمة نقلا متواترا بلفظه ومعناه، وتوارثته الأجيال، محفوظا فى الصدور، متلوا بالألسنة، مكتوبا فى المصاحف، وأنه لا يوجد عند المسلمين جميعا إلا قرآن واحد، يتعبدون بتلاوته، ويرجعون إليه؛ ليأخذوا منه الهدى والنور، ويعرفون منه حكم الله تعالى فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب.

يقول الشيخ حفظه الله ورعاه.

«لا يعرف التاريخ إلا قرآنا واحدا منشور النسخ بين جماهير المسلمين من ليلة القدر الأولى إلى يوم الناس هذا، ولم يحدث خلاف على هذه الحقيقة خلال أربعة عشر قرنا مضت، فكتاب المسلمين واحد. وقد حاول بعض المستشرقين الصغار أن يختلق ريبة حول ذلك، فزعم أن عند الشيعة مصحفا آخر، وهو زعم ساقط كان أقل من أن نثبته هنا. ولكنا ترخصنا فى ذكره ليعلم من يجهل: أن القرآن الذى يحفظه جميع المسلمين ويحتفظون بنسخه فى بيوتهم واحد.

ولم يؤثر عن شيعى أو سنى أو خارجى أو صوفى: أن لديه قرآنا آخر غير هذا الكتاب الفذ. إن المصحف يطبع فى القاهرة فيقتنيه مسلمو إيران والهند من الشيعة دون أى تردد، عالمين بأن هذا هو الوحى الذى نزل على نبيهم.

وظاهر أن الأقدار ضاعفت أسباب الصيانة لهذا الكتاب، حتى انفرد بهذه المكانة التى لم يظفر بها كتاب سماوى آخر.

ومع كثافة الأسانيد المتواترة التى دفعت بهذا الكتاب إلينا، فإن هناك نظرا آخر جديرا بالاحترام كله. إن حديث القرآن عن الله ولقائه ومطالبه من عباده يعلو كثيرا جدا عن نظيره فى الكتب الأخرى.

---

(١) هموم داعية: ص ٥٢ ـ ٥٤، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامى، قطر.

فتالى القرآن يشعر بأن الله واحد واسع، عظيم، أعلى، جدير بالحمد كله، والمجد كله، يستحيل أن ينسب إليه نقص، أو يكون فوق كماله كمال.

وتالى العهد القديم يشعر بأن الله يذكر وينسى، ويخطئ ويصيب، ويفعل ويندم، ويأكل مع الناس، ويلاكمهم أحيانًا..!

وتالى العهد الجديد يشعر بأن الله تجسد وقتل فى سياق غامض حافل بالمتناقضات.

وفى التوراة - كما سجلها العهد القديم - لا توجد كلمة عن لقاء الله، ولا يوجد ذكر ليوم القيامة. الحديث كله عن الشعب المختار، وحقوقه فى هذه الدنيا وواجباته تجاه رب إسرائيل! فأى تدين هذا؟!

والحديث عن يوم القيامة فى العهد الجديد إما أن يؤخذ عن طريق الرؤى فى المنام، أو الإشارات الروحية ليوم الدينونة..

والبون بعيد بين هذا الأسلوب الخافت وبين الهدير الذى يسمع دويه فى الوعد والوعيد، ومشاهد القيامة، وصور الحساب، والثواب والعقاب، كما تكاثرت فى سور القرآن.

والجانب الإنسانى الحر ظاهر فى القرآن الكريم، فأنت وحدك صانع مستقبلك، ومصور ملامحك. إن أحسنت لم يستطع أحد أن يعترض طريقك إلى الجنة، وإن أسأت لم يستطع أحد أن ينقذك من النار: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، فلا وسطاء ولا شفعاء ولا قرابين على نحو ما تصور الوثنية أو على نحو ما تصور الأديان السماوية التى انحرفت.

والقرآن - بهذا الواقع المشرق - جدير بأن يكون الصوت الفذ المنبعث من السماء. فلو لم تدعمه أسانيد التواتر الغنية السخية لقال العقل: ما يصح عن الله إلا هذا.

ومن هنا فنحن نوقن بأن القارات الخمس لا تحوى سجلا للوحى الأعلى إلا فى هذا الكتاب العزيز..»(١).

(١) دستور الوحدة الثقافية: ص ٢٦، ٢٧.

الفصل السابع

الغزالى .. والسنة النبوية

الغزالى.. والسنة النبوية

القرآن الكريم هو المصدر الأول لفكر الشيخ الغزالى الدعوى والإصلاحى، والسنة هى المصدر الثانى. فهو يَعُدّ السنة ضرورة لفهم القرآن، فهى الشرح النظرى، والتطبيق العملى له. وهويحتفل احتفالا خاصا بالسيرة، بحسبانها الجانب العملى من السنة، حيث جعل الله نبيه (الأسوة الحسنة). وهى تمثل الإسلام مجسدا، والقرآن حيا، فى مواقف ووقائع، تراها الأعين، وتلمسها الأيدى، ويتعظ بها الخاص والعام. وفى هذا صنف كتابه القيم: (فقه السيرة).

ولهذا وجدنا فى كتبه حشدا كبيرا من الأحاديث الشريفة، يسوقها مع آيات القرآن العزيز لتكون نورا على نور، فيبين بها حقائق الإسلام، ويرد بها على أباطيل خصومه، ويصور بها عدله ورحمته، ووقوفه مع الضعيف حتى يقوى، ومع المظلوم حتى ينتصر، ومع الجاهل حتى يتعلم، ومع الجائع حتى يطعم، ومع الخائف حتى يأمن، ومع المستعبد حتى يتحرر.

صحيح أنه لم يعن بتخريج الحديث، وتمييز الصحيح من الضعيف، مكتفيا بعزوه إلى من أخرجه حينا، أو غير معزو حينا، جريا على ما اعتاده كثير من المؤلفين فى الأعصر الأخيرة، من ذكر الأحاديث معلقة غير مسندة، بل هو ما مضى عليه المصنفون فى الفقه وغيره قديما، وهو ما جعل كثيرا من أئمة الحديث يعنون بتخريج الكتب المشهورة فى الفقه وغيره، كما فعل الزيلعى فى «نصب الراية»، وابن حجر فى «التلخيص»، والعراقى فى تخريج أحاديث «الإحياء» وغيرهم. وهو حين يذكر الضعيف إنما يستأنس به فيما ثبت بالقرآن وصحيح السنة ولا يتخذه حجة وحده.

ومن تأمل فى كتابه: «فقه السيرة» ووقفاته العميقة مع الأحداث النبوية طوال مراحل حياته ﷺ من الميلاد إلى بعثته، ثم مرحلة الدعوة والمصابرة، ومرحلة الجهاد والمواجهة، أو مرحلة بناء الفرد فى مكة، ومرحلة بناء المجتمع فى المدينة ـ وجد فيه عقل الباحث المدقق، يتعانق مع قلب المؤمن المحب، وروح الداعية المحلق، الذى يحيا فى السيرة بل تحيا فيه السيرة.

ويتجلى ذلك مرة أخرى فى كتابه: «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء»، الذى يلمس فيه كل من قرأه روح العاشق المتوله، أكثر من فكر العالم الباحث.

يقول الغزالى فى مقدمة كتابه ذاك:

«شغفت بسير العباد الصالحين، وحاولت أن أقبس منها شعاعا أستضيء به كنت بقلبي مع موسى في مدين، وهو يحس لذع الوحشة والحاجة ويقول: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

وكنت مع عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة، ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

كنت مع إبراهيم وهو بوادى مكة المجدب يسلم ابنه للقدر المرهوب، ويسأل الله الأنيس لأهله: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

غير أنى انبهرت وتاهت منى نفسى، وأنا بين يدى خاتم النبيين محمد بن عبدالله، وهو يدعو ويدعو.

لقد شعرت بأنى أمام فن فى الدعاء ذاهب فى الطول والعرض، لم يؤثر مثله عن المصطفَين الأخيار، على امتداد الأدهار.

ولست فى مقام مفاضلة بين أحد من النبيين، إنها حقيقة علمية رأيت إثباتها فى صفحات قلائل، مشفوعة بالدلائل التى تزدحم حولها.

وقد نقول: أعلى جبل فى الأرض جبل كذا فى الهند! وما نقصد النيل من الجبال الأخرى، إنه ذكر حقيقة. قد نقول: إن الشمس أكبر من القمر سبعين ألف ألف مرة، ليكن، ذاك تقرير حقيقة. وفى هذا الكتاب سياحة محدودة فى جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء.

ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسى الأمارة بالسوء. ورجائى أن يقبل ربى هذه الكلمات فى ميزان الحسنات. كما أرجوه ـ تبارك اسمه ـ أن يقبل صلواتى على النبى العربى محمد، وأن يسعدنا جميعا بشفاعته».

زوبعة كتاب السنة بين الفقه والحديث:

أما كتابه الأخير : «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» الذى هاج عليه خصومات الكثيرين ، واستثار أقلاما عدة ، لترد عليه بقسوة وحدّة ، فمنطلقه فيه الدفاع عن السنة أمام فريق «العقلانيين» . ولو أدى ذلك إلى رد بعض الأحاديث الثابتة فى الصحاح إذا ناقضت منطق العقل ، أو منطق العلم ، أو منطق الدين نفسه ، حسبما يراه .

والمبدأ مقرر لدى علماء الحديث أنفسهم ، ولكن الخلاف فى التطبيق . وربما أسرف الشيخ فى رد بعض الأحاديث الثابتة ، وكان يمكن تأويلها وحملها على معنى مقبول ، وربما قسا كذلك على بعض الفئات ، ووصفهم ببعض العبارات الخشنة والمثيرة . وربما استعجل الحكم فى بعض مسائل كانت تحتاج إلى بحث أدق ، وإلى تحقيق أوفى .

ولكن الكتاب ليس كما تصوره الحملة عليه ، كأنه كتاب ضد السنة ، ولا كما تصور مؤلفه وكأنه ينكر السنة . فهذا ظلم بين للشيخ : الذى طالما دافع عن حجية السنة المشرفة ، وهاجم خصومها بعنف .

وإنكار حديث أو حديثين أو ثلاثة ، وإن ثبتت فى الصحاح ، لا يعنى بحال إنكار السنة بوصفها أصلا ثانيا ، ومصدرا تاليا للقرآن . ولو صح ذلك لأخرجنا أئمة كبارا مثل أبى حنيفة ومالك من زمرة أهل السنة ، لردهما أحاديث صحاحا فى العبادات أو المعاملات لم تثبت عندهما . بل لو صح ذلك لاتهمنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، لأنها ردت على بعض الصحابة أحاديث رووها وسمعوها بآذانهم من النبى ﷺ ؛ لأنها ـ فى رأيها ـ مخالفة لما جاء فى القرآن . فاتهمتهم بأنهم لم يحسنوا أن يسمعوا ، أو يحسنوا أن يحفظوا .

وقد نخالف الصديقة بنت الصديق فى فهمها وفى موقفها من تلك الأحاديث ، كما نخالف مالكا وأبا حنيفة فى موقفهما كذلك . وقد نرد بالحجة على ما ذهبوا إليه ، ونبين تهافته ووهن أساسه . ولكن مسلما ذا مسكة من عقل ودين ، لا يستطيع أن يتهم عائشة ، ولا أن يتهم أبا حنيفة أو مالكا بأنه ضد السنة أو مارق من الدين .

وهذا هو موقفنا من الغزالى ، قد نخالفه فى بعض آرائه فى الكتاب ، ما قلّ منها أو كثر ، وقد نخطئه فيها ، فليس هو بمعصوم ، ولكننا لا نتهمه فى دينه ، ولا فى علمه ، ولا نهيل التراب على تاريخه الحافل ، وكفاحه المتواصل ، فى نصرة الإسلام .

والواقع أن معظم ما تضمنه كتاب الشيخ ليس جديدا عن فكره ، بل هو مبثوث فى

مختلف كتبه، ضم شتاته في هذا الكتاب، مع بعض أفكار جديدة، وكلمات شديدة، ولهذا أثار ما أثار من ضجيج.

حديث الآحاد وإثبات العقائد:

وإذا تعرضنا لما أخذ على الشيخ في جانب السنة نجده يتلخص في أمرين أساسيين:

أولهما: أنه لا يعتمد أحاديث الآحاد في إثبات العقائد.

وهذا ـ كما بيناه في بعض كتبنا [1] ـ مؤسس على أمرين:

١ ـ أن العقائد لابد أن تبنى على اليقين لا على الظن.

٢ ـ وأن أحاديث الآحاد ـ وإن صحت ـ لا تفيد اليقين، بل لا يفيد اليقين إلا المتواتر.

ونصوص القرآن تؤيد الأمر الأول، فإن الله تعالى ذم المشركين بقوله: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨].

وأقوال جمهور علماء الأصول ـ أصول الدين وأصول الفقه ـ وعلماء الحديث أنفسهم، تؤيد الأمر الثاني، واستثنوا ما احتفت به القرائن، كأن يكون في الصحيحين، وتلقته الأمة بالقبول، وسلم من المعارض. ونازع في ذلك بعض المحدثين والحنابلة.

وهذا التوجه في التعامل مع أحاديث الآحاد في العقائد هو الشائع لدى المدارس والجامعات الدينية الشهيرة في العالم الإسلامي، التي تتبع منهج الأشاعرة والماتريدية في أصول الدين، مثل الأزهر والزيتونة والقرويين وديوبند وما تفرع منها.

يقول شيخنا سدد الله خطاه:

«لقد تخرجت في الأزهر من نصف قرن، ومكثت في الدراسة بضع عشرة سنة، لم أعرف خلالها إلا أن حديث الآحاد يفيد الظن العلمي، وأنه دليل على الحكم الشرعي مالم يكن هناك دليل أقوى منه..

والقول بأن حديث الآحاد يفيد اليقين ـ كما يفيد المتواتر ـ ضرب من المجازفة المرفوضة عقلا ونقلا».

وينقل عن صاحب المنار قوله: «التفرقة بين ما ثبت بنص القرآن من الأحكام، وما ثبت

---

(١) انظر كتابنا: المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة: ص ١١٥ ـ ١٢٥، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

بروايات الآحاد، واقتبسه الفقهاء: ضرورية. فإن من يجحد ما جاء في القرآن الكريم يحكم بكفره، ومن يجحد غيره ينظر في عذره! فما من إمام مجتهد إلا وقد قال أقوالا مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة، لأسباب يعذر بها، وتبعه الناس على ذلك. . ولا يعد أحد ذلك عليهم خروجا من الدين. . . »[1].

محققو الحنابلة في صف الغزالي:

وقد وجدت الحنابلة مختلفين في هذه القضية، نظرا لاختلاف ما روى عن الإمام أحمد بشأنها، وتبين لي أن معظم الأصوليين المحققين في المذهب يميلون إلى أن حديث الآحاد ـ أو خبر الواحد ـ لا يفيد اليقين، وبتعبير آخر: لا يقتضي العلم. ذكر ذلك القاضي أبو يعلى في «العدة»، وأبو الخطاب في «التمهيد»، وابن قدامة في «الروضة»، وابن تيمية في «المسودة».

يقول العلامة أبو الخطاب:

«خبر الواحد لا يقتضي العلم. قال الإمام أحمد في رواية الأثرم: إذا جاء الحديث عن النبي ﷺ بإسناد صحيح فيه حكم، أو فرض عملت به، ودنت الله تعالى به، ولا أشهد أن النبي ﷺ قال ذلك، فقد نص على أنه لا يقطع به، وبه قال جمهور العلماء[2].

وروى عنه حنبل: أنه قال في أحاديث الرؤية: نعلم أنها حق نقطع على العلم بها[3]، وبه قال جماعة من أصحابنا، وأصحاب الحديث[4]، وأهل الظاهر[5].

---

(١) انظر: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٧٤، ٧٥، ط. سادسة، دار الشروق.

(٢) انظر: هذه المسألة في المعتمد لأبي الحسين البصري: ٢/ ٥٥٦، العدة لأبي يعلى. ٣/ ٨٩٨، والبرهان لإمام الحرمين: ١/ ٥٥٩، والإحكام للآمدي. ٢/ ٣٢، والروضة لابن قدامة ص: ٩٩، وفواتح الرحموت: ٢/ ١٢١، والمسودة: ص ٢٤٠، والإحكام لابن حزم: ١/ ١٠٧.

(٣) قال محقق التمهيد: وقيل: هما روايتان عن الإمام، والراجح أن الثانية محمولة على الأخبار التي كثرت وتلقتها الأمة بالقبول حتى أصبحت من المتواتر المعنوي، أو الأخبار التي نقلها الأئمة المتفق على عدالتهم وثقتهم من طرق متساوية، وتلقتها الأمة بالقبول. وقال أبو يعلى بعدما نقل الرأي الثاني: هذا عندي محمول على وجه صحيح من كلام الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وأنه يوجب العلم من طريق الاستدلال لا من جهة الضرورة. انظر: الروضة: ص ٩٩، والبلبل: ص ٥٣، والعدة: ٣/ ٨٩٨ وما بعدها.

(٤) انظر: نسبة ذلك في الروضة: ص ٩٩، والمسودة: ص ٢٤٠.

(٥) انظر: رأيهم في (الإحكام في أصول الأحكام). لابن حزم: ١/ ١٠٧.

وجه الأول : أن خبر الواحد لو اقتضى العلم لاقتضاه كل خبر واحد، سواء كان الراوى ثقة أو غير ثقة ، ألا ترى أن خبر التواتر أوجب العلم، لا فرق بين أن يرويه عدول أو فساق، ولوجب أن يقع العلم بخبر كل من يشهد على إنسان بمال أو كل من يدعى النبوة، ولم يقل هذا أحد، ولأنه لو أوجب خبر الواحد العلم لجاز ذلك أن يعارض التواتر ، وينسخ به القرآن، ولا يجوز ذلك، ولأن الواحد منا يسمع خبر الواحد، فلا يوجب له العلم، حتى إن منها ما لا يوجب سماعه غلبة الظن، ولأنه يجوز عليه الكذب والسهو والغلط، فلا يجوز أن يقع به العلم، وعكسه التواتر .

احتج الأولون بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣]، ثم أمرنا بالعمل بخبر الواحد، فثبت أن ذلك يوجب لنا العلم .

الجواب : أن التعبد بخبر الواحد لا يقتضى القول على الله سبحانه بما لا نعلم؛ لأنه قد قام عندنا الدليل القاطع على وجوب العمل بخبر الواحد، وإذا علمنا به، وقلنا قد تعبدنا بذلك، فقد قلنا على الله ما نعلم، وقفينا ما لنا به علم، ولأن العمل لا يقف على العلم، وإنما يجب بغلبة الظن، كما يجب على الحاكم أن يحكم بالشاهدين، والعامى أن يعمل بقول المفتى، وكما يعمل بالقياس[1] .

وفى «المسودة» نقرأ هذه المسألة : خبر الواحد يوجب العمل، وغلبة الظن دون القطع، فى قول الجمهور، وارتضى الجوينى من العبارة أن يقال : لا يفيد «العلم» ولكن يجب العمل عنده، لا به، بل بالأدلة القطعية على وجوب العمل بمقتضاه. ثم قال : هذه مناقشة فى اللفظ. ونقل عن أحمد ما يدل على أنه قد يفيد القطع إذا صح. واختاره جماعة من أصحابنا .

قال والد شيخنا : ونصره القاضى فى الكفاية، وقال شيخنا (شيخ الإسلام ابن تيمية) وهو الذى ذكره ابن أبى موسى فى الإرشاد، وتأول القاضى كلامه على أن القطع قد يحصل استدلالا بأمور انضمت إليه : من تلقى الأمة له بالقبول، أو دعوى المخبر عن النبى

---

(١) خلاصة هذا الجواب : أنه يراد بالعلم فى الآية ما يعم غلبة الظن، بدليل انعقاد الإجماع على وجوب العمل بالأدلة التى تفيد غلبة الظن فى الفروع، كخبر الواحد والقياس، وقد جعل بعض الأصوليين كالآمدى الآية : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] فى الأصول دون الفروع، لقيام الإجماع على وجوب العمل بغلبة الظن فيها. انظر : الإحكام للآمدى: ٢/ ٣٥، وانظر : التمهيد : ٣/ ٧٨ـ ٨٠.

ﷺ أنه سمعه منه فى حضرته فيسكت ولا ينكر عليه، أو دعواه على جماعة حاضرى السماع معه فلا ينكرونه، ونحو ذلك، وحصر ذلك بأقسام أربعة هو وأبو الطيب جميعا، ومن أطلق القول بأنه يفيد العلم فسره بعضهم بأنه العلم الظاهر دون المقطوع به، وسلم القاضى العلم الظاهر.

وقال النظام إبراهيم: خبر الواحد يجوز أن يفيد العلم الضرورى إذا قارنته أمارة.

وكذلك قال بعض أهل الحديث: منه ما يوجب العلم كرواية مالك عن نافع عن ابن عمر، وما أشبهه. وأثبت أبو إسحاق الإسفرائينى فيما ذكره الجوينى قسما بين المتواتر والآحاد سماه «المستفيض»، وزعم أنه يفيد العلم نظرا، والمتواتر يفيد العلم ضرورة، وأنكر عليه الجوينى ذلك. وحكى عن الأستاذ أبى بكر أن الخبر الذى تلقته الأمة بالقبول محكوم بصدقة، وأنه فى بعض مصنفاته»[1].

وذكر شيخ الإسلام فصلا يتعلق بمسألة خبر الواحد المقبول فى الشرع هل يفيد العلم؟ فإن أحدا من العقلاء لم يقل: إن خبر كل واحد يفيد العلم، وبحث كثير من الناس إنما هو فى رد هذا القول.

قال ابن عبدالبر: اختلف أصحابنا وغيرهم فى خبر الواحد العدل: هل يوجب العلم والعمل جميعا أم يوجب العمل دون العلم؟ قال: والذى عليه أكثر أهل الحذق منهم أنه يوجب العمل دون العلم، وهو قول الشافعى وجمهور أهل الفقه والنظر، ولا يوجب العلم عندهم إلا ما شهد به الله وقطع العذر، لمجيئه مجيئا لا اختلاف فيه، قال: وقال قوم كثير من أهل الأثر وبعض أهل النظر: إنه يوجب العلم والعمل جميعا، منهم الحسين الكرابيسى.

قلت: وحكاه الباجى عن داود بن خويز منداد وهو اختيار ابن حزم.

قال ابن عبدالبر: الذى نقول به أنه يوجب العمل دون العلم كشهادة الشاهدين والأربعة سواء، قال: وعلى ذلك أكثر أهل الفقه والنظر والأثر[2].

رد بعض الأحاديث الصحاح:

والأمر الثانى الذى أخذ على الشيخ، وكتب فيه الكاتبون، وردده المرددون، وشنع به المشنعون، هو رده لبعض الأحاديث الصحيحة من أحاديث الآحاد.

---

(١) المسودة: ص ٢٤٠.
(٢) انظر: المسودة: ص ٢٤٤، ٢٤٥.

وما رده الشيخ من هذا النوع ردا صريحا ليس بكثير، إنما هى أحاديث قليلة محدودة. وهو لم يردها لهوى فى نفسه، ولا لوهن فى دينه، ولا لتنكر للسنة، ولا لتنقص للوحى، بل حرصا على الدين نفسه أن يجد العلمانيون واللادينيون فيه ثغرة ينفذون منها للطعن فيه، والتشكيك فى قضاياه، وتوهين أصوله. فرده لتلك الأحاديث القليلة إنما هو دفاع عن الدين فى مواجهة خصومه وأعدائه الكائدين له والمتربصين به.

وهذه الأحاديث التى ردها الشيخ لا يتوقف عليها أى أمر من أمور الدين. فلو مات المسلم ولقى ربه دون أن يقرأها أو يعرف عنها شيئا ما نقص من إيمانه ذرة. وذلك، مثل حديث لطم موسى عليه السلام لعين ملك الموت حتى فقأها! وحديث «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم (أى لم يفسد)، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»!!... إلخ...

إن العالم لا يضره فى دينه رده لبعض الأحاديث التى لم تثبت عنده. فما من إمام من أئمة المسلمين إلا رد أحاديث صحت عند غيره، ولم تصح عنده، والبخارى يشترط لقبول الحديث شروطا لا يشترطها غيره من أئمة الحديث، حتى تلميذه مسلم فى صحيحه، والإمام على بن المدينى أشد من البخارى فى شروطه.

والأئمة اشترطوا لصحة الحديث: ألا يكون فى سنده ولا متنه شذوذ ولا علة تقدح فى صحته.

وقالوا: إذا رأيت الحديث يخالف العقول، أو يباين النقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه غير مقبول.

فالمبدأ مسلم به، والخلاف إنما هو فى التطبيق. وربما قبلوا أشياء لم يروها مخالفة للعقول، أو مناقضة للأصول، فى عصرهم، ولكنا تبينا من الأمور ما لم يتبين لهم، وقد انكشف لنا من العلم ما لم ينكشف غطاؤه لهم، فهنا يختلف موقفنا عن موقفهم، لاختلاف المعلومات لا لاختلاف المنهج.

أجل، لم ينكر الشيخ الغزالى دقة الشروط التى وضعها علماء الحديث الكبار، لتمييز الصحيح والحسن والضعيف، بل قال بصريح العبارة: إنى أنزل وينزل غيرى عندها! فهى شروط جامعة مانعة، لو نظر فيها رجل مادى لارتضاها فى ضبط الأخبار وتأصيلها.

وما حدث: أن تساهلا وقع فى تطبيق هذه الشروط.

فإن حديث الثقات إذا ورد مخالفا لمن هم أوثق وصف بالشذوذ، وإن كان سنده صحيحا.

كيف تقع هذه المخالفة؟ إن الراوى بشر قد يخطئ الفهم، أو يغلبه النسيان، وهنا تجيء المقابلة بين حديث وحديث، وسند وسند، ومع التحرى والاستقصاء يظهر الحق.

وقد تجيء المقابلة بين الدلالات المأخوذة من آية قرآنية، وبين الخبر المروى عن طريق الآحاد. ومن غرائب ذلك أن أبا حنيفة يبيح أن تباشر المرأة عقد زواجها بنفسها ويرد ما روى بالمنع، لأن الله يقول: ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ويقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

فنسب العقد إليها، وهذا الإسناد حقيقى ولا داعى للقول بالمجاز.. إلخ. وأغلب الفقهاء يرفض هذا المذهب لضعف الاستنتاج وإن أيده كثيرون. والذى نلفت النظر إليه أن أحدا لا يرد حديثا بالهوى أو لأنه لم يعجبه[1]، فذلك مسلك كما قلنا أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان.

ونتأمل فى مسلك إمام فقيه محدث، هو مالك بن أنس رضى الله عنه. يرى مالك أن المدينة المنورة على عهده ورثت علم الصحابة والتابعين، وهم القرون المفضلة فى هذه الأمة، وأن ما أجمع عليه أهل المدينة هو الصورة الدقيقة لسنة الرسول ﷺ، فإذا جاء حديث مخالف لما عليه العمل عند أهل المدينة تجهم له مالك، وتوقف فى قبوله.

إنه وإن رواه الثقة فقد خالف الثقات، أى أنه وفق مصطلح أهل هذا الفن شاذ، ومن ثم رفض مالك النافلة قبل المغرب، ورفض تحية المسجد والإمام يخطب، مع ورود أحاديث تجيز ذلك، بل تستحبه.. إن موقف مالك من هذه المرويات كموقف عمر بن الخطاب من حديث فاطمة بنت قيس فى سكنى ونفقة المطلقة ثلاثا، فقد رد الحديث ـ على صحته ـ قائلا: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لحديث امرأة، لا ندرى حفظت أو نسيت! إنه لا يرد السنة، وحاش له ذلك. إنه ينكر أن هذا الحديث سنة. قال الشيخ عبدالله كنّون كبير علماء المغرب ـ وهو مالكى المذهب ـ:

«نلمح إلى رأينا فى تقديم مالك لعمل أهل المدينة على الخبر الصحيح الذى يروى عن طريق الآحاد؛ فإنا نرى أنه ذهاب منه إلى وجوب النظر فى متن الحديث، كما ننظر إلى السند. إن متن الحديث إذا وجد له معارض من الأصول والحقائق الثابتة المسلمة، وكان من رواية الآحاد ـ أى لم يكن متواترا فيعلم بالضرورة أنه من الدين ـ فإنه يمكن وضعه موضع البحث، ويتوقف العمل به حتى يبت فيه أهل العلم».

---

(١) وهذا ما وضحه ابن تيمية فى كتابه القيم: رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

قال: «مما يستأنس به لهذا ما روى عن ابن المعذل أنه قال:

سمعت إنسانا سأل ابن الماجشون: لم رويتم الحديث ثم تركتموه؟ فقال: ليُعلَم أنّا على علم تركناه» . .

وهذا القول يرد على من زعم أن الإمام مالكا ترك العمل بالحديث لأنه لم يبلغه، لا، إنه بلغه، ولكنه ثقةً برجحان ما عنده يأباه.

إن الآحاد لا ترد الإجماع أو شبه الإجماع، وهو يرى أن ما خالف إجماع أهل المدينة مرفوض.

ويرى أبو حنيفة أن حديث الآحاد يفيد الظن الراجح، فكل دلالة أقوى ترجح عليه كظاهر القرآن، والقياس القطعى (١).

ولقد تعرض ابن تيمية فى «المسوّدة» لقضية من يرد الحديث الصحيح، وهل يكفر به، فقال: «وقد اختلف العلماء فى تكفير من يجحد ما ثبت بخبر الواحد العدل، وذكر ابن حامد فى أصوله عن أصحابنا فى ذلك وجهين، والتكفير منقول عن إسحاق ابن راهويه».

وبعد بحث ومناقشة فى المسألة قال شيخ الإسلام:

«ولهذا كان الصواب أن من رد الخبر الصحيح - كما كانت ترده الصحابة - اعتقادا لغلط الناقل أو كذبه، لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا، فإن هذا لا يكفَّر ولا يفسَّق، وإن لم يكن اعتقاده مطابقا، فقد رد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث» (٢).

فهذا هو قول العلماء الراسخين، فَدَعْك من المتطفلين على العلم، الذين يكفّرون العلماء بلا دليل، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

---

(١) علل وأدوية: ص ٨٨ - ٩٠.

(٢) المسودة: ص ٢٤٥ - ٢٤٧.

الغزالى مدافعا عن السنة

وما يؤسف له أن كثيرا من الناس يجهل الموقف المبدئى للشيخ الغزالى من السنة، وهو موقف الالتزام الكامل بها، والمحاماة عنها، والاشتباك مع خصومها، بقلمه البليغ، وبيانه الدفاق. ولكم شدد النكير فى أكثر من كتاب له على الذين يزعمون الاستغناء بالسنة عن القرآن، مسفها رأيهم، ومضللا اتجاههم. كما حمل فى الوقت نفسه على الدين يخوضون فى السنة، ويتحدثون عنها، دون أن يعايشوا القرآن، ويضربوا فى معرفته بسهم وافر.

منزلة السنة من القرآن:

وقد تعرض لذلك مبكرا فى كتابه: «فقه السيرة» مبينا «منزلة السنَّة من الكتاب» فقال:

«والقرآن هو قانون الإسلام، والسنَّة هى تطبيقه، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه. وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه ـ فى ذلك ـ لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هى طاعة لله، وليست خضوعا أعمى لواحد من الناس، قال الله عز وجل: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

إن السير فى ركاب المرسلين هو الخير كله، ومن ثم كانت سنة محمد عليه الصلاة والسلام مصدرا لشريعته مع الكتاب الذى شرفه الله به. وجمهور المسلمين على هذا الفهم. إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة فى تلقيها، فليس كل ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام سنة تقبل، ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه، أو وضع موضعه..

والمسلمون لم يؤذَوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أوذُوا من الأحاديث التى أسيء فهمها واضطربت أوضاعها. حتى جاء أخيرا من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ريبة واتهام، ويتمنى لو تخلص المسلمون منها..

وهذا خطأ من ناحيتين:

إهمال الحقيقة التاريخية أولا، فإن الدنيا لم تعرف بشرا أحصيت آثاره، ونقدت بحذر، ومحصت بدقة، كما حدث ذلك فى آثار محمد بن عبدالله، فكيف ترمى بعد ذلك فى مطارح الإهمال؟!

والناحية الأخرى: أن فى السنة كنوزا من الحكمة العالية لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها؟

عندما درسنا تراث محمد عليه الصلاة والسلام فى «الأخلاق» (١) وذاكرنا أحاديثه التى تربو على الألوف فى شتى الفضائل، خيل إلينا: لو أن جيشا من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الضخمة». انتهى (٢).

إضاعة السنة إضاعة للدين كله:

وفى كتابه: «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين» يقول:

«تواجه السنة النبوية هجوما شديدا فى هذه الأيام، وهو هجوم خال من العلم ومن الإنصاف، وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدّعى الاكتفاء بالقرآن وحده.

ولو تم لهذه الجماعات ما تريد لأضاعت القرآن والسنة جميعا، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله. إن محاربة السنة لو قامت على أسس علمية لوجب ألا يدرس التاريخ فى بلد ما.

لماذا يقبل التاريخ على أنه علم وتهتم كل أمة به، مع أن طرق الإثبات فيه مساوية أو أقل من طرق الإثبات فى الحديث النبوى؟

وأمر آخر نحب أن نثيره: لماذا تدرس سير العظماء وكلماتهم وتعرض للتأسى والإعجاب، ويحرم من ذلك الحق رسل الله، وفى صدارتهم سيد أولئك الرسل مروءة وشرفا، وبيانا وأدبا، وجهادا وإخلاصا؟

---

(١) يقصد بذلك كتابه: خلق المسلم.
(٢) انظر: فقه السيرة ص ٤٤ ـ ٤٦.

إن الله في كتابه أحصى أسماء ثمانية عشر نبيا من الهداة الأوائل، ثم قال للهادى الخاتم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٩٠]. فإذا برز للإنسانية إنسان كامل التقت فى سيرته شمائل النبوات كلها، وتفجرت الحكمة على لسانه كلمات جوامع، واستطاع ـ وهو الفرد المستوحش ـ أن يحشد من القوة ما يقمع كبرياء الجبابرة، ويكسر قيود الشعوب، ويوطئ الأكناف للحق المطارد. . إذا يسر الله للإنسانية هذا الإنسان العابد المجاهد الناصح المربى، جاء غرٌّ يقول : لا نأخذ منه ولا نسمع له، ثم يستطرد مخفيا غشه : حسبنا كتاب الله! وهل السنة إلا امتداد لسناه، وتفسير لمعناه، وتحقيق لأهدافه ووصاياه؟» (١).

علاقة السنة بالقرآن:

وأبرز كتاب تناول فيه الغزالى صلة السنة بالقرآن، بتوضيح وتفصيل وتأصيل، هو كتاب : «ليس من الإسلام»، ولا بأس أن أنقل هنا بعض الفقرات منه ـ وإن طالت ـ لبيان الموقف الحقيقى للشيخ من السنة، ولننصفه من خصومه، الذين غلا بعضهم، بل فجر فى خصومته له، سامحهم الله.

القرآن ثم السنة:

يقول الغزالى تحت هذا العنوان :

«المصدر الأول لتعليم الإسلام هو القرآن الكريم، وهو من المصادر الأخرى بمنزلة الجذع من فروع الشجرة وثمارها.

وفى الحديث : «فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

وأنت ترى فى الأنظمة العامة التى تحكم الجماعات دساتير أصيلة. ثم قوانين إدارية وجنائية وشخصية وتجارية.

ثم لوائح وقرارات ومذكرات تفسيرية. . إلخ.

والمفروض فى الدساتير أنها مجمع القواعد الخطيرة فى الحكم والتشريع والتنفيذ، وأنها تضم أمهات المسائل التى ينبغى النص عليها ولا تترك للتقديرات المختلفة.

---

(١) دستور الوحدة الثقافية للمسلمين.

وأن ما عداها يرتكز عليها ويستمد حرمته منها .

ولذلك لا يمكن أن يحتوى على ما يخالفها نصا أو روحا .

فإذا وجد هذا المخالف ألغى من تلقاء نفسه .

كذلك كتاب الله ، هو قطب الإسلام ، ومنبع شرائعه ، والدستور الذى يقتعد الصدارة فيما يضم من توجيه وأدب ووصايا وأحكام .

وقد تضمن أصول الإسلام . ومنه تؤخذ الصور العامة لما يرضاه الله لعباده فى شئون حياتهم ، ومناحى تفكيرهم ، ومعالم سلوكهم . والمسلمون للأسف لا يقدّرون الكتاب العزيز حق قدره .

ولا يعلقون بصائرهم وأبصارهم بمعانيه وأهدافه كما ينبغى .

ودَعْك من تجويد التلاوة كما يفعل أصحاب الأصوات ، ومن التأثر الموقوت الذى تلمح مظاهره على بعض الأجسام ، فإن هذا وذاك لا يدلان على شىء ذى بال . .

إن القرآن هو الهداية الأولى للناس ، الهداية التى صدرت عن الله مُحصية قواعد الحق وضمانات النجاة . فآيات هذا القرآن تحتوى على معالم الصراط المستقيم مثلما تحتوى آفاق الكون على أسرار العلم وقواه المذخورة للخلق . .

ولو عقل البشر لوقفوا بإزاء كل سورة ، بل كل حرف ، يستنبثونه اليقين ، ويتعرفون منه كيف يوثّقون صلاتهم برب العالمين . . .

إن كلام الله فوق كل كلام .

واستقباله بمشاعر الحفاوة والجد والاستقصاء أمر واجب .

أو هو ـ فى الحقيقة ـ أعود شىء بالنفع على الناس .

وكلما زاد الارتباط به وثاقةً زاد رسوخ القدم على طريق الخير والبر . .

والعجب لأقوام يقدّمون على كلام الله وأحكامه كلاما آخر وأحكاما أخرى .

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] .

إن مقتضى الإيمان بالله هو إدمان التأمل فى كتابه التماسا للنفع المحقق، واقتطافا للثمار الطيِّبة فى العاجلة والآجلة معا.

والمؤمن بالقرآن الكريم يستحيل أن يرجِّح على دلالته دلالة، أو أن يشرك مع توجيهه هديا. ذلك أن القرآن يعلو ولا يُعلَى عليه، وأنه يحكم على سائر الأدلة الأخرى، ولا يحكم شىء منها عليه.

ويستحيل ـ بداهة ـ أن يكون فى مصادر التشريع الأخرى ما يعارضه أو يسير فى مجرى يغاير اتجاهه. ولو وجد شىء من ذلك، فهو دخيل على دين الله. وطبيعة السنَّة والقياس والاستصلاح، وما شابه ذلك.. طبيعة الفروع مع الأصل، أو الأعضاء من الرأس.

إن الرسول ﷺ يبلغ عن الله ويوضح مراده، ويكمل الأحكام فى الصور الجزئية الكثيرة التى ليس من شأن الدستور العام أن يتعرض لها.

فالقرآن مثلا عرض للبيع ـ وهو أشيع المعاملات ـ فذكر من أحكامه ما لا يتجاوز أصابع اليد عدّاً. أما السنة ففيها بضع مئات من الأحاديث التى تفصِّل وتشعِّب...

وللسنة ـ عدا هذا النطاق التشريعى ـ ميدان أوسع، وينبغى أن نطيل التأمل فيه.

هبْ هيئة ما طلعت على الناس بمنهاج مبين فى كتاب محدود، وأرادت أن تكافح لتعميمه وسياسة المجتمع به، ماذا تفعل؟ إنها قد تصدر صحيفة لتكون لسان حالها، وتكرس فيها جهودا كبيرة لنشر آرائها واجتذاب الجمهور إليها.

هذا اللسان الناطق باسم الهيئة، والمعبر الرسمى عن وجهة نظرها، له مكانته التى لا ريب فيها.

وما يذيعه بين الحين والحين تؤخذ الهيئة به، ويُعَدّ بيانا دقيقا عن موقفها.

ووظيفة الصحيفة الرسمية لهيئة ما، أنها تصور حكمها على الحوادث المتجددة وتنتهز المناسبات الحكيمة لتزكية برامجها، والإشادة بما حوت من إصلاح.

وهى تلون ـ حسب الأيام والأشخاص ـ ما تعرضه من مبادئ.

فقد تقول للطلاب كلاما غير الذى تقوله للعمال، وتحدِّث الأجانب بما لا تحدِّث به المواطنين.

وقد يفهم البعض منهاج الهيئة على أنحاء خاطئة فتفيض هى فى شرح المقصود منه، وترد الأوهام عما قامت للدفاع عنه.

وهذا التغيير والتفسير يتبع الأحوال والأقوام وما تقتضيه الملابسات المختلفة من توجيهات مناسبة.

ولا موضع البتة بأن هناك تعارضا أو تفاوتا بين منهاج الهيئة وما تنشره صحيفتها الرسمية.

ذلك - على ضرب من التجوز - عمل السنَّة مع الكتاب.

ولقد ظل رسول الله ﷺ يتحدث ثلاثة وعشرين عاما، ويسوس الأمة بسيرته فيها، بروزه على سواء للأصدقاء والخصوم، وعمله الدائب لهداية الناس لا يخفى منه شيء.

وليس المهم أن نعرف ما حدَّث به وحسب، ولكن المهم أن نعرف كيف ومتى، ومَن حدَّث؟

وإن هذه الظروف تعين إعانة حاسمة، على فقه السنة فقها صحيحا.

أمثلة لقاعدة:

- عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، أى العمل أحَب إلى الله؟ قال: «الحال المرتحل»! قال: وما الحال المرتحل؟ قال: «الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حَل ارتحل».

- وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: سألت النبى ﷺ: أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله».

قال ابن مسعود: حدثنى بهن، ولو استزدته لزادنى. . .

ـ وعن أبى هريرة أن أبا ذر رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل؟ قال : «إيمان بالله ورسوله» . قيل : ثم ماذا؟ قال : «جهاد فى سبيل الله» . قيل : ثم ماذا؟ قال : «حج مبرور» .

ـ وعن أبى موسى الأشعرى : قالوا : يارسول الله ، أى الإسلام أفضل؟ قال : «من سلم المسلمون من لسانه ويده» .

ـ وعن عبدالله بن عمر أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير؟ قال : «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» .

هذه إجابات شتى لسؤال واحد فما معنى هذا؟

معنى هذا أن حديث رسول الله ﷺ قد يكون متجها إلى رعاية أحوال المخاطبين ، فيبرز من العبادات والآداب ما يراه أليق بحياتهم ، وما يراهم أمس إليه حاجة . ويسكت عن غيره ، لا تهوينا من شأنه ، فقد يسكت عن أركان عظيمة القدر فى الدين تكفلت ببيانها آيات القرآن أو سُنن أخرى .

والذى يستفاد من هذه الإجابات أنه لا يجوز أخذ حديث ما على أنه الإيمان كله . كما أنه لا تجوز الغفلة عن الملابسات التى سيق فيها الحديث ، فإنها تلقى ضوءا كاشفا على المراد منه .

وكما راعت السُّنن أحوال المخاطبين ، قد تراعى الأحوال العامة للجماعة .

فعند كَلَب الكفار وضرواتهم على بلادنا ، يكون الجهاد أفضل من الحج .

وعند اشتداد الأزمات وكثرة البائسين ، تكون الصدقة أفضل من الصلاة .

وعندما يظهر قصور أمتنا فى ميدان الاحتراف والتصنيع ، يكون الاشتغال بالكيمياء والحديد أحب إلى الله من حراثة الأرض ورعاية الغنم . . .

إن فهم القرآن لا يتم إلا بمعرفة السنة ، وفهم السنة لا يصح إلا بمعرفة المناسبات الحكيمة التى سيق من أجلها التوجيه النبوى .

وإذا لم تكن لدينا إحاطة شاملة بالأزمنة والأمكنة والوقائع التى أرسلت فيها هذه الأحاديث ، فقد تكون فى الإحاطة بجملة السنن عوض يسد هذا النقص .

فإنك أمام كثرة المرويات وتعدد معانيها لا ترى بدا من تنسيقها وترتيبها ، ووضع كل حديث بإزاء ما يوافقه من أحوال .

ولقد بلغنى أن هناك مؤلفات فى «أسباب الحديث»[1]، طبعت فى الشام على غرار «أسباب النزول» التى امتلأت بها كتب التفسير، ونحن نأسف لبعد هذه المؤلفات عن متناولنا، فإن إشاعتها ضرورة لخدمة السنة وصد الهاجمين عليها . .

وهذا الذى ذكرناه فى فهم السنة وصلتها بالكتاب، لم نأت بجديد فيه . . إنما هو علم الأئمة الأولين، وإدراكهم الصحيح لحقائق هذا الدين».

وظيفة السنة:

«لقد كنت عندما أحب الاستشهاد بالكتاب والسنة فى موضوع ما . . ألاحظ هذه الحقيقة، وأجد طائفة كبيرة من الأحاديث تطابق فى معانيها وأهدافها ما تضمن القرآن الكريم من معان وأهداف، وأن هذه الأحاديث قد تقرر المعنى نفسه، الذى احتوته الآية، أو تقرر معنى آخر، يدور فى فلكه وينتظم معه فى اتجاه واحد، وإن بدا للعين المجردة أن الصلة بينهما بعيدة.

فمن القبيل الأول ـ مثلا ـ يقول الرسول ﷺ : «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت».

فإن، هذا المعنى لا يخرج عن قول الله عز وجل: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

وسرد الأمثلة التى من هذا النحو يطول.

ومن القبيل الثانى ـ مثلا ـ أن الرسول ﷺ نهى أن يشرب فى آنية الذهب والفضة وأن يؤكل فيها، ونهى عن لُبس الحرير وأن يُجلَس عليه.

فإن هذا الحكم الذى جاءت به السنة مشتق من تحريم القرآن للترف واعتباره المترفين أعداء كل إصلاح، وخصوم كل نبوة، وعوامل للهدم فى كل أمة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

---

(١) يقصد: كتاب: (البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف) تأليف ابن حمزة الحسينى الدمشقى وقد نشرته بعد ذلك دار التراث العربى بالقاهرة، بتحقيق الدكتور الحسينى هاشم، وتقديم شيخ الأزهر الأسبق، الدكتور عبدالحليم محمود ـ رحمهما الله. وقد نشر كتاب فى نفس الموضوع للحافظ السيوطى.

والنهى عن اتخاذ القبور مساجد ـ وقد جاءت به السنة ـ هو فى الحقيقة حماية حاسمة للتوحيد الذى ضل عنه النصارى بما اتخذوا من معابد على قديسيهم حتى احتج مشركو مكة بذلك وهم يعارضون الرسول ﷺ : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾ [ص ٧].

والسنة التى تكون بهذه المثابة فى تقرير غايات القرآن المرسومة أو المفهومة، أو التى تفصل مجمله وتوضح مشكله . . . تأخذ قسطا كبيرا من عناية المسلمين، ومنزلتها من أدلة الأحكام الشرعية معروفة . .

وهناك سنن أخرى تخصص أحكاما عامة فى القرآن.

ففى قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١] بينت السنة أن الابن القاتل لاحظّ له فى ميراث.

وفى قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ [المائدة: ٣] بينت السنة أن هناك مباحين فى كل من هذه المحرمات: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال».

وفى قوله عز وجل: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨]، بينت السنة أن ليس كل سارق يُقطع. إذ لا قطع فيما دون النصاب المقرر، ولا قطع على جائع ينشد طعامه، ولا على مغصوب يسترد ما أخذ منه . .

فإذا ثبت القطع، ففى اليمين، وعند الرسغ، كما بينت السنة . .

وقد جاءت السنة بأحكام يسرت بعض العزائم التى أمر الكتاب العزيز بها.

فالقرآن مثلا يأمر بغسل القدمين ويعد ذلك ركنا فى الوضوء . . .

وتنظيف الرجلين أمر لابد منه فى صحة الصلاة.

وقد بين رسول الله ﷺ أن الرجل إذا أدخل قدميه طاهرتين فى خفيه أو جوربيه، فليس بضرورى أن يعيد غسلهما كلما أراد الوضوء، وبحسبه أن يمسح على ظاهرهما ـ فوق الحذاء أو الجورب ـ إشارة إلى الركن الذى لحقته الرخصة.

وهذا الذى صنعه الرسول ﷺ وأمر به ليس هوًى جَنح إليه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النجم: ٢، ٣] إنما هو إرشاد الله له، وهو عمل يتسق

مع قاعدة الإسلام الأولى فى السماحة والتيسير، وليس فيه أى تناقض مع تعاليم القرآن.

ونستطيع أن نقول: إنه ليست هناك سنة تعارض حكما قرآنيا ما، بل إنه من المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن الخاصة، أو قواعده العامة.

ثم إن الحديث الواحد لا نأخذه على حدة عند الاستدلال، بل يجب أن نأخذ جميع الأحاديث التى وردت فى موضوع واحد ثم نلحقها بما يؤيدها ويتصل بها من الكتاب الكريم، ولن نعدم هذه الصلة» ا. هـ.

لقد أطلت النقل هنا قصدا لأبين موقف الشيخ الغزالى المدنى والأساسى من السنة، وهو موقف العالم المسلم المتشبث بها، الغيور عليها، المدافع عنها، المهاجم لأعدائها، الحريص على حسن فهمها. أما الخلاف مع الشيخ فهو فى التفصيلات والأمثلة التطبيقية، وهذه لا ينبغى أن تعكر صفاء المبدأ المسلم، والقاعدة المقررة.

السنة حق:

ويزيد ذلك الشيخ إيضاحا فيقول تحت هذا العنوان (السنة حق):

«إذا صح أن رسول الله ﷺ أمر بشيء أو نهى عن شيء، فإن طاعته فيه واجبة، وهى من طاعة الله.

وما يجوز لمؤمن أن يستبيح لنفسه التجاوز عن أمر للرسول فيه حكم: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والمسلمون متفقون على اتباع السنة بوصفها المصدر الثانى للإسلام بعد القرآن الكريم، لكن السنن الواردة تتفاوت ثبوتا ودلالة تفاوتا لا محل هنا لذكره. وقد وضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيدة، يرجع إليها فى مظانها من شاء..

وللناقد البصير، أن يتكلم فى حديث ما من ناحيتى متنه وسنده، وأن يرده لأسباب علمية يبديها.

والمجال الفنى لهذا الموضوع رحب ممهد، خاصه العلماء الأقدمون وتركوا فيه آثارا ضخمة.

لكن المؤسف أن بعض القاصرين ـ ممن لا سهم له فى معرفة الإسلام ـ أخذ يهجم على السنَّة بحمق، ويردها جملة وتفصيلا .

وقد يسرع إلى تكذيب حديث يقال له، لا لشىء، إلا لأنه لم يرقه، أو لم يفقهه .

وتكذيب السنة على طول الخط احتجاجا بأن القرآن حوى كل شىء بدعة جسيمة الخطر ؛ فإن الله عز وجل ترك لرسوله السنن العملية يبينها ويوضحها . وقد ثبتت هذه بالتواتر الذى ثبت به القرآن، فكيف تجحد؟

بل كيف تجحد وحدها ويعترف بالقرآن؟

وكيف نصلى ونصوم ونحج ونزكى ونقيم الحدود، وهذه كلها ما أدركت تفاصيلها إلا من السنة؟

وإن إنكار المتواتر من السنن العملية خروج عن الإسلام . وإنكار المروى من سنن الآحاد ـ لمحض الهوى ـ عصيان مخوف العاقبة . . .

والواجب أن ندرس السنة دراسة حسنة، وأن نتنفع فى ديننا بما ضمت من حكم وآداب وعظات . وإن الولع بالتكذيب لا إنصاف فيه ولا رشد .

وقد تعقبتُ طائفة من منكرى السنن، فلم أر لدى أكثرهم شيئا يستحق الاحترام العلمى .

قالوا : إن السلف اهتموا بالأسانيد وحبسوا نشاطهم فى وزن رجالها، ولم يهتموا بالمتون، أو يصرفوا جهدا مذكورا فى تمحيصها . .

وهذا خطأ . فإن الاهتمام بالسند لم يقصد لذاته وإنما قصد منه الحكم على المتن نفسه .

ثم إن صحة الحديث لا تجىء من عدالة رواته فحسب، بل تجىء أيضا من انسجامه مع ما ثبت يقينا من حقائق الدين الأخرى ؛ فأى شذوذ فيه، أو علة قادحة يخرجه من نطاق الحديث الصحيح . .

على أن اتهام حديث ما بالبطلان مع وجود سند صحيح له، لا يجوز أن يدور مع الهوى، بل ينبغى أن يخضع لقواعد فنية محترمة .

هذا ما التزمه الأئمة الأولون، وما نرى نحن ضرورة التزامه .

ذكر بعضهم حديث : «الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام» .

فقال: إن الواقع يكذبه، وإن صححه البخارى.

ويظهر أنه فهم من «كل داء» سائر العلل التى يصاب الناس بها.

وهذا فهم باطل، ولو كان ذلك مراد الرسول ﷺ ما كان هناك موضع للأحاديث الكثيرة الأخرى التى تصف أدوية أخرى لعلل شتى.

والواقع أن «كل داء» لا تعنى إلا بعض أمراض البرد، فهى مثل قول القرآن الكريم فى وصف الريح التى أرسلت على «عاد»: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فـ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ هو ما عمرت به مساكن القبيلة الظالمة فحسب.

وهذا الحديث، لو أن مسلما مات دون أن يعلم به ما نقص إيمانه ذرة.

إن أبا بكر وعمر كليهما، لم يعلما بالحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ الذى قال فيه: «أمرت أن أقاتل الناس - يعنى وثنيى الجزيرة - حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

فإن الحديث الذى حفظاه ليس فيه: «إقام الصلاة وإيتاء الزكاة».

ولو علم عمر بهذا النص الزائد ما اعترض على أبى بكر فى قتاله مانعى الزكاة.

ولو علم به أبو بكر ما استدل على رأيه بالقياس والاستنباط.

ولكن فقه الشيخين فى الكتاب العزيز، وحسن استفادتهما مما يعلمان من سنة أغنى وكفى.. ولم يضرهما ما يجهلان من روايات أخرى.

بيد أن الطعن - هكذا خبط عشواء - فى الأسانيد والمتون كما يصنع البعض ليس القصد منه إهدار حديث بعينه، بل إهدار السنة كلها، ووضع الأحكام التى جاءت عن طريقها فى محل الريبة والازدراء.

وهذا - فوق أنه غمط للحقيقة المجردة - يعرِّض الإسلام كله للضياع.

إن دواوين السنة وثائق تاريخية من أحكم ما عرفت الدنيا.

ويمكننا أن نقول: إن الكتب المقدسة لدى بعض الأمم ما تزيد فى قيمتها التاريخية عن أحاديث دونها علماؤنا، وحكموا على طائفة منها بالضعف، وطائفة أخرى بالوضع!!

والسنة ـ لكثرة ما عرضت له من تفاصيل ـ تضمنت أحكاما كثيرة، والأحكام قيود توضع على تصرفات الناس، والقيد عدما يجيء فى مكانه الذى يناسبه ويلائمه، لا يكون هناك معنى للتبرم به والإنكار عليه.

إنما ينشأ الاعتراض من سوء استعمال هذه القيود لأنها ـ والحالة هذه ـ سوف توصد أبوابا يجب أن تفتح، وتضيق حدودا يجب أن تنفسح، وتحظر حركات يجب أن تأخذ مداها دون حرج.

وأكثر الظلم الذى وقع على السنة أصابها من أن حديثا من الأحاديث قدر له أن يعمل فى نطاق معين، فجاء بعض القاصرين وحرفه عن موضعه بالتعميم والإطلاق» انتهى(١).

إن الشيخ الغزالى ـ حفظه الله ـ لم ينكر مصدرية السنة للتشريع وللتربية والدعوة يوما ما، وما كان له أن ينكر، بل دافع عنها، وذاد عن حماها.

« وإنما ينكر أن تتناولها الأذهان الكليلة، فتردّ نهارها ليلا، كما ينكر أن يقل شغل الأمة بالقرآن الكريم، فتذهل بذلك عن الأصل الركين، والعماد المتين.

أما أن تتجه الهمم إلى كتاب الله، وتستعين على فهمه وإبلاغ هداياته وإنفاذ أحكامه بأحاديث رسول الله ﷺ، فذلك هو المنهج السديد».

تعليق على أحاديث الفتن:

انظر إلى تعليقه على «أحاديث الفتن» وما وقع فيها من سوء الفهم، حتى غدت من أسباب تقاعس المسلمين عن نصرة دينهم، والعمل لنهضة أمتهم، وإصلاح أحوالها، لما يوحى به سرد هذه الأحاديث من أن الإسلام أبدا فى إدبار، وأن الكفر فى إقبال، وأن الخير منهزم، والشر منتصر، وأن لا جدوى من محاولات الترميم والإصلاح، فنحن فى آخر الزمان.

وشيوع هذا الفهم السقيم خطر على كيان الأمة وعلى وجودها، وهو ضد سنن الكون، وضد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الأخرى. وكيف يقبل هذا فى دين يأمر

---

(١) ليس من الإسلام: ص ٢٩ ـ ٤٣

بالعمل للدنيا إلى آخر رمق فيها: «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»(1)؟!

فكيف يوئس الرسول الكريم أمته من العمل لدينهم، وهو يهيب بهم أن يعملوا لدنياهم إلى آخر لحظة؟! هذا مستحيل.

من أجل هذا يقاوم الغزالى تلك الأفهام الرديئة التى تحمل على القعود واليأس، وتخدر الأمة عن الجهاد والكفاح.

لنقرأ معا تلك الفقرات النيرة من كتابه: (قذائف الحق) يقول حفظه الله:

دين زاحف مهما كانت العوائق:

«كلما قرأت أبواب الفتن فى كتب السنّة شعرت بانزعاج وتشاؤم، وأحسست أن الذين أشرفوا على جمع هذه الأحاديث، قد أساءوا ـ من حيث لا يدرون ومن حيث لا يقصدون ـ إلى حاضر الإسلام ومستقبله!

لقد صوروا الدين وكأنه يقاتل فى معركة انسحاب، يخسر فيها على امتداد الزمن أكثر مما يربح!

ودونوا الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها القريبة، فظهرت وكأنها تغرى المسلمين بالاستسلام للشر، والقعود عن الجهاد، واليأس من ترجيح كفة الخير؛ لأن الظلام المقبل قدر لا مهرب منه.

وماذا يفعل المسلم المسكين، وهو يقرأ حديث أنس بن مالك الذى رواه البخارى عن الزبير بن عدى، قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا الذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»، سمعته من نبيكم ﷺ!!

وظاهر الحديث أن أمر المسلمين فى إدبار، وأن بناء الأمة كلها إلى انهيار، على اختلاف الليل والنهار!

---

(1) رواه عن أنس أحمد (٣/ ١٨٣، ١٨٤) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٧٩) والطيالسى (٢٠٦٨) والبزار مختصرا، وقال الهيثمى. «ورجاله ثقات أثبات» مجمع الزوائد (٤/ ٦٣)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى، حديث رقم (٦).

هذا مع أن الحديث يخالف أحاديث صحاحا كثيرة تحمل مبشرات بظهور الإسلام، واتساع دولته، وانتشار دعوته.

كما يخالف الأحداث التى وقعت فى العصر الأموى نفسه!

فقد جاء الوليد بن عبدالملك فمد رقعة الإسلام شرقا، حتى احتوت أقطارا من الصين، وامتدت رقعة الإسلام غربا، حتى شملت إسبانيا والبرتغال وجنوبى فرنسا.

ثم تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز فنسخ المظالم السابقة، وأشاع الرخاء، حتى عز على الأغنياء أن يجدوا الفقراء الذين يأخذون صدقاتهم!

ولقد أتى بعد أنس بن مالك عصر الفقهاء والمحدِّثين الذين أحيوا الثقافة الإسلامية، وخدموا الإسلام أروع وأجل خدمة، فكيف يقال: إن الرسالة الإسلامية الخاتمة كانت تنحدر من سيئ إلى أسوأ؟! هذا هراء.

الواقع أن أنسا - رضى الله عنه - كان يقصد بحديثه منع الخروج المسلح على الدولة بالطريقة التى شاعت فى عهده ومن بعده، فمزقت شمل الأمة، وألحقت بأهل الحق خسائر جسيمة، ولم تنل المبطلين بأذى يذكر.

وأنس بن مالك أشرف دينا من أن يمالئ الحجاج أو يقبل مظالمه، ولكنه أرحم بالأمة من أن يزج بأتقيائها وشجعانها فى مغامرات فردية تأتى عليهم، ويبقى الحجاج بعدها راسخا مكينا!

وتصبيره الناس حتى يلقوا ربهم - أى حتى ينتهوا هم - لا يعنى أن الظلم سوف يبقى إلى قيام الساعة، وأن الاستكانة للظلمة سنة ماضية إلى الأبد!

إن هذا الظاهر باطل يقينا، والقضية المحدودة التى أفتى فيها أنس لا يجوز أن تتحول إلى مبدأ قانونى يحكم الأجيال كلها.

لقد سلخ الإسلام من تاريخه المديد أربعة عشر قرنا، وسيبقى الإسلام على ظهر الأرض ما صلحت الأرض للحياة والبقاء، وما قضت حكمة الله أن يختبر سكانها بالخير والشر.

ويوم ينتهى الإسلام من هذه الدنيا فلن تكون هذه دنيا؛ لأن الشمس ستنطفئ، والنجوم ستنكدر، والحصاد الأخير سيطوى العالم أجمع!

فليخسأ الجبناء دعاة الهزيمة وليعلموا أن الله أبر بدينه وعباده مما يظنون .

لقد ذكر لى بعضهم حديث «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء»(١) ، وكأنه يفهم منه أن الإسلام سينكمش ويضعف ، وأن على من يسمع هذا الحديث أن يهادن الإثم ، ويداهن الجائرين ، ويستكين للأفول الذى لا محيص عنه .

وإيراد الحديث وفهمه على هذا النحو مرض شائع قديم .

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى صلاح الدين الأيوبى ما فكر فى استنقاذ بيت المقدس من الصليبيين القدامى !

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى سيف الدين قطز ما نهض إلى دحر التتار فى «عين جالوت» !

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى زعماء الفكر الإسلامى فى عصرنا الحاضر ، ابتداء من جمال الدين الأفغانى إلى الشهداء والأحياء من حملة اللواء السامق ، ما فكروا أن يخُطوا حرفا ، أو يكتبوا سطرا !

وقلت فى نفسى : أيكون الإسلام غريبا وأتباعه الذين ينتسبون إليه يبلغون وفق الإحصاءات الأخيرة ثمانمائة مليون نفس ؟ !(٢) .

يا للخذلان والعار !

الواقع أن هذا الحديث وأشباهه يشير إلى الأزمات التى سوف يواجهها الحق فى مسيرته الطويلة ، فإن الباطل لن تلين بسهولة قناته ، بل ربما وصل فى جرأته على الإيمان أن تقتحم حدوده ويهدد حقيقته ، ويحاول الإجهاز عليه !

وعندما تنجلى الظلماء عن رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، يقاومون الضلال بجلد ، ولا يستوحشون من جو الفتنة الذى يعيشون فيه ، ولا يتخاذلون للغربة الروحية والفكرية التى يعانونها ، ولا يزالون يؤدون ما عليهم لله حتى تنقشع الغمة ، ويخرج الإسلام من محنته مكتمل الصفحة ، بل لعله يستأنف زحفه الطهور فيضم إلى أرضه أرضا وإلى رجاله رجالا .

---

(١) رواه أحمد ومسلم وغيرهما .

(٢) تقدر الإحصاءات الحديثة عدد المسلمين اليوم بنحو مليار وثلث من البشر (١٣٠٠ مليون مسلم) .

وذلك ما وقع خلال أعصار مضت، وذلك ما سيقع خلال أعصار تجيء، وهذا ما ينطق به حديث الغربة الآنف، فقد جاء فى بعض رواياته:

«طوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى»(١). فليست الغربة موقفا سلبيا عاجزا، إنها جهاد قائم دائم حتى تتغير الظروف الرديئة، ويلقى الدين حظوظا أفضل.

وليس الغرباء هم التافهين من مسلمى زماننا، بل هم الرجال الذين رفضوا الهزائم النازلة، وتوكلوا على الله فى مدافعتها حتى تلاشت!

والفتن التى لا شك فى وقوعها والتى طال تحذير الإسلام منها: فتنة التهارش على الحكم، والتقاتل على الإمارة، ومحاولة الاستيلاء على السلطة بأى ثمن، وما استتبعه ذلك من إهدار للحقوق والحدود، وعدوان على الأموال والأعراض.. وهذا المرض كان من لوازم الطبيعة الجاهلية التى عاشت على العصبية العمياء..

والعرب فى جاهليتهم ألفوا هذا الخصام والتعادى، فهم كما قال دريد بن الصمة:

يُغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وما رواه أحمد عن تميم الدارى (٢) يؤيده ما رواه عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل..»(٣).

وكذلك ما رواه عن قبيصة بن مسعود: صلى هذا الحى من محارب ـ اسم قبيلة ـ الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها ـ أمراءها ـ فى النار إلا من اتقى وأدى الأمانة».

---

(١) راجع فى روايات الحديث كلها كتاب «غربة الإسلام» لابن رجب الحنبلى.

(٢) يريد حديث: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر أو وبر إلا أدخله الله هذا الإسلام» رواه أحمد فى مسنده (٤: ١٠٣)، وقال الهيثمى (٦/ ١٤) «رجاله رجال الصحيح»، ورواه الحاكم (٤/ ٤٣٠) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٣) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، كما قال الهيثمى (٦/ ١٤) ورواه الحاكم وصححه على شرطهما أيضا. (٤/ ٤٣٠).

ويقول صاحب المنار في نهاية تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ.. ﴾ [الأنعام: ٦٥].

«اعلم أن الاستدلال بما ورد من أخبار وآثار في تفسير هذه الآية لا يدل هو ولا غيره من أحاديث الفتن على أن الأمة الإسلامية قد قضى عليها بدوام ما هي عليه الآن من الضعف والجهل كما يزعم الجاهلون بسنن الله، اليائسون من روح الله، بل توجد نصوص أخرى تدل على أن لجوادها نهضة من هذه الكبوة، وأن لسهمها قرطة بعد هذه النبوة، كالآية الناطقة باستخلافهم في الأرض - سورة النور - فإن عمومها لم يتم بعد، وكحديث: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق» رواه أحمد.

والشطر الأول منه لم يتحقق بعد، ويؤيده ويوضح معناه ما صح عن مسلم من أن ساحة المدينة المنورة سوف تبلغ الموضع الذي يقال له أهاب، أي أن مساحتها ستكون عدة أميال، فكونوا يا قوم من المبشرين لا من المنفرين، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٨]».

وخطأ كثير من الشراح جاء من فهمهم أن ترك الشر هو غاية التدين، وأن اعتزال الفتن هو آية الإيمان.

وهذا عجز سببه ضعف الهمة وسقوط الإرادة.

وإني لأذكر فيه قول المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

أجل، فإن ترك الصغائر غير بلوغ الأمجاد، وتجنب التوافه والرذائل غير إدراك العظائم وتسنم الهام، والتلميذ الذي لا يسقط شيء والذي يحرز الجوائز شيء آخر!

والرسول الكريم عندما يأمرنا باعتزال الفتن لا يُنهي واجبنا عند هذا الحد.. سوف يبقى بعد ذلك الاعتزال الواجب بناء الأمة على الحق، ومد شعاعاته طوالا وعرضا حتى تنسخ كل ظلمة» (١).

---

(١) قذائف الحق: ص ٢٠٨ - ٢١١.

خلاصة الموقف من السنة:

والخلاصة من كل ما ذكرناه هنا تبدو للمنصف فيما يلى :

١ ـ أن الغزالى يؤمن إيمانا لا ريب فيه بأن السنة هى المصدر الثانى للإسلام، ولا يشك فى ذلك من قرأ كتبه منذ «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» إلى آخر كتبه .

٢ ـ أن الغزالى جرد قلمه للدفاع عن حجية السنة، فى مواجهة المشككين فيها والمجترئين عليها، كما تجلى ذلك فى أكثر من كتاب له

٣ ـ أن الغزالى يحمل قلبا يفيض حبا لرسول الله ﷺ ، ويراه النموذج الذى تجسد فيه الكمال البشرى، وتجمعت فيه مواريث النبوات، وفضائل النبيين الذين هداهم الله فاقتدى خاتمهم بهداهم .

٤ ـ أن كتب الغزالى ومقالاته وخطبه ومحاضراته، منذ أمسك بالقلم ليكتب، ومنذ ارتقى المنبر ليخطب، مملوءة بالاستشهاد بالحديث الشريف والاستناد إلى السنة القولية والفعلية والتقريرية .

٥ ـ أن الغزالى إذا رد بضعة أحاديث ـ صحت عند غيره ـ لاعتبارات دينية وعلمية، وعقلية ثبتت عنده ـ لا لهوى عنده، ولا لاحتقار للوحى والرسالة والرسول ـ فهذا لا يسقط اعتباره، فما من إمام من الأئمة إلا رد من الأحاديث ما ثبت عند الآخرين، لاعتبارات رآها، وإن رفضها غيره .

وهذه الحقائق كلها بينة واضحة وضوح الشمس، لا يجحدها إلا أعمى أو مكابر .

وهبنى قلت: هذا الصبح ليل أيعمَى العالمون عن الضياء؟!

يقول الشيخ حفظه الله فى مقدمة كتابه : (السنة النبوية) فى طبعته السادسة :

«وقد شتمنى بعض الناس، فوجدت الإعراض أولى، ومن من الأنبياء لم يشتم؟ فليتأس بهم أتباعهم فى الصبر والتجاوز .

لكن الشتم الذى أوجعنى : اتهامى بأنى أخاصم السنة النبوية !

وأنا أعلن أن الله ورسوله أحب إلىّ مما سواهما، وأن إخلاصى للإسلام يتجدد ولا يتبدد، وأنه أولى بأولئك المتحدثين أن يلزموا الفقه والأدب . فغايتى تنقية السنة مما قد يشوبها» .

الفصل الثامن

الغزالى..والفقه

الغزالى .. والفقه

الغزالى فقيه النفس:

لم يشتغل الغزالى «بفقه الفروع»، ولم يؤلف كتابا مما يدخله الناس فى اختصاص «الفقه». وقد كتب فى جوانب الثقافة الإسلامية المتنوعة، من العقيدة، إلى الأخلاق، إلى السيرة، إلى التفسير، ولكنه لم يؤلف كتابا خالصا فى الفقه أو أصوله.

وفى «ملتقى الفكر الإسلامى» بالجزائر الذى خصص لـ «الاجتهاد» قال عن نفسه: إننى ليس لى عقلية الفقيه، أخى فلان (يقصدنى) هو الذى يملك هذه العقلية.

وقديما كان يحيل مسائل الفقه على أخيه الشيخ سيد سابق.

وهذا الكلام قد يوهم أن الشيخ مبتوت الصلة بالفقه. وهذا غير صحيح، فلا ينبغى الإطلاق فى هذا الأمر.

إنه صحيح إذا حمل على معنى الاشتغال بالمسائل الجزئية والفروع والتفصيلات الفقهية، التى تحتاج إلى بحث فى بطون الكتب والشروح والحواشى، وتتبع الأقوال والمسائل والأدلة، إلى غير ذلك.

أما إذا أريد بالفقه: فهم مقاصد الشريعة وكلياتها، ورد الجزئيات إليها، وإبراز القضايا المهمة من خلال الأدلة القرآنية والنبوية، فللشيخ هنا فقه يذكر ويقدر. وهو الذى يعبر عنه فى تراثنا بـ (فقه النفس).

وهو إنما دخل إلى الفقه من باب الدعوة، فهو ـ لكى يبين وجهة الإسلام وعظمته وعدله وسموّه ـ لزمه أن يتحدث عن قضايا كثيرة، تتعلق بالفقه والتشريع.

ولعل هذا الجانب هو الذى جر عليه سخط كثير من الجامدين والمتعصبين، مثل آرائه حول المرأة والغناء والموسيقى وإعفاء اللحى، وتقصير الثياب، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب.

وفى السنوات الأخيرة - التى قضاها مستشارا ورئيسا للمجلس العلمى بجامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية بالجزائر - كان يستفتى فى أمور كثيرة كلية وجزئية، فيجيب عنها، ما أتيح له الوقت، فيقنع ويشبع.

الغزالى والفقه الاقتصادى

بيد أنى أود أن أنبه هنا على أن اهتمام الشيخ بالفقه - بالمعنى الأعمق والأوسع - بدأ منذ فجر تأليفه، كما يتضح ذلك لمن قرأ كتاباته الأولى الرائدة فى الجوانب المتعلقة بالاقتصاد الإسلامى، فهو ينادى بتحديد «الملكيات الكبيرة»، ويدلل على ذلك من قواعد الفقه ومقاصد الشرع.

ويناقش «المتحدث الرسمى للإسلام» - المفتى فى ذلك الوقت - فى دفاعه عن الملكيات الكبيرة فى مصر، ومدى شرعيتها، وكيف اكتسبت، ثم كيف نمت واتسعت. ومن قرأ مناقشة الشيخ هنا بتأمل وإنصاف، وجدها تدل على أصالة فقهية، وملكة فطرية، صقلتها الدراسة الأزهرية، مع الاستعانة على إنضاج الفتوى بقراءة التاريخ، واستقراء الواقع. فالمفتى الحق هو الذى يزاوج بين الواجب والواقع، ولا يتقوقع على الأقوال النظرية، معزولا عن الناس والحياة.

وفى رأيه أن فقه العبادات قد اتسع واستبحر أكثر مما يلزم، والقليل منه يكفى. ولفت النظر إلى العناية بالفقه الدستورى والسياسى والاقتصادى والمدنى، مما يحتاج إليه المجتمع المعاصر.

وهو أميل إلى مدرسة الرأى منه إلى مدرسة الأثر، وكثيرا ما أبدى إعجابه بمذهب أبى حنيفة فى عدم إثبات الفرضية أو التحريم إلا بنص لا شبهة فيه، وبمذهب مالك فى الاحتجاج بالمصلحة المرسلة، وتقديم عمل المدينة على أحاديث الآحاد.

ولا بأس بأن نعرض هنا نموذجا من فقهه (القديم) فى الجانب الاقتصادى، وإن كان يغلب عليه حماسة الشباب، وثورته على الظلم الاجتماعى. وربما عدل الشيخ بعد ذلك عن بعض هذه الآراء، أو ضبطها وقيدها، ولكن الذى يهمنا منها دلالتها العامة على «فقه النفس» عنده.

ومن أبرز النماذج هنا: حديثه عن الملكية: هل تقيد أو لا؟

فلنقرأ ما يقول الشيخ هنا فى كتابه : (الإسلام المفترى عليه) .

مبدأ الملكية بين التقييد والإطلاق:

لا جدال فى أن للإنسان حق التملك ، اعترفت بذلك رسالات السماء وقوانين الأرض جميعا .

وحب التملك غريزة ، يعُدها علماء النفس من قواعد السلوك البشرى ، كسائر الغرائز الأخرى المعترف بها ، من جنسية واجتماعية وبدنية .

وغرائز الإنسان لا تُستأصل استئصالا ، وإنما تحوَّر آثارها العملية ، فى الشكل الذى يرضاه الشرع والقانون .

ومن ثم فقد أباح الدين للإنسان أن يتملك ، ولكن عن طرق معينة لا يجوز تخطيها .

وأباحت النظم الوضعية للمرء أن يتملك ؛ فتلك غريزته التى لا يمكن وقفها البتة .

ثم اختلف كيف يملك؟ وكم؟

فقالت الشيوعية : لا يملك إلا دخله الذى يستحقه من عمله ، أو ما يدخره من هذا الدخل المحدود ، أو ما يستهلكه فى اقتناء حاجاته الشخصية . ورفضت أنواع التملك الأخرى .

أما الرأسمالية ، فقد تركت حرية التملك مطلقة ، ولم تضع إلا قيودا خفيفة على طرائق الكسب ، ولم تضع حدا معينا للثروات المكتسبة ، ولم تعرقل تداولها بالمواريث ، كما فعلت الشيوعية .

والإسلام يعترف بمبدأ الملكية ، ويضعه تحت الوصاية الدقيقة من تعاليمه المقررة ، فى قواعده العامة ونصوصه الخاصة .

فهو يطلقه إن كانت المصلحة العامة تقضى بإطلاقه . ويقيده إن كان الأمر على العكس .

وفى كلتا الحالتين ، فالإسلام واضح فى رفضه لكل تملك باطل . وهو يسأل كل مالك : من أين لك هذا؟ ليعرف أهو حق فيبقيه له! أم لا ، فيسلبه إياه؟

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

ولو طبق مبدأ «من أين لك هذا» على الأملاك الكبيرة القائمة فى ربوع الشرق، لأصبح أكثر أغنياء الشرق فقراء .

فأصول هذه الأموال منهوب يحرم الأكل منه، وتحرم الصلة فيه كما قال الفقهاء .

واستثمار هذه الأملاك مطعون فيه؛ لقيامه على سرقة الجهود، وظلم الأجراء .

والملكيات التى تكونت على أساسه، نتجت ـ فى الأغلب ـ من بين ما يستحقه العمال من أجور عدلا، وبين ما يصل إلى أيديهم فعلا .

ومذهب الإمام مالك، يقدر أجر العامل بنصف الربح[1]. فكيف إذا كان ما يأخذه العمال، لا يصل إلى عشر الربح، بل إلى ١٪؟

على أن مبدأ الملكية الذى أباحه الإسلام، يخضع للسلطة التى منحها الإسلام للدولة، فى تقييد المباحات حسب المصلحة .

فإن الإسلام أعطى الحاكم حق التدخل فى بعض المباحات المشروعة بالحظر، إذا كان من وراء ذلك غرض سليم .

ألا ترى الحكومة تحدد مساحة ما يزرع قطنا أو قمحا، وتفرض العقوبات على من يخالف ذلك، ولا يرى الدين فى ذلك بأسا، ولم يبد علماء الدين احتجاجا؛ مع أن زراعة هذه الأصناف مباحة كما وكيفا لمن يشاء؟ إن ذلك راجع إلى المبدأ الفقهى المقرر، الذى يبيح للدولة (إسلاميا) أن تقيد حرية الزراعة، وأن تقيد حرية التملك؛ ما دام هناك من الدواعى الاجتماعية ما يحتم ذلك .

ويرى فريق من الناس، أن هذه الأمور من شئون الدنيا المحضة .

فلنا أن نتصرف فيها على النحو الذى نشاء، دون انتظار للفتوى التى يصدرها الدين!

وقد وكل إلينا الدين هذا الحق، فلا معنى للتخلى عنه . ويستدلون بالحديث الكريم : «أنتم أعلم بشئون دنياكم»[2] .

---

(١) لعله يقصد (العامل) فى القراض(المضاربة) بمعنى: أن رب المال له نصف الربح، والعامل بخبرته وجهده له النصف .

(٢) رواه مسلم عن عائشة وأنس .

وهذه المحاولة لإخراج المسألة من الدائرة التى يحكم فيها الدين، لا فائدة منها ولا مسوغ لها.

ولعل الدافع لها هو الخوف من أن تقف أحكام الدين، حجر عثرة فى طريق التقدم الاجتماعى، وسير الحضارة إلى الأمام. وهذا التخوف لا موضع له أبدا بالنسبة إلى الإسلام. ففى قواعد هذا الدين من السعة والمرونة، ما يشفى ويريح.

ولو توجه العقلاء والمصلحون إلى الإسلام، يحكِّمونه فيما شجر بينهم، لوصلوا إلى أهدافهم فى يسر، ولمزقوا ما على صفحة الحقيقة من حجاب، وما أخفى وجهها الوضاح من نقاب.

فإن الدين فى جميع الأحوال، ضرورة اجتماعية، وإن كان رجاله فى أغلب الأحوال، آفة اجتماعية.

وإليك طائفة من القواعد، التى تأسس عليها الفقه الإسلامى، واستخلصت من الكتاب والسنة ولم يثر حولها نزاع.

وسنعرض مبدأ الملكية على هذه القواعد لتقول فيه كلمتها الحاسمة:

١ ـ رفع الضرر.

٢ ـ منع الحرج.

٣ ـ سد الذرائع.

٤ ـ دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح.

٥ ـ الضرورات تبيح المحظورات.

٦ ـ يرتكب أخف الضررين.

٧ ـ ما قارب الشىء يعطى حكمه.

٨ ـ للأكثر حكم الكل.

٩ ـ ما أدى إلى الحرام، فهو حرام.

١٠ ـ مالا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

١١ ـ ما رآه المسلمون حسنا، فهو عند الله حسن.. إلخ، إلخ.

ولو انفردت قاعدة من هذه القواعد بالحكم على مبدأ الملكية وقررت تضييق الخناق عليه، لكفى. فكيف وهى كلها تؤدى فى هذه الأيام، إلى محاصرة حق التملك، وإحاطته بشتى القيود؟

خذ مثلا قاعدة «منع الضرر» فهى تعطى الدولة الحق فى مصادرة أى تصرف يضير كتلة الشعب، ويمس سلامة الجماعة، لا عن طريق تحريم المباح فحسب، بل عن طريق التصرف - بالتأويل - فى بعض النصوص الواردة.

وأقرب مشاهَد لنا قانون «التسعير» الذى صدر فى السنين الأخيرة، ورحب به العلماء أيما ترحيب.

فهذا القانون مناف فى تشريعه، لما جاء فى السنة من (الامتناع عن تسعير البضائع).

فعن أنس رضى الله عنه: أن الناس قالوا: يا رسول الله، غلا السعر، فسعر لنا؟ فقال: «إن الله هو المسعر، القابض الباسط الرازق، وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى، وليس أحد يطالبنى بمظلمة، فى دم ولا مال» (١).

ومع ورود هذا الحديث وغيره، لم يقم اعتراض من أحد، لما رأت الدولة أن تسعر البضائع؛ لأن الأضرار الفادحة، من ترك الأسعار حرة، توجب التدخل فى أمرها حتما.

وإطلاق الملكية أو تقييدها، لا يزيد فى شأنه - إن لم يقل - عن إطلاق الأسعار أو تقييدها.

ورفع مستوى المعيشة هدف تدندن من حوله الحكومات، تريد أن يُنَعَّم الجمهور بأكبر قسط مستطاع من طيبات الحياة، وأن يتاح للأفراد كافة أخذ حقهم من أنعم الله التى أخرج للناس.

فهذه المجهودات المدنية المبذولة فى هذه السبيل، ليست إلا ترجمة صحيحة لقاعدة «رفع الحرج» التى اعتمدها الإسلام، وبشر بها فى تعاليمه.

وإذا كان رفع الحرج لا يتم إلا برفع أغلال الرأسمالية القائمة على إطلاق التملك والتمليك، فمن الذى يفتى بإبقاء المسلمين فى سجنها الضيق الظلوم؟

وقد ذكر القرآن أن ثمة طائفة من الناس، سماهم «السادة الكبراء» إذا ظهروا فى قرية

---

(١) حرية التجارة التى عناها الحديث تقرر فى عهود السلم والاستقرار فحسب (الغزالى).

أفسدوها، وإذا قاموا على سبيل أبهموها وأضلوها، حتى يصيح الشاردون خلفهم يوم القيامة:

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٦٧ ، ٦٨].

فإذا كان ترك مبدأ الملكية طليقا، سيفضى حتما إلى تكون هذه الطائفة؛ فإن الإسلام يوجب - سدا للذريعة - ألا يترك.

وإذا كان بعض كبار الملاك صالحا منصفا، يؤدى واجباته على أساس أن الملكية وظيفة اجتماعية؛ فإن أكثرهم على العكس، والحكم يتبع الكثرة لا القلة.

والمرجع فى ذلك أحوال العصر، وعبر التاريخ.

نستطيع أن نعرض مبدأ الملكية، على بقية القواعد التى ذكرناها آنفا. وسنرى أنها لا تسمح - البتة - ببقائه، على الأسلوب الذى يظهر به الآن.

أما حدود التقييد، فهى الأخرى متروكة لميزان المصلحة العامة، يرتفع بها وينخفض. . كما تريد الشعوب . ا.هـ.

أهذا كلام رجل بعيد عن الفقه؟ كلا. إنه كلام رجل يستلهم القرآن، ويقتبس من مشكاة النبوة، ما يضىء الطريق لفقه عصرى مستنير.

وهو - إلى جانب ذلك - بصير بالواقع والتاريخ مواكب للزمن، متفتح العين والعقل على ما يجرى حوله. ولذلك كانت فتواه عن الملكيات فى مصر مبنية على دراسة واقعية للملكية وتاريخها فى مصر.

الزكاة والضريبة:

ويتحدث الشيخ عن (الزكاة والضريبة) فى ضوء الأصول الفقهية، فيقول:

«للمصالح المرسلة وأنواع القياس منزلة كبرى فى الفقه الإسلامى؛ فهى مرجع وثيق لكبار الأئمة، يستنبطون منه شتى الأحكام، ويواجهون به صور الحياة المتجددة على مر الأيام. وإلى هذه الأصول التشريعية أمر عمر بالقصاص من جماعة قتلوا واحداً فقتلهم جميعًا، وإليها كذلك لم يعتبر أرض فارس غنيمة تقسم أخماسا على الفاتحين، فأبقى

الأرض لأهلها وضرب عليها الخراج وعليهم الجزية. وإليها أيضا أشار عليّ بجعل حد الخمر ثمانين جلدة، فإن من سكر هذى، ومن هذى افترى، والأمثلة كثيرة، وليس هنا موضع سردها. . .

زكاة المال وزكاة الدخل:

وقد جدت فى هذا العصر مشكلات مالية، لا يجوز أن نقف أمامها مكتوفى الأيدى، كما لا ينبغى أن نتراخى فى وضع حلولها، حتى لا يضطرب الناس فى أمر دينهم. من ذلك نظام الزكاة. فالزكاة ركن من أركان الإسلام الأولى، ومن دعائم أوضاعه الاقتصادية التى يكفر من جحدها ويحارب مع المرتدين من منعها. وأنصبة الزكاة فى صنوف المال حددها الدين تحديدا يُعَدّ نصا فى أكثر الأحوال. ونريد أن نَعُدّه قياسا فيما سنورده من أمثال ونظائر.

ولبيان ذلك نقول: إن الإسلام أوجب إخراج ربع العشر من رأس المال الذى يبلغ مائتى درهم فما فوق. والزكاة فى هذه الصورة معتبرة برأس المال فقط زاد أو نقص أو بقى على حاله، ما دام قد مر عليه العام.

وقد فرض الإسلام كذلك زكاة فى الزروع والثمار، جعلها العشر أو نصف العشر.

والزكاة فى هذه الصورة قد اعتبرت على أساس الدخل الناتج، مر عليه العام أو لم يمر، ولا عبرة فيها برأس المال الْمُغِلّ، وهو الأرض المزروعة قلت قيمتها أو عظمت.

ومن هنا نستطيع الحكم بأن قاعدة فرض الزكاة فى الإسلام قد تكون رأس المال، وقد تكون مقدار الدخل، ونخلص من هذا إلى أن من له دخل لا يقل عن دخل الفلاح الذى تجب عليه الزكاة، يجب أن يخرج زكاة مساوية، ولا عبرة البتة برأس المال، ولا بما يتبعه من شروط؛ فالطبيب والمحامى والمهندس والصانع وطوائف المحترفين والموظفين وأشباههم تجب عليهم زكاة، ولابد أن تخرج من دخلهم الكبير، ولنا على ذلك دليلان:

الأول: عموم النص فى قول القرآن الكريم: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ولا شك فى أن ربح الطبقات الآنفة كسب طيب يجب الإنفاق منه، وبهذا الإنفاق الواجب يدخلون فى عداد المؤمنين، الذين ذكر القرآن أوصافهم: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣].

والدليل الثانى: أن الإسلام لا يتصور فى حقه أن يفرض الزكاة على فلاح يملك خمسة أفدنة، ويترك صاحب عمارة تدر عليه محصول خمسين فدانًا، أو يترك طبيبا يكتسب من عيادته فى اليوم الواحد ما يكسبه الفلاح فى عام طويل من أرض إذا أغلت بضعة أرادب من القمح ضربت عليها الزكاة يوم الحصاد! . .

لابد إذن من تقدير زكاة على أولئك جميعا، وما دامت العلة المشتركة التى يناط بها الحكم موجودة فى الطرفين، فلا ينبغى المراء فى إمضاء هذا القياس وقبول نتائجه.

وقد يقال: كيف نقدر هذه الزكاة؟ وعلى أى نسبة تكون؟

والجواب سهل. فقد ردد الإسلام زكاة الثمار بين العشر ونصف العشر على قدر عناء الزارع فى رى أرضه، فلتكن زكاة كل دخل على قدر عناء صاحبه فى عمله، ومن الممكن إيضاح التفاصيل وتفريع المسائل وتحديد القيم بعدما نقر هذا الأصل الخطير، والأمر لا يستقل به تفكير واحد، بل يحتاج إلى تعاون العلماء والباحثين»[(١)] ا. هـ.

هذا هو فقه الشيخ، قد تأخذ به وقد لا تأخذ، ولكن المهم هنا أنه يدل على نظر فقهى أصيل[(٢)].

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية: ص ٩٢ ـ ٩٤.

(٢) نقلنا رأى الشيخ هذا فى كتابنا: (فقه الزكاة)، ولكنا أخذنا بما هو أقرب منه مأخذا، وهو تزكية (المال المستفاد) عند قبضه، كما هو مذهب ابن مسعود وابن عباس ومعاوية وعمر بن عبدالعزيز وعدد من أئمة السلف.

فقه الغزالى وقضايا المرأة

ومن أبرز القضايا الفقهية التى أثارها الغزالى، وجرّت عليه كثيرا من القيل والقال: قضايا المرأة وفقهه فيها، واختلاف بعض الناس معه فيها. وخصوصا إخواننا السلفيين.

ولا بأس فى أن يختلف الناس فى هذه القضايا ما بين مشدد وميسر، فقد عرف تراثنا قديما شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، رضى الله عن الجميع.

ولكن الذى يتأمل هذه القضايا الخلافية ببصيرة وإنصاف، يرى أن منطق الشيخ أرشد من منطق مخالفيه، وأن أدلته أقوى من أدلتهم، وأن رأيه أدنى إلى تحقيق مقاصد الشرع، ومصالح الخلق، ومراعاة طبيعة العصر. اقرأ ما كتبه فى الرد على القائلين بوجوب النقاب تجد ذلك واضحا، يقول الشيخ:

إن هذا النوع من المتحدثين عن الإسلام يقف من مسيرة الإسلام، ويصد عن سبيل الله. وقد عرفت أنهم يقلدون مذهب ابن حنبل رضى الله عنه، وأحمد بن حنبل برىء من هذا المسلك، وهو لا يقول: إن وجه المرأة عورة، ذكر ذلك (المغنى) لابن قدامة، وكذلك رأى أئمة المذاهب المتبوعة، أبو حنيفة ومالك. . .

قال ابن قدامة (ص٤٣١) من الجزء الأول: قال مالك والأوزاعى والشافعى: «جميع المرأة عورة إلا وجهها وكفيها، وما سوى ذلك يجب ستره فى الصلاة؛ لأن ابن عباس قال فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣١] قال: الوجه والكفين، ولأن النبى نهى المرأة المحرمة عن لبس القفازين والنقاب، ولو كان الوجه والكفان عورة لما حرم سترهما، ولأن الحاجة تدعو إلى كشف الوجه للبيع والشراء، والكفين للأخذ والعطاء، وقال بعض أصحابنا: المرأة كلها عورة؛ لأنه قد روى فى حديث عن النبى ﷺ: «المرأة عورة». ولكن رخص لها فى كشف وجهها وكفيها لما فى تغطيته من المشقة».

إلى أن قال (ص ٤٣٢): ويكره أن تتنقب المرأة وهى تصلى. . .

وأجمعوا على أن المرأة، تكشف وجهها فى الصلاة والإحرام. نقول:

وذلك كتحريم تغطية الرأس على الرجال عند الإحرام، والرأس ليس بعورة بالنسبة لهم، وإلا ما وجب كشفه، وكذلك الوجه والكفان بالنسبة إلى المرأة، ونحن نعلم أن هناك متطيرين يرون أظافرها عورة، وهؤلاء لا وزن لا لرأيهم ولا لروايتهم.

وجاء فى الجزء السابع من« المغنى» و«الشرح الكبير» مزيد من الإيضاح لهذه القضية.

إذا أراد امرؤ الزواج فخطب إحدى النساء فماذا يفعل ليستريح إلى الزواج منها:

يقول الحنابلة: يكفيه ما يرى عادة، ولا ينبغى له أكثر من ذلك. قال صاحب المغنى:

«لا خلاف بين أهل العلم فى إباحة النظر إلى وجهها، وذلك لأنه ليس بعورة، وهو مجمع المحاسن وموضع النظر، ولا يباح له النظر إلى ما لا يظهر عادة».

وقد رويت أقوال أخرى فيما يرى سوى الوجه والكفين لا مكان لذكرها هنا.

قال صاحب المغنى: «وللشاهد النظر إلى وجه المشهود عليها لتكون الشهادة واقعة على عينها. قال أحمد: لا يشهد على امرأة إلا أن يكون قد عرفها بعينها، وإن عامل امرأة فى بيع أو إجارة فله النظر إلى وجهها ليعلمها بعينها فيرجع إليها بالدرك».

نقول: وأدب الإسلام العام هو غض النظر، فلا يجوز التفرس والحملقة، وإنما أباح الحنابلة النظر فيما ذكرنا لطبيعة التعامل والتقاضى، وقد نقل ابن قدامة عن القاضى أبى يعلى أنه يحرم عليه النظر إلى ما عدا الوجه لأنه عورة؛ أى ما عدا الوجه..

قال صاحب المغنى: «فأما نظر المرأة إلى الرجل ففيه روايتان: إحداهما؛ لها النظر إلى ما ليس بعورة، والأخرى؛ لا يجوز لها النظر من الرجل إلا إلى مثل ما ينظر إليه منها».

نقول: يعنى الوجه والكفين، وقد رد ابن قدامة حديث: «أفعمياوان أنتما»، وهو حديث مرفوض عند جمهرة العلماء، بل مخالف لما صح بالنسبة إلى البيت النبوى الكريم، وبالنسبة إلى جمهور الأمة.

فأما بالنسبة إلى البيت النبوى فقد قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر الحبشة يلعبون فى المسجد. متفق عليه. وأما بالنسبة إلى جمهور الأمة فقد قال الرسول ﷺ لفاطمة بنت قيس: «اعتدّى فى بيت ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك فلا يراك» متفق عليه أيضا.

إنه غريب ألا يعرف الحنابلة مذهبهم، أليس الجهل عيبا؟ وقد يقولون: نحن نعرف المذهب ولكنا نرى الميل إلى وجهة نظر أخرى! نقول: ليكن لكم ذلك، على ألا تعيبوا من يردد فقه إمامكم ويأخذ به، فليس ابن حنبل متهما فى نصحه للأمة وإخلاصه للدين. فكيف إذا كان فقهه فى هذه القضية فقه جمهرة العلماء؟!

فقه السنة لا يلزم، وفقه المذاهب لا يلزم، إذن ما الذى يلزم؟ تفكير المتشائمين وهواة جمع التوافه؟![1].

فى دائرة النص والإجماع:

قد توافق الشيخ الغزالى فيما ذهب إليه من آراء فقهية، وقد تخالفه، فهذا من حقك. فهو لم يزعم لنفسه العصمة فيما اجتهد فيه. ولكن ليس من حقك أن تتهمه فى دينه لمجرد أنه خالف رأيك، أو خالف رأى الجمهور الأعظم من الفقهاء. فكم من إمام انفرد عن سائر الأمة بأقوال لم يقلها غيره من أئمة المذاهب المتبوعة. وكثرا ما تقرأ هذه العبارة فى كتب الحنابلة: وهذا من (مفردات المذهب). وقد نظمت هذه المفردات فى كتاب خاص.

وقد تتبعت ما قاله الشيخ، فلم أره خرج على نص مقطوع به، بل ولا نص مجمع على صحة ثبوته، وصراحة دلالته.

وكذلك لم أره خرج على إجماع متيقن. إنما ينقد بأنه خرج على رأى الجمهور، وبهذا اتهم شيخ الإسلام ابن تيمية من قبل، وحوكم على ذلك وظلم وسجن، ومات فى سجنه. بل اتهم صراحة بالخروج على الإجماع. هذا مع أن الشيخ الغزالى أعلن فى كتبه مرارا: أنه يكره الشذوذ والخروج عن الإجماع، ويحب أن يبقى مع السواد الأعظم للأمة.

فهم الشيخ لحديث: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»:

لقد قالوا: إنه خرج على النص فى قضية تولى المرأة الوظائف العامة. وهذا معارض للحديث الذى رواه البخارى عن أبى بكرة «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

---

(١) انظر: كتاب: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر: ص ١٦١ - ١٦٤، وانظر فى قضية النقاب أيضا للشيخ: السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ط سادسة. وانظر: كتابنا: فتاوى معاصرة: جـ٢ فتوى: هل النقاب بدعة، وفتوى: هل النقاب واجب؟ وانظر: كتاب صديقنا الأستاذ عبدالحليم أبو شقة: تحرير المرأة فى عصر الرسالة: جـ٣: ملابس المرأة وزينتها.

وأقول: إن الشيخ هنا لم يردّ النص، وإنما أوله بأنه ورد فى مناسبة معروفة، وفى سياق خاص، فلا ينبغى أن يعدى به عن موضعه.

ولا يجوز إغفال أسباب ورود الحديث وسياقاتها الخاصة، وتعميم دلالاتها بصفة مطلقة، فهذا قد يؤدى إلى عكس ما قصده الشارع.

وعلماء الأصول قد اختلفوا فى قضية: هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟ ورجح الجمهور أن العبرة بعموم اللفظ.

ونحن مع الجمهور فى ذلك لأدلة لا تحصر، ولكن فى بعض الحالات نجد أن رأى الأقلية هو الأرجح لقيام الدليل عليه.

ومن هنا وجه الإمام أبو إسحاق الشاطبى الأنظار إلى الاهتمام بأسباب نزول القرآن، حتى لا يقع المفسر فيما وقع فيه الحرورية قديما، حيث أخذوا آيات أنزلت فى المشركين، فطبقوها على المسلمين، ولذلك كان ابن عمر يراهم شرار الناس.

وأسباب ورود الحديث أولى بالرعاية من أسباب نزول القرآن؛ لأن الأصل فى نصوص القرآن العموم والخلود، بخلاف الأحاديث التى تراعى المناسبات الخاصة، والظروف الآنية، كما هو معلوم للدارسين.

ولننظر هنا ما قاله الإمام المحقق ابن دقيق العيد، تعليقا على حديث: «ليس من البر الصيام فى السفر» ففى كتابه: (الإحكام شرح عمدة الأحكام) وفى (كتاب الصوم) ذكر الحديث الرابع: عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ فى سفر. فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه. فقال: «ما هذا؟». قالوا: صائم. قال: «ليس من البر الصيام فى السفر».

قال ابن دقيق العيد:

«أخذ من هذا: أن كراهة الصوم فى السفر لمن هو فى مثل هذه الحالة، ممن يجهده الصوم ويشق عليه، أو يؤدى به إلى ترك ما هو أولى من القربات. ويكون قوله: «ليس من البر الصيام فى السفر» منزلا على مثل هذه الحالة. والظاهرية المانعون من الصوم فى السفر يقولون: إن اللفظ عام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ويجب أن تتنبه للفرق بين دلالة السياق والقرائن الدالة على تخصيص العام، وعلى مراد المتكلم، وبين مجرد ورود العام على سبب، ولا تجريهما مجرى واحداً. فإن مجرد ورود العام على

السبب لا يقتضى التخصيص به. كقوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨] بسبب سرقة رداء صفوان. وأنه لا يقتضى التخصيص به بالضرورة والإجماع. أما السياق والقرائن: فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه. وهى المرشدة إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات. فاضبط هذه القاعدة. فإنها مفيدة فى مواضع لا تحصى»[1] ا. هـ.

وقوله: «عليكم برخصة الله التى رخص لكم» دليل على أنه يستحب التمسك بالرخصة إذا دعت الحاجة إليها. ولا تترك على وجه التشديد على النفس والتنطع والتعمق.

وفى ضوء هذا الفهم نظر الشيخ إلى حديث أبى بكرة المذكور، قائلا:

«ونحب أن نلقى نظرة أعمق على الحديث الوارد، ولسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول أو رئيسات للحكومات! إننا نعشق شيئا واحدا، أن يرأس الدولة أو الحكومة أكفأ إنسان فى الأمة.

وقد تأملت فى الحديث المروى فى الموضوع، مع أنه صحيح سندا ومتنا، ولكن ما معناه؟

عندما كانت فارس تتهاوى تحت مطارق الفتح الإسلامى كانت تحكمها ملكية مستبدة مشئومة.

الدين وثنى! والأسرة المالكة لا تعرف شورى، ولا تحترم رأيا مخالفا، والعلاقات بين أفرادها بالغة السوء. قد يقتل الرجل أباه أو إخوته فى سبيل مآربه. والشعب خانع منقاد..

وكان فى الإمكان، وقد انهزمت الجيوش الفارسية أمام الرومان الذين أحرزوا نصرا مبينا بعد هزيمة كبرى، وأخذت مساحة الدولة تتقلص: أن يتولى الأمر قائد عسكرى يقف سيل الهزائم، لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراثا لفتاة لا تدرى شيئا فكان ذلك إيذانا بأن الدولة كلها إلى ذهاب..

فى التعليق على هذا كله قال النبىّ الحكيم كلمته الصادقة، فكانت وصفا للأوضاع كلها..

---

(١) الإحكام: ٢/ ٢١ط. عالم الكتب الحديث (١٨٨) بتحقيق أحمد محمد شاكر.

ولو أن الأمر فى فارس شورى، وكانت المرأة الحاكمة تشبه «جولدا مائير» اليهودية التى حكمت إسرائيل، واستبقت دفة الشئون العسكرية فى أيدى قادتها، لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة. .

وما الذى جعل الشيخ يتجه بالحديث هذه الوجهة، ويفهمه هذا الفهم؟ هناك أمران ساقاه إلى ذلك.

أولهما: الحديث لا يناقض القرآن: إن الوحى لا يناقض بعضه بعضا، والسنة لا يمكن أن تناقض القرآن بحال.

فإن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرأ على الناس فى مكة سورة النمل، وقص عليهم فى هذه السورة قصة ملكة سبأ، التى قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بحكمها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حكما فى حديث يناقض ما نزل عليه من وحى!

كانت بلقيس ذات ملك عريض، وصفه الهدهد بقوله: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣].

وقد دعاها سليمان إلى الإسلام، ونهاها عن الاستكبار والعناد، فلما تلقت كتابه، تروت فى الرد عليه، واستشارت رجال الدولة الذين سارعوا إلى مساندتها فى أى قرار تتخذه، قائلين: ﴿ نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣].

ولم تغتر المرأة الواعية بقوتها ولا بطاعة قومها لها، بل قالت: نختبر سليمان هذا لنتعرف: أهو جبار من طلاب السطوة والثروة أم هو نبى صاحب إيمان ودعوة؟ ولما التقت سليمان بقيت عن ذكائها واستنارة حكمها تدرس أحواله، وما يريد وما يفعل، فاستبان لها أنه نبى صالح. .

وتذكرت الكتاب الذى أرسله إليها: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١] ثم قررت طرح وثنيتها الأولى والدخول فى دين الله قائلة: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤].

هل خاب قوم ولوا أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس؟ إن هذه المرأة أشرف من الرجل الذى دعته ثمود لقتل الناقة ومراغمة نبيهم صالح ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ

﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٢٩ ـ ٣٢].

ومرة أخرى أؤكد أنى لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة، فإن الكملة من النساء قلائل، وتكاد المصادفات هى التى تكشفهن، وكل ما أبغى هو تفسير حديث ورد فى الكتب، ومنع التناقض بين الكتاب (القرآن) وبعض الآثار الواردة، أو التى تفهم على غير وجهها! ثم منع التناقض بين الحديث والواقع.

الحديث النبوى لا يناقض الواقع:

وثانى الأمرين: أن الحديث النبوى ـ كما لا يناقض القرآن ـ لا يمكن أن يناقض التاريخ الصحيح، والواقع المشاهد. يقول الشيخ:

إن إنجلترا بلغت عصرها الذهبى أيام الملكة «فيكتوريا»، وهى الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء[1] وتعدّ فى قمة الازدهار الاقتصادى والاستقرار السياسى. فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة؟

وقد تحدثت فى مكان آخر عن الضربات القاصمة التى أصابت المسلمين فى القارة الهندية على يدى «أنديرا غاندى» وكيف شطرت الكيان الإسلامى شطرين فحققت لقومها ما يصبون!

على حين عاد المرشال «يحيى خان» يجرر أذيال الخيبة!!

أما مصائب العرب التى لحقت بهم يوم قادت «جولدا مائير» قومها فحدّث ولا حرج، قد نحتاج إلى جيل آخر لمحوها! إن القصة ليست قصة أنوثة وذكورة! إنها قصة أخلاق ومواهب نفيسة.

لقد أجرت أنديرا انتخابات لترى: أيختارها قومها للحكم أم لا؟ وسقطت فى الانتخابات التى أجرتها بنفسها! ثم عاد قومها فاختاروها من تلقاء أنفسهم دون شائبة إكراه!

أما المسلمون فكأنهم متخصصون فى تزوير الانتخابات للفوز بالحكم ومغانمه برغم أنوف الجماهير.

أى الفريقين أولى برعاية الله وتأييده والاستخلاف فى أرضه؟ ولماذا لا نذكر قول

---

(١) يقصد بالملكة: إليزابث، وبرئيسة الوزراء: مارجريت تاتشر.

ابن تيمية: إن الله قد ينصر الدولة الكافرة ـ بعدلها ـ على الدولة المسلمة بما يقع فيها من مظالم؟

وما دخل الذكورة والأنوثة هنا؟ امرأة ذات دين خير من ذى لحية كفور!![1].

هذا هو موقف الشيخ الغزالى من النص فى هذه القضية، فهل خرج فيها على الإجماع؟

نحن نعلم أن فى الإجماع كلاما طويل الذيول والأكمام: فى إمكان وقوعه، وفى إمكان العلم به إذا وقع، وفى حجّيته، وفى دعاوى الإجماع الكثيرة ولا إجماع، حتى روى عن الإمام أحمد: من ادعى الإجماع فقد كذب. ما يدريه: لعل الناس اختلفوا وهو لا يدرى! فإن كان ولابد فليقل: لا أعلم الناس اختلفوا!

ومع هذا نرى كثيرا مما يقال فيه: لا أعلم فيه خلافا، يثبت فيه الخلاف.

المهم أن قضية عدم تولى المرأة للوظائف العامة، لم يثبت فيها إجماع، بل ثبت فيها الخلاف. فالحنفية يجيزون للمرأة أن تتولى القضاء فى الشئون المدنية والشخصية وغيرها، ما عدا الأمور الجنائية، التى لا تقبل عندهم شهادتها فيها.

والطبرى وابن حزم والظاهرية يجيزون لها تولى القضاء بصفة عامة. بل ابن حزم يجيز لها تولى جميع الوظائف فيما عدا منصب الخليفة، أو الإمام الأعظم، أو الرئاسة العليا للدولة.

ويمكننا أن نقول هنا: إن منصب الخلافة أو الإمامة العظمى أكبر من مجرد رياسة دولة إقليمية. فهذا فى نظر السياسة الشرعية يُعَدّ واليا على إقليم، وأين هذا من الخليفة أو الإمام العام لأمة الإسلام؟

مقدار دية المرأة فى العقوبات:

ومما أخذ على فقه الغزالى: قوله بأن دية المرأة مثل دية الرجل، وحجته: أن الدية فى القرآن واحدة للرجل والمرأة، والزعم بأن دم المرأة أرخص، وأن حقها أهون: زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب العزيز. فإن الرجل يقتل فى المرأة، كما تقتل المرأة فى الرجل، فدمهما سواء باتفاق، فما الذى يجعل دية دون دية؟

---

(١) انظر: السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٥٦ ـ ٥٩ ط. دار الشروق، السادسة.

ويمكن للشيخ أن يستدل أيضا بحديث: «فى النفس مائة من الإبل» ولم يفرق بين رجل وامرأة.

والذين ردوا على الشيخ الغزالى انتقدوه بأمرين:

١ ـ أنه خالف الحديث الذى ذكر أن دية المرأة نصف دية الرجل.

٢ ـ وأنه خالف إجماع الفقهاء.

وهذا النقد ضعيف لأمرين:

الأول: أن الحديث فى تنصيف دية المرأة لم يصح عن النبى ﷺ . فقد جاء عن معاذ ابن جبل، وقال البيهقى: إسناده لا يثبت مثله. . وجاء عن على بن أبى طالب، وفيه انقطاع. وليس فى الصحيحين ولا فى أحدهما شىء من ذلك البتة.

الثانى: أن الإجماع لم ينعقد فى هذه القصية، فقد خالف فيها الأصم وابن علية، كما ذكر الشوكانى(١).

هذا وقد علل بعض الفقهاء المعاصرين ـ ومنهم شيخنا الكبير الأستاذ مصطفى الزرقا ـ بأن الدية تُعَدّ تعويضا عن مفقود. وفى العوض يلاحظ التكافؤ، فقتل الرجل خسارة للأسرة أفدح من مقتل المرأة.

ولكن هذا يرد عليه بأن الشارع سوَّى فى الدية بين الرجل الراشد والطفل الرضيع، رغم أن الخسارة بفقدهما ليست واحدة ولا متساوية، وكذلك سوى بين العالم الكبير والأمى، وبين التقى الصالح والشرير الخبيث؛ لأن نظر الشارع هنا إلى النفس الإنسانية فحسب، وقيمتها كما فى القرآن: ﴿ **أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة: ٣٢].

كل ما يؤخذ على الشيخ هنا قوله: وأهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل، وهذه سوأة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون!

فالواقع أن معظم الفقهاء يقولون بذلك وليس أهل الحديث وحدهم، وكان ينبغى التعبير بلفظ أخف وألطف من لفظ (السوأة)، فإنما هو اجتهاد ممن قاله، يحتمل الصواب والخطأ، وقائله مأجور عليه، وإن كان أخطأ فيه، كما هو معلوم.

---

(١) انظر. نيل الأوطار: ٧/ ٢٢٤ ـ ٢٢٧، ط. دار الجيل، بيروت.

قتل المسلم بالكافر الذمى:

ومن الآراء الفقهية التى تبناها الشيخ الغزالى، وانتقدها خصومه بعنف: اختياره مذهب الأحناف فى مشروعية قتل المسلم قصاصا إذا اعتدى على ذمى معاهد وقتله عمدا.

وإنما اعترضوا على الشيخ لأنه أعرض عن الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره: «لا يُقتل مسلم بكافر».

والشيخ يقول هنا: إننا لا نحرص على تضعيف حديث يمكن تصحيحه، وإنما نحرص على أن يعمل الحديث داخل سياج من دلالات القرآن... وحديث الآحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة، وإن صح سنده.

وحديث: «لا يُقتل مسلم بكافر» معلول بمخالفته للنص القرآنى: ﴿ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

يقول الشيخ: وعند التأمل نرى الفقه الحنفى أدنى إلى العدالة، وإلى مواثيق حقوق الإنسان وإلى احترام النفس البشرية، دون نظر إلى البياض والسواد، أو الحرية والعبودية، أو الكفر والإيمان. لو قتل فيلسوف كانس طريق قتل فيه، فالنفس بالنفس.

وقاعدة التعامل مع مخالفينا فى الدين ومشاركينا فى المجتمع: أن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فكيف يهدر دم قتيلهم؟!(١).

وأضيف إلى ما ذكره الشيخ: أن القول المذكور ليس قول أبى حنيفة وأصحابه وحدهم، بل هو قول الشعبى والنخعى أيضا من أئمة السلف.

كما أضيف أن أبا حنيفة ومن معه تأولوا حديث: «لا يقتل مسلم بكافر» بأن المراد به الكافر الحربى، بدليل ما جاء فى حديث آخر: «لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده» أى بكافر، والمراد به: المحارب، بدليل جعله مقابلا للمعاهد؛ لأن المعاهد يقتل بمن كان معاهدا مثله من الذميين إجماعا، فيلزم أن يقيد الكافر فى المعطوف عليه بالحربى، كما قيد فى المعطوف؛ لأن الصفة بعد متعدد ترجع إلى الجميع اتفاقا.

واستدلوا أيضا بآثار جاءت عن على وعن عمر الذى قال: إن كانت طيرة فى غضب فعلى القاتل أربعة آلاف، وإن كان القاتل لصا عاديًا (معتديا) فيقتل.

---

(١) انظر: السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٢٤، ٢٥، ط. سادسة.

وقد تمسك بما روى عن عمر مالك والليث، فقالا: يقتل المسلم بالذمى إذا قتله غيلة. قال: والغيلة أن يضجعه فيذبحه!(1).

والواقع: أن هذا الرأى هو الذى لا يليق بزماننا غيره. ولا يخفى على أحد ما يثار اليوم فى وجه الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية من شبهات، فى مقدمتها موقف الأقليات الدينية فى كثير من الأقطار التى تشتمل على غير المسلمين، فهم يقولون: إننا فى ظل الشيعة لا نأمن على أنفسنا، فنحن نقتل عمدا، ولا يقتص من قاتلنا إذا كان مسلما، فدمنا أرخص من دم المسلم. ونحن ـ بترجيح هذا الرأى الذى حكمت به الدولة العباسية والدولية العثمانية قرونا طويلة ـ نبطل هذه الأعذار، ونعلى راية الشريعة الغراء.

---

(1) انظر: نيل الأوطار للشوكانى: ٧/ ١٥٠ ـ ١٥٧.

مرتكزات فقه الغزالى

ومما ذكرناه من مقتطفات من فقه الغزالى فى مختلف شئون الحياة، يتبين لنا: أنه لا ينطلق فى فقهه هذا من رأى محض أو هوى متبع، إنما ينطلق من مرتكزات أو أصول يستند إليها، ويعول فى الاستنباط عليها.

١ - الكتاب والسنة معا:

أول هذه المرتكزات أو الأصول هو: النص المعصوم، الذى جاء به الوحى الإلهى، ويتمثل هذا النص فى القرآن والسنة جميعا.

فالقرآن هو المصدر الأول، وهو أصل الأصول، المقطوع بثبوته وتواتره اليقينى. والسنة هى البيان النظرى، والتطبيق العملى له: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

والبيان لا يجوز أن يناقض المبين، لهذا يرفض الشيخ كل سنَّة تناقض القرآن، ولا يتكلف أو يتمحل فى تأويلها. ويقول: إذا كانت مخالفة الراوى الثقة من هو أوثق منه - وإن كان عدلا ضابطا - تجعل الحديث شاذا، أى تنقله من دائرة القبول إلى دائرة الرفض، أو من دائرة الصحة والحسن إلى دائرة الضعف، فكيف إذا خالف الحديث القرآن؟

وهو لهذا يرى ما رآه الإمام الشافعى من أن السنة لا تنسخ القرآن. بل هو يرى - أكثر من ذلك - أن القرآن ليس فيه منسوخ. وهو يتفق فى هذا مع اتجاه الشيخ محمد عبده فى تفسير آية: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦] فى أن المقصود بالآية: الآية الكونية لا التنزيلية.

وهو ما ذهب إليه العلامة الشيخ محمد الخضرى فى (تاريخ التشريع)، وما حكاه الفخر الرازى عن أبى مسلم الأصفهانى من المفسرين القدامى، وبدا فى كثير من الأحيان كأنه يميل إليه!

وقد ندد الغزالى بما قاله بعض المفسرين من أن (آية السيف) نسخت أكثر من مائة آية فى كتاب الله.

وفى بعض كتبه - كتاب جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج - وضح الشيخ

ببيانه الرائع أن هذه الآيات كلها محكمات، لا شائبة فيها للنسخ، وتكلم عنها آية آية، بما لا يدع مجالا لأى تقول أو ريبة.

أما السنة فخلاصة قول الشيخ فيها: أن طاعة رسول الله من طاعة الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

وأن من زعم أن الرسول يجوز عصيانه فيما أمر به ونهى عنه، فهو كافر باتفاق المسلمين.. وقد بذلت جهود لم يبذل مثلها فى الوقوف على تراث بشر؛ كى يُعرف ماذا قال الرسول حقا.. وانتهت هذه الجهود بجملة حقائق محترمة:

١ ـ إن فى السنة ما هو متواتر لفظا أو معنى، وهذا النوع من السنن يشبه القرآن الكريم فيما أتى به من أحكام، ولا يمكن رده. وهو كثير فى التراث النبوى وعليه تقوم الكثرة الكاثرة من الأحكام المقررة. وليس بصحيح أن المتواتر فى السنة ضيق النطاق، ربما كان ذلك فيما تواتر لفظه، أما ما تواتر معناه فهو أساس مقررات فقهية كثيرة. والواقع أن أخبار الآحاد من الناحية العملية لا تشكل مساحة كبيرة من السلوك الإسلامى المهم، فإن ما لابد منه تكفلت به نصوص ثابتة بيقين..

٢ ـ وجمهور الأمة يقبل سنن الآحاد ويعُدها دليلا على الحكم الشرعى الذى نتعبد الله بإقامته. ومن الناس من عد هذه السنن مفيدة لليقين الذى يفيده التواتر ـ ما دامت صحيحة ـ ولكن جمهور العلماء يقبل سنن الآحاد فى الأحكام العملية والفروع الفقهية ولا ينقلها إلى ميدان العقيدة الذى يقوم الأمر فيه على القطع. ومعنى ذلك أن سنن الآحاد تفيد الظن العلمى وحسب..

٣ ـ مع اتفاق الفقهاء على أن سنن الآحاد قرينة مقبولة فى إفادة الحكم الشرعى، فإن عددا من الأئمة يتجاوز هذه السنن إذا كانت هناك قرينة أقوى منها فى إفادة حكم الله. فـ«مالك» مثلا يرى عمل أهل المدينة أدل على السنة النبوية من حديث الآحاد مهما كانت صحته. و«الأحناف» يرون أن حديث الآحاد لا ينهض على إثبات الفرضية وحده، ولا ينهض كذلك على إثبات الحرمة ولكنه يثبت أحكاما أقل رتبة.. وغالى بعضهم فجعل القياس القطعى أرجح من سنن الآحاد، ودراسة السنة علم له رجاله الخبراء، ولا يقبل فى هذا الميْدان ما يرسله السفهاء من أحكام طائشة تجعل التطويح بالسنة الشريفة أمرا جائزا، أو تجعل تكذيب حديث ما هوى مطاعا.

إنه لا فقه بغير سنّة ولا سنة بغير فقه، وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة. وفى ذلك يقول الأستاذ الإمام حسن البنا: «القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع فى فهم السنة إلى رجال الحديث الثقات»(١).

٢ـ اعتبار المصالح مالم تعارض النص:

ومن مرتكزات فقه الشيخ الغزالى: أنه يأخذ بالمصالح المرسلة، ويجعل لها اعتبارا، بشروطها المعتبرة شرعا، وأولها. ألا تعارض نصا صحيحا صريحا.

وقد كتب الشيخ بحثا جيدا تحت عنوان: «بين النص والمصلحة» فى كتاب: «دستور الوحدة الثقافية» رد فيه على الذين يأخذون بالمصالح المزعومة وإن عارضت النصوص. ومما قاله هنا:

«جرت على الألسنة عبارة غامضة: أن عمر بن الخطاب ألغى بعض النصوص، أو أوقف العمل بها على نحو ما؛ لأنه رأى المصلحة فى ذلك(٢)!

وهذا كلام خطير، معناه أن النص السماوى قد خالف المصلحة العامة، وأن البشر لهم ـ والحالة هذه ـ أن يخرجوا عليه، ويعدموه!

وكلا المعنيين كاذب مرفوض؛ فلا يوجد نص إلهى ضد المصلحة، ولا يوجد بشر يملك إلغاء النص.

ولننظر إلى ما نسب لعمر فى هذا الشأن، قالوا: منع سهم الزكاة أن يصرف للمؤلفة قلوبهم بحجة أن الإسلام استغنى عن تألفهم.

وفهُم صنيع عمر على أنه تعطيل للنص خطأ بالغ، فعمر حرَم قوما من الزكاة؛ لأن النص لا يتناولهم لا لأن النص انتهى أمده.

هب أن اعتماداً ماليا فى إحدى الجامعات خصص للطلبة المتفوقين، فتخلف فى المضمار بعض من كانوا يصرفون بالأمس مكافآتهم، فهل يعد حرمانهم إلغاء للاعتماد؟ إنه باق يصرف منه من استكملوا شروط الصرف.

---

(١) دستور الوحدة الثقافية: ص ٣٣، ٣٤.

(٢) انظر: ردنا المفصل على هذه الدعوى فى بحثنا المنشور بحولية كلية الشريعة بجامعة قطر العدد العاشر: (حوار حول العلاقة بين النص والاجتهاد).

وقد رفض عمر إعطاء بعض شيوخ البدو ما كانوا ينالونه من قبل تألفا لقلوبهم، أو تجنبا لشرورهم، بعدما استطاع الإسلام أن يهزم الدولتين الكبريين فى العالم، فهل يظل على قلقه من أولئك البدو النهابين أمثال عباس بن مرداس والأقرع بن حابس؟

أبعد هزيمة كسرى وقيصر يبقى الإسلام يتألف حفنة من رجال القبائل الطماعين؟ ليذهبوا إلى الجحيم إن رفضوا الحياة كغيرهم من سائر المسلمين!

إن مصرف «المؤلفة قلوبهم» باق إلى قيام الساعة يأخذ منه من يحتاج الإسلام إلى تألفهم، ويذاد عنه من لا حاجة للإسلام فيه.

وعمر وغيره من الخلفاء والحكام أعجز من أن يعطلوا نصا، وأتقى من أن يتقدموا بين يدى الله ورسوله، ويجب أن تفهم التصرفات بدقة، ولا تساق التهم جزافا..

وقالوا: إن عمر عطل حدّ السرقة عام المجاعة... ونقول: إن الجائع الذى يسرق ليأكل أو ليؤكل أولاده لا قطع عليه عند جميع الفقهاء، فما الذى عطله عمر؟

إن قطع السارق المعتدى الظلوم هو حكم الله إلى آخر الدهر، ولا يقدر عمر ولا غير عمر على وقف حكم الله.

ولإقامة الحد شروط مقررة؛ فمن سرق دون نصاب، أو سرق من غير حرز لم تقطع يده، ولا يقال: عطل الحد، بل يقال: لم يجب الحد.

والذى حدث أيام عمر: أن المدينة وما حولها تعرضت لقحط عام، وفى عصرنا هذا نسمع بمجاعات فى آسيا وإفريقية يهلك فيها الألوف، وليس بمستغرب أن يخرج الناس من بيوتهم يطلبون القوت من أى وجه، وقد يحملهم ذلك على الخطف أو السرقة، فهل تعالج تلك الأحوال بالسيف؟

إن عمر درأ الحد بالشبهة ـ كما أمرت السنة الشريفة ـ ولا يعاب إذا توسع فى هذا الدرء، وقدر آلام الجياع فى تلك المحن المجتاحة..

ذاك تفسير ما روى عنه: إنا لا نقطع فى عام جدب. وقد نقلنا فى مكان آخر رفضه لقطع أيدى الغلمان الذين سرقوا ناقة لابن حاطب بن أبى بلتعة. وظاهر أن مسلكه إجراء استثنائى تجاه ظرف استثنائى، وأنه نفذ الحد عندما وجب، ودرأه بالشبهة عندما لم يقم.

إن المصلحة لابد من رعايتها، ومعنى النص الشرعى أن المصلحة قد ارتبطت به أبدا، فهو دليلها وضمانها، وأى تعطيل له إنما هو خدش للمصلحة أو تطويح لها.

ونحن نلحظ فى العقوبات الشرعية المنصوص عليها: أنها تناولت عددا معينا من الجرائم، فالحدود المقررة تعد على الأصابع.. ويستطيع الحاكم فى جرائم لا تحصى أن يضمن المصالح بما شاء من عقوبات.

هناك جرائم الربا والغصب والفرار من القتال والغش والخيانة، وأكل مال اليتيم، وكل أنواع العدوان على المال والعرض والدم، التى لا تتناولها الحدود أو ضروب القصاص، وهذه سيئات كثيرة، ودائرة التعزير تسعها، والقضاء يقدر على إرصاد ما يرى من عقوبات تحفظ مصالح الأمة، وتقر الأمن هنا وهناك.

إن المصلحة لا يمكن أن يحفظها تعطيل نص، فإن إمضاء أمر الله نماء وبركة. وفى الحديث أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحدُّ يقام فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحا».

وعندما يشكل المجتمع بالوعد والوعيد والرغبة والرهبة وفق أوامر الله سبحانه، فإن الرخاء يعم، والشؤم يستخفى، والمخاوف كلهن أمان..

والفقه الصحيح أن نتعرف على المصلحة حيث لا نص، وأن نجتهد فى تفهمها ثم فى تحقيقها، ناشدين إرضاء الله وخير الأمة..

الإسلام مثلا لم يضع رسما محددا لأسلوب الحكم، وإنما وضع له أخلاقا ترعى وقيما تصان، فكيف نولى حاكما؟ وكيف نعزله؟ أو كيف نحاسبه ونراقبه؟ ما أجهزة الشورى، وكيف نستوثق من التقاء الآراء الناضجة فيها؟ وكيف تمضى فى مجراها دون إرهاب أو إغراء؟

للأمم فى هذه الميادين أن تجتهد فى وضع النظام الذى يحقق مصلحتها دون ما قيد.

وأذكر أن أحد الناس سألنى - ورئيس الجمهورية يختار لبضع سنين - فقال: أليست هذه بدعة..؟! قلت: ما البدعة؟ قال: توقيت مدة الرياسة.. فإن الأصل اختيار الحاكم مدى الحياة!

قلت له: التوقيت والإطلاق سواء من الناحية الفقهية، وتتواضع الأمم على ما تراه أكفل لحقوقها، فإذا آثرت أن يكون اختيار الحاكم لأمد معلوم فلها ذلك.. قال: كان اختيار الخليفة الأول مدى الحياة.. قلت: آثر الصحابة أحد الوجوه، ولا تحريم للوجه الآخر..

قال: ألا يكون سنة؟ قلت: لا.. لا سنة إلا بنص، ولا نص هنا.

إن فعل النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد يكون دليل إباحة، وقد يكون دليل أفضلية، ولا وجوب أو ندب إلا بدليل، أو بنص.

وفى مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم، على ألا يصطدموا بنص قائم، فإن هذه النصوص معاقد المصلحة العامة وإن عميت عن ذلك أنظار»[1].

٣ ـ احترام المذاهب دون تعصب:

ويقوم فقه الغزالى على احترام جميع المذاهب الفقهية، المتبوعة منها وغير المتبوعة، دون تعصب لها أو لواحد منها. ويرى أئمة المذاهب قمما عالية فى رسوخ العلم، وفى تقوى الله، وفى الصلابة فى الحق، والشجاعة فى الرأى.

وهو ينكر على بعض الشباب الأغرار طعنهم الفج فى هؤلاء الأئمة واجتهاداتهم، مساوين رءوسهم برءوسهم، قائلين: هم رجال ونحن رجال!

بل أحيانا يعُدون أنفسهم أعلى من هؤلاء الأئمة كعبا، وأرفع قدرا، وأنهم حصلوا من العلم مالم يحصلوا، وأدركوا من السنة مالم يدركوا!!

والشيخ يحترم المدرستين الشهيرتين فى تراثنا الفقهى: مدرسة الأثر، ومدرسة الرأى، كما يقال فى الاصطلاح المأثور.

ويرى أن مدرسة الأثر لا تهمل الرأى ولا إعمال العقل فى فهم النص والقياس عليه. كما أن مدرسة الرأى لا تهمل الآثار والسنن والمرويات.

وهذا صحيح. وقد بين العلامة الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه عن «مالك» أنه من أئمة أهل الرأى، وإن كانوا يعدونه عادة من مدرسة الأثر. وكل من درس فقه الإمام مالك يوافق أبا زهرة على ذلك.

وقد يميل الشيخ فى كثير من الأحيان إلى مدرسة الرأى فى اجتهاداتها، المعتمدة على عمومات القرآن وظواهره، كقولهم بوجوب الزكاة فى جميع الزروع والثمار من كل ما

---

(١) انظر: دستور الوحدة: ص ٤٤ ـ ٤٩.

أخرجت الأرض، ومنها الفواكه والخضراوات والشاى والقطن وغيرهما مما يؤكل ومالا يؤكل أخذًا بعموم قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وهو ما رجحه شيخ المالكية فى عصره القاضى أبو بكر ابن العربى، وضعف مذهبه هنا ـ وهو مذهب مالك ـ مقويا مذهب أبى حنيفة الذى جعل الآية السابقة مرآته فأبصر الحق، كما بينا ذلك فى (فقه الزكاة).

ومع هذا نراه ينتقد المدرسة فى أحيان أخر، إذا رآها لم توفق فى اجتهادها فى قضية من القضايا.

فأهل الرأى قد يتجاوزون أحاديث صحاحا لا معنى لتركها، ولا سناد من فكر أو مصلحة لذلك. فالأحناف مثلا يرون الخمر محرمة لذاتها، ما أسكر منها ومالم يسكر، وهى لديهم النيىء من عصير العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد، أما أنواع العصير الأخرى فإن المحرم منها هو القدر المسكر!! أما القدر الذى لا يسكر فليس بحرام.. ربما كان مكروها فقط!!

وهذا كلام يرفضه العقل والنقل، فإن الخمر ما غطى العقل من أى مادة صلبة أو سائلة، وليست بين رب السماء وعصير العنب خصومة خاصة!

إن كل شراب مسكر، أو كل عقار مغيب للعقل، إنما هو حرام قل أو كثر، والتحليل العلمى للمسكرات والمخدرات يكشف عن تشابه مطلق لفعلها وأثرها فى الإنسان، فلم التفريق بين المماثلات؟ والأحاديث الواردة فى أن الخمر تتخذ من مواد كثيرة أحاديث قائمة (أى صحيحة وثابتة) ومحاولة تأويلها لا تستساغ(١).

ويمتدح الشيخ مدرسة التجديد الإسلامى الشهيرة التى قامت فى القرنين السابع والثامن على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته، ويسميها الشيخ (مدرسة الموازنة والترجيح). والحق أن ابن تيمية بلغ رتبة الاجتهاد المطلق، وإن بقى حنبليا فى الأعم الأغلب؛ لأن مذهب ابن حنبل مذهب واسع، ولا تخلو مسألة فيه من عدد من الروايات يبلغ أحيانا

---

(١) انظر: دستور الوحدة الثقافية: ص ٨١ ـ ٨٢.

خمسا أو ستا أو أكثر . كما نرى ذلك فى كتاب «الفروع» فى مجلداته الستة الضخام لابن مفلح، أو فى كتاب «الإنصاف فى الراجح من الخلاف» للمرداوى فى مجلداته الاثنى عشر . فيستطيع المجتهد أن يختار ويجتهد وهو داخل المذهب .

يقول الغزالى عن مدرسة ابن تيمية : إنها مدرسة استوعبت الأخبار المروية ، وأدركت وجوه الحكمة والمصالح التى تتبناها الشريعة ، أى أنها أفادت من الرأى والأثر معا، وإن كان انتصارها للأثر أظهر، ودفاعها عنه أذكى وأقدر .

ويرى الغزالى أن آراء ابن تيمية فى مسائل الطلاق ـ مثل عدم إيقاع الطلاق الثلاث بلفظة واحدة ، والطلاق البدعى ونحوه ـ أحب إليه ، وأصح حجة من غيره ، وأحفظ لكيان الأسرة فى عصرنا . والغريب أن أناسا من أتباع ابن تيمية كرهوا منه هذا المذهب ، واتهمه آخرون بأن الشيعة أثروا على تفكيره ! ! والرجل أقوى شخصية من أن يتأثر بأحد .

وفى القرن الثالث عشر والرابع عشر نشأت مدارس أخرى .

هناك مدرسة أشبه بأن تكون امتدادا لمدرسة الأثر عرضت الفقه الإسلامى من الكتاب والسنة مباشرة ، وأفادت من الجهد العقلى لرجال المذاهب التقليدية ، وضمت إلى ذلك جهد الفقهاء الظاهرين وانتفعت من مدرسة ابن تيمية ، وأحيت أسماء كانت مغمورة فى ميدان الأثر والرأى جميعا ، والقاسم المشترك بين رجال هذه المدرسة عرض الفقه من أصوله الأولى .

يمثل هذه المدرسة الصنعانى فى «سبل السلام» ، والشوكانى فى «نيل الأوطار» ، والسيد سابق فى «فقه السنة» ، وصديق خان فى مؤلفاته ، والألبانى فى رسائله .

وعندى أن هذا الجهد يقوم على الاختيار الشخصى ، والتنسيق أو التلفيق بين وجهات النظر المختلفة ، وأصحابه مقدورون فيما صنعوا ، ولعلهم أحسن تصويرا للإسلام من مؤلفى (المتون) المذهبية .

وهم أيضا يخطئون ويصيبون .

وانتماؤهم للسنة لا يجعل التسليم بقولهم واجبا ، بل إن بعضهم قد يخالف بعضا فى كثير من الأحكام .

وهناك مدرسة أخرى أقرب إلى مدرسة الرأى وإن كان عنوانها سلفيا هى مدرسة الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا ، ويتبعهم الشيخ محمود شلتوت ، ومحمد

عبدالله دراز، ومحمد البهى، ومحمد المدنى، وقبلهم الشيخ المحقق محمد الخضرى، ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة [1].

هذه المدرسة لها ملامح بينة. فهى - وإن قامت على النقل - إلا أنها تروج للعقل وتقدم دليله، وترى العقل أصلا للنقل. .

وهى تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد. . .

وهى ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارا حاسما أن يكون فى القرآن نص انتهى أمده.

وترى المذهبية فكرا إسلاميا قد ينتفع به، ولكنه غير ملزم، ومن ثم فهى تنكر التقليد المذهبى، وتحترم علم الأئمة.

وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقى بالا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة.

وقد حاولت هذه المدرسة أن تقود الأزهر، وتفرض وجهتها على المسلمين، ولكن التيارات العاصفة كانت أقوى منها فوقفتها أو جرفتها.

وبديه أن يكون فى اجتهادات رجالها أخطاء، فتفسير الشيخ محمد عبده للملائكة - كما ذكره تلميذه رشيد رضا - يرفضه الكافة. وتبرم الشيخ أبو زهرة بحكم الرجم كذلك! وفى فتاوى الشيخ محمود شلتوت ما يحتاج إلى مراجعة!!

ويبقى - بعد هذا الإلماح إلى المدارس الفقهية فى تاريخنا العلمى - أن نقول:

إن الإسلام صائغ أولئك الرجال كلهم، وهم لم يصوغوه.

وإن مصادر الإسلام معصومة لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.

وإن الانتفاع بكل فقيه مخلص ذكى يدعم مسيرتنا العلمية، ولا يضيرها أبدا، ويجب أن تنتفى الحساسية والكراهية للأشخاص.

---

(١) ومنهم المشايخ: أحمد إبراهيم وعبدالوهاب خلاف وعلى الخفيف.

وإن وجود هنات فى رأى هذا أو سيرة ذاك لا تهدم عبقريته أو تخدش تفوقه إن كان صاحب عبقرية وتفوق(١).

٤ ـ الفقه فى خدمة الدعوة:

ومن منطلقات الشيخ الغزالى فى الجانب الفقهى: أن الفقه ينبغى أن يكون فى خدمة الدعوة إلى الإسلام، وألا تستخدم الفتاوى الجزئية المبتسرة للتنفير من قبول الإسلام من غير المسلمين، أو من التوبة والهداية للعصاة والشاردين من المسلمين.

ومن هنا يرفض الشيخ ما رفض شيخه الإمام حسن البنا من التقليد الأعمى والمطلق للأئمة السابقين، لا سيما من أهل العلم، بل عليهم أن يستكملوا نقصهم العلمى، وأدواتهم الثقافية، حتى يبلغوا الدرجة التى يتمكنون فيها من النظر والترجيح بين الأقوال، وأن يجتهدوا لزمنهم وبيئتهم كما اجتهد الألون لأزمانهم وبيئاتهم.

ولابد للفقيه المعاصر من أن ينظر فى الميراث العلمى للعلماء المتقدمين فى أعصار الإسلام المختلفة، نظرة جديدة، فى ضوء مقررات الكتاب والسنة، ومقاصد الإسلام، وكلياته القطعية، ويأخذ من أقوال الشراح ويدع، فالنصوص معصومة، ولكن أفهام الشراح وأقوالهم فى تفسيرها غير معصومة.

وقد سمعته مرة يقول: إنه يريد أن يكتب بحثا عنوانه: قال الشارع، وقال الشارح: يكشف فيه النقاب عن كثير من الأقوال التى ارتضاها الشراح، وهى مخالفة لجوهر الهدى الإلهى، والهدى النبوى، وهو ما جاء به الشارع.

ولا أدرى: هل كتب هذه البحث أو لا؟ ولكنى أذكر نموذجين لهذا النوع ذكرهما فى بعض كتبه:

النموذج الأول يقول فيه الشيخ:

١ ـ كنت إذا درّست لطالبات الجامعة بدأت محاضرتى بإلقاء السلام، ومكثت على ذلك ما شاء الله حتى قالت لى طالبة ذات يوم: إن الأستاذ الذى يعلّمنا السنة أفهمنا أن إلقاء السلام على النساء حرام! فقلت مسرعا: هذا خطأ، فإنى قرأت فى السنن أن النبى

---

(١) انظر: دستور الوحدة الثقافية: ص ٧٤ ـ ٨٧.

ﷺ كان يلقى السلام على النساء، وقد ذكر البخارى فى صحيحه بابا لسلام الرجال على النساء والنساء على الرجال يفيد إباحة ذلك، وعلى أى حال فسألقى زميلى وأتثبت منه، فلعلى أنا مخطئ!

والتقيت بالزميل، وهو رجل غيور صالح دارس لعلوم الحديث، وقصصت عليه ما حدث..

فقال: نعم ذكرت للطالبات أن السلام عليهن لا يجوز! وما تسوقه أنت فى باب الجواز من أحاديث تبيح ذلك إنما هو خصوصية للنبى عليه الصلاة والسلام! أو عند أمن الفتنة! أو إذا كان النسوة عجائز، أما إلقاء السلام على الفتيات الجميلات فلا...

قلت: دعوى الخصوصية مرفوضة، والسياق عند البخارى وغيره يبيح لنا إلقاء السلام دون تصفح للوجوه: هل هى جميلة أم لا!! ولا أدرى من أين أتى الشارح بهذا التقسيم؟

قال: لابد من احترام قول الشارح!!

والنموذج الثانى يقول فيه:

٢ ـ فى حديث خروج النساء إلى مصلى العيد أكد الرسول ﷺ هذا الخروج بقوله: «من لا جلباب لها تستعير جلبابا من جارتها وتخرج»، ونص على أن الخارجات هن العواتق وذوات الخدور أى الشابات المكنونات. وجاء عن ابن عباس أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يخرج نساءه وبناته فى العيدين...

ومع ذلك فإن شارح البخارى نبه إلى أن الخارجات المأذون لهن هن العجائز! وأن النساء الخارجات إذا خرجن بإذن أزواجهن فبملابس الخدمة، أى ملابس الطبخ والكنس!

لم هذا كله؟ ومن نتبع: الشارع أم الشارح؟ لقد انتهى رأى الشراح بمنع خروجهن نهائيا، وغلبت تقاليد العرب تعاليم الإسلام..

والذى نلفت إليه الأنظار أن هناك علماء دين ورجال دعوة يعرفون قول الشارح وحده، فإذا انهزم هؤلاء وأولئك فى ميادين الحياة، فهل الذى انهزم السنة النبوية أو الذين أساءوا فهمها؟

إن حظ الإسلام تعيس بهذا التفكير المعوج...

بل إن الحملة على السنة كلها ـ وهى حملة نقاومها بقوة ـ تعود إلى قصور كثير من المشتغلين بالسنة، وإلى عجزهم المنكور فى الارتباط بالقرآن الكريم والانسياق مع توجيهاته المرنة[1].

ولا يخفى على منصف أن وجهة نظر الشيخ أصح وأرجح من وجهة مخالفيه، والحق أنهم متكلفون فى مخالفة ظاهر السنة.

تضخيم الخلافيات مرفوض:

ينكر شيخنا محاولة من يريدون رفع الخلاف، وجمع الناس على رأى واحد ـ هو بالطبع رأيهم ـ مع وجود الخلاف وأسبابه منذ عصر الصحابة، بل منذ عصر النبوة! فإن هذه المحاولة تزيد الخلاف حدة! ولا تنقصه!

كما ينكر بشدة تضخيم الخلافيات، وشغل الناس بها، والتشنيع على المخالفين فيها. يقول حفظه الله:

«إن العقائد والعبادات الرئيسية والسنن العملية جاءت هى كلها عن طريق التواتر القاطع، وإن أصول الدين وأركان الطاعات وقواعد السلوك لا يرتقى إليها لبس أو تفاوت. وإنما يحدث الخلاف فى أمور ثانوية لا يضخمها إلا أصحاب الفكر المختل.

ما قيمة أن يشرب امرؤ قائما أو قاعدًا؟ لقد جاءت مرويات شتى فى ذلك.. صح عن الخمسة[2] ـ ما عدا أبا داود ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: سقيت رسول الله ﷺ من ماء زمزم فشرب وهو قائم.

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشى، ونشرب ونحن قيام. أخرجه الترمذى وصححه.

وعن مالك أنه بلغه: أن عمر وعثمان وعليا كانوا يشربون قياما.

وظاهر من هذه المرويات جواز الشرب عن قيام. ومع ذلك فقد روى مسلم عن أنس ابن مالك، قال: نهى رسول الله عن الشرب قائما. بل روى عن أبى هريرة أن رسول الله قال: «لا يشربن أحدكم قائما! فمن نسى فليَستقِئْ»!!

---

(١) انظر: مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ٨٤، ٨٥.

(٢) المراد بالخمسة عند البعض: الشيخان وأصحاب السنن ما عدا ابن ماجه.

ويرى الفقهاء أن الشرب عن قيام مباح، وأنه عن قعود أفضل، ولا حرمة فيما لو شرب قائما.

ويخيل إلىَّ أن الأحوال التى تكتنف المرء هى التى تحدد طريقة شربه، فلا عزيمة فى القعود، ولا جريمة فى القيام، وإن كان بعض الفارغين يريد أن يجعل من الحبة قبة، وأن يكثر حولها اللغو!!

والأمر عندى أهون من أن تثور حوله معركة.. لكن الذى رفضته أن يتصدى أحد أولئك المبطلين لعلم الأحياء، ويهاجم مقرراته ليقول: إن الكلب الأسود شيطان، وليس كلبا كبقية بنى جنسه!! قلت: حديث رفض العمل به جمهور الفقهاء، ولم يروه البخارى وهو يعالج الموضوع، نلخل به معركة ضد العلم باسم الإسلام والمسلمين!!

إن التعصب المستغرب لوجهة نظر فرعية لا يبلغ هذا الشطط، ولكنه للأسف مسلك ملحوظ على عدد ممن يشتغلون بأحاديث الآحاد.

روى أحدهم حديث: «ما أسفلَ من الكعبين من الإزار فهو فى النار»، ثم حكم على الألوف المؤلفة من عباد الله أنهم من أهل جهنم! قلت له: إن إسبال الإزار كبرا رذيلة وقد كان فى الجاهلية الأولى شارة الرياسة والملك، وقصة الأمير جبلة بن الأيهم معروفة. أما طول الإزار حتى الكعبين أو دونهما قليلا، لستر الجسم وتجميله دون اغترار ولا استكبار، فهو لا يدخل النار! فأبى المتحدث أن يستمع إلى شرحى، وعدنى من علماء السوء، الخارجين على السنة»!(١).

وهكذا نرى الشيخ دخل الفقه من باب الدعوة. فهو يتبنى من قضاياه ما يخدم رسالة الإسلام، ويحببها إلى الناس، ويظهر وجهها مشرقا جذابا. ويرفض من القضايا ما لا يتفق وعظمة الإسلام، وروعة مبادئه، وعدالة أحكامه، وجلالة أهدافه. وهذه الفكرة عن الإسلام إنما كونها من محكمات القرآن وصحاح السنن، فأصبحت هى الأصل الذى يرجع إليه، ويعول عليه.

وهذا سر سخونة المعركة بينه وبين آخرين عزلوا ما بين الفقه والدعوة، فلا يبالون ما تتركه آراؤهم الفقهية من أثر فى أنفس المدعوين، ولاسيما خارج ديار الإسلام.

إن الشيخ يتبنى مذهب ابن حزم فى إباحة الغناء والموسيقى ـ مالم تقترن بمحرم ـ لعلمه

---

(١) هموم داعية: ص ٤٥ ـ ٥٠.

بأن مئات الملايين ـ وربما آلاف الملايين ـ فى العالم تعشق هذا اللون من الفنون، وتتشبث به، ولا تفرط فيه، فلا داعى لأن يحال بين الإسلام وهذه الشعوب من أجل أمر مختلف فيه.

ومثل ذلك موقفه من الجهاد وتبنيه أنه لم يشرع فى الإسلام إلا للدفاع عن الدعوة والدولة، وهو فى الواقع رأى جمهور علماء العصر الكبار: رشيد رضا، ومحمود شلتوت، ومحمد عبدالله دراز، ومحمد أبو زهرة، وعبدالوهاب خلاف، وغيرهم. . .

إنه ينظر إلى الفقهيات بعين الداعية، ولذا نراه ينكر بشدة تضخيم الأمور الخلافية، وتجسيم الأشياء الهامشية فى الدين، على نحو يصد الناس عن سبيل الله، ويرى وجوب التركيز على الأساسيات فى الإسلام.

الفصل التاسع

الغزالى .. مصلحا ومجددا

الغزالى .. مصلحا ومجددا

الغزالى المجدد:

روى أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لها دينها»(1).

وهذا الحديث يحمل بشرى للأمة ـ على امتداد أمصارها وأعصارها ـ بأن دينها سيظل حيا ولن يدركه البلى، بل يتجدد باستمرار بمن يبعثه الله ليقوم بمهمة التجديد.

ولا يعنى التجديد للدين تغيير جوهره، فإن التجديد للشىء إعادته أقرب ما يكون إلى يوم نشأته وظهوره. فتجديد الدين إنما يعنى تجديد الفهم له والإيمان به، والالتزام بتعاليمه، والدعوة إليه.

وكلمة (مَنْ) فى الحديث تصدق على الجمع، كما تصدق على المفرد.

فقد يكون المجدد فردا، كالخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، أو الإمام الشافعى، أو الإمام الغزالى، وهو ما اتجه إليه الأكثرون فى فهم الحديث.

وقد يكون المجدد جماعة متعددة، فى قطر واحد، أو جملة أقطار، فى مجال واحد، أو عدة مجالات، من كل من يقوم على ثُغرة من ثُغَر الإسلام، وهو ما مال إليه ابن الأثير والذهبى وغيرهما.

وقد يكون المجدد جماعة أو مدرسة أو حركة فكرية أو دعوية أو تربوية أو جهادية، تقوم بدورها فى حركة الإيقاظ والإحياء والتجديد، وهو ما أرجحه وأميل إليه.

وهنا لا يكون دور المسلم أن يقول: متى يظهر المجدد؟ بل يكون قوله: ما دورى فى حركة التجديد؟

---

(1) انظر: كلامنا عن هذا الحديث وتخريجه وشرحه بتفصيل فى كتابنا: «من أجل صحوة راشدة» فصل: تجديد الدين فى ضوء السنة.

ولا يرتاب راصد لحركة الإسلام ومسار أمته، على رأس القرن الرابع عشر الهجرى: أن الشيخ الغزالى أحد أعمدة التجديد الإسلامى الرئيسة فى هذا العصر، سواء نظرنا إليه من خلال جهوده الذاتية فى الفكر والدعوة، والتوعية والتربية، أم من خلال عمله فى الحركة التجديدية الكبرى: حركة الإخوان المسلمين، التى يعد هو أحد أركانها الراسخة، وألسنتها الصادقة.

ولكأنما كان والده الرجل الصالح الشيخ «أحمد السقا» ينظر بنور الله حين ألهم أن يسمى ابنه «محمد الغزالى» تيمنا باسم حجة الإسلام أبى حامد الغزالى صاحب «الإحياء». فقد كان الرجل - رحمه الله - كما حكى لنا الشيخ - ذا نزعة صوفية، وكان أمله منذ رزق بطفله أن يكون وارثا للغزالى، فسماه هذا الاسم المركب «محمد الغزالى». فالغزالى جزء من اسم الشيخ وليس لقبا لعائلته، كما يتوهم بعض الناس.

ولم تخيب الأقدار ظن الوالد الطيب، فإذا (غزالى القرن الرابع عشر) يحمل روح (غزالى القرن الخامس) فى إحياء الدين وتجديده، وبعث الحياة فى جسد الأمة الهامد، على أساس من تعاليمه، وإن كان فى كل من (الغزاليَّيْن) ما ليس فى الآخر، وقد يوجد فى المفضول ما لا يوجد فى الفاضل، والله يهب من فضله ما يشاء لمن يشاء (والله ذو الفضل العظيم).

مصلح على مستوى الأمة:

الشيخ الغزالى، وإن كان رجل دعوة فى المقام الأول، هو كذلك رجل من رجالات التجديد والإصلاح الذين شغلوا بهموم المجتمع من حولهم، وما تعانيه أمتهم من اختلال فى الأوضاع والأنظمة، ومن فساد فى الأفكار والأخلاق، ومن عوج شمل الماديات والمعنويات، والأفراد والجماعات، فلم يسلم منه الدين ولا السياسة، ولا الثقافة ولا الاقتصاد، ولا أى جانب من جوانب المجتمع.

ولم يكن الغزالى مصلحا مصريا، وإن كانت مصر تأخذ الحظ الأول فى تفكيره واهتمامه، ولا مصلحا عربيا وإن كانت العروبة وعاء الإسلام، والعربية لسانه، والعرب جملة دعوته، ولكنه مصلح على مستوى الأمة الإسلامية كلها، من المحيط إلى المحيط، فهو يتحدث عن مأساة المسلمين فى الحبشة، كما يتحدث عن نكبتهم فى البوسنة، وعن أوضاعهم فى إندونيسيا كأوضاعهم فى المغرب.

عناصر الإصلاح عند الغزالى:

والإصلاح الذى يؤمن به الغزالى ويدعو إليه فى كتبه ومقالاته وفى خطبه ومحاضراته، يقوم على جملة عناصر:

١ـ تزكية الأنفس:

العنصر الأول فى الإصلاح هو: الدعوة إلى تجديد الإيمان بالله ورسالاته، وتعميق اليقين بالدار الآخرة، وتزكية الأنفس وإصلاحها فى ضوء هداية الوحى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس ٩، ١٠].

وقانون القرآن أن التغيير يبدأ بما فى الأنفس أولا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وهذا العنصر مقدم على كل عناصر الإصلاح.

٢ـ العدل الاجتماعى:

الدعوة إلى العدل الاجتماعى، والانتصار للطبقات المسحوقة التى تعرق فى الزرع وينعم غيرها بالحصاد، والوقوف فى وجه التوزيع الظالم للثروة، وتمكين الأغنياء من امتصاص دماء الفقراء، وتسليط الأقوياء على أكل حقوق الضعفاء.

وقد تجلى ذلك ـ منذ زمن مبكر ـ فى كتبه الأولى: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».

٣ـ مقاومة الاستبداد السياسى:

مقاومة الاستبداد والتسلط السياسى، وحكم الفراعنة والهوامين، الذين علوا فى الأرض، وجعلوا أهلا شيعا، وتألهوا فى الأرض فعلا، وإن لم يعلنوها قولا، فاتخذوا من عباد الله عبيدا لهم، فهو ينتصر لحرية الجماهير، وترسيخ الشورى، وعدُّها فريضة لا مجرد فضيلة، وملزمة لا مجرد معلمة، والاقتباس من النظم الحديثة ـ كالديمقراطية ـ ما يدعم هذا المبدأ، ويجعله قابلا للتطبيق العلمى فى حياتنا المعاصرة.

لهذا كان من أوائل كتبه: «الإسلام والاستبداد السياسى» وهو ـ كما ذكرت من قبل ـ محاضرات ألقاها فى معتقل الطور على المعتقلين.

وكان تنديده بمن يقول: إن الشورى للإعلام لا للإلزام.

٤ـ تحرير المرأة من التقاليد الموروثة الدخيلة:

تحرير المرأة من نير التقاليد الشرقية الموروثة، التي فرضتها أفهام سقيمة، أو أوضاع مختلة، فى فترات الهُوىٍّ والتراجع من تاريخنا، والتى يحسبها كثيرون من الدين وما هى منه فى قليل ولا كثير. وتحريرها كذلك من رق التقاليد الوافدة، التى غزتنا مع الاستعمار المستكبر، فسلخت المرأة المسلمة من دينها وشرع ربها، وغيرت من فكرها وخلقها وسلوكها، فأصبحت امرأة أخرى، ولا يكاد يبقى لها من الإسلام إلا الاسم والشهادتان.

لقد ظلم المسلمون المرأة فى الأعصر الأخيرة حتى حرموا عليها الذهاب إلى المسجد.

وقد تجلى هذا العنصر الإصلاحى فى كثير جدا مما كتبه الشيخ، ابتداء من كتابه: «من هنا نعلم» إلى كتاب: «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث»، ثم كتاب: «المرأة بين التعاليم والتقاليد».

٥ـ محاربة التدين المغلوط:

محاربة التدين المغلوط، والتطرف الممقوت فى فهم الدين، والرجوع به إلى اليسر والاعتدال، بعيدا عن غلو الغالين، وتفريط المفرطين. وهو توجه بدأه من قديم، ولكنه ركز عليه فى المرحلة الأخيرة، منذ اصطدم بالغلاة والحرْفيين، والمتزمتين ـ وقد سميتهم (الظاهرية الجدد) ـ فى أثناء عمله الدعوى فى مصر، وفى خارج مصر، فى المملكة العربية السعودية، وفى دولة قطر، وفى جمهورية الجزائر.

نجد ذلك واضحا فى كتبه: «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين» و«مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية» و«الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر» و«هموم داعية» و«علل وأدوية» و«الطريق من هنا» و«مستقبل الإسلام خارج أرضه» و«الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا» و«الحق المر» و«السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» وغيرها. .

وربما أخذ بعض الغيورين على الشيخ حدة نبرته فى نقده لهؤلاء، وتنديده بسوء فهمهم للإسلام، وسوء عرضهم له. وربما كان هذا صحيحا، والشيخ يعترف به. ولكن هذا راجع إلى تطاول كثير من هؤلاء على الشيخ وعلى غيره ممن خالفهم، ودعاويهم العريضة ضد دعاة الإسلام، ممن لا يوافق مشربهم.

ويدخل فى هذا العنصر: النظرة الشمولية التكاملية والتوازنية للإسلام، فى مقابل النظرات التجزيئية، والتى تضخم جانبا على حساب جانب، ويمكن أن يكون هذا عنصرا مستقلا.

٦ـ تحرير الأمة وتوحيدها:

تحرير الأمة الإسلامية من كل سلطان أجنبى فرض عليها فى غفلة من الزمن، وتتابع من المحن، سواء كان عسكريا، أم سياسيا، أم اقتصاديا، أم تشريعيا، أم ثقافيا، أم اجتماعيا، والعمل على توحيد الأمة، وإزالة العوائق التى تفرق بين أبنائها.

٧ـ الدعوة إلى التقدم ومقاومة التخلف:

الدعوة إلى التقدم، ومحاربة التخلف، واللحاق بموكب العالم المتطور عن طريق التفوق فى علوم الكون والرياضيات، واستخدام التكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، والانتفاع بأقصى ما عند الغربيين فى هذه الجوانب، واجتناب النواحى السلبية فى أخلاقياتهم وسلوكياتهم، كإعراضهم عن الله واليوم الآخر، والتحلل الجنسى، وتجنيد طاقات الأمة تحت راية الإيمان للعمل والإنتاج من أجل التقدم، واعتبار ذلك لونا من العبادة لله تعالى، وضربا من الجهاد فى سبيله.

شاعت هذه الدعوة على لسان الشيخ، وسال بها قلمه فى كتب ومقالات، لايكاد كتاب يخلو منها، ثم أفردها بالبحث والمناقشة فى كتابه: «سر تأخر العرب والمسلمين».

٨ـ تنقية الثقافة الإسلامية:

تنقية الثقافة الإسلامية مما علق بها من أوشاب وزوائد خلال العصور، ومطاردة الأباطيل والأوهام التى أدخلت على العالم الإسلامى، وهى دخيلة عليه غريبة عنه، ومقاومة «الشائعات» التى تلصق بالعلم وليست منه. وللشيخ هنا كلام طويل عن التعليم الأصلى، وعن الأزهر والجامعات الإسلامية، وعن الأغذية المسمومة التى يزود بها الدعاة والمعلمون الدينيون. ومن كتبه المستقلة فى هذا: «تراثنا بين الشرع والعقل».

٩ـ ترشيد الصحوة:

ترشيد الصحوة الإسلامية المعاصرة، والعمل الدءوب على تسديد مسارها، وتجنيبها

الزلل والعثار، وتجميع صفوفها على الأهداف الإسلامية الكبرى، وترك معارك الخلاف على الفروع والجزئيات التي يستحيل أن يتفق الناس عليها.

وهذا العنصر في الإصلاح: امتداد لعنصر مقاومة التدين المغلوط، وتعميق وتطبيق له.

١٠ـ العناية باللغة العربية:

العناية باللغة العربية، والأدب العربي، ومحاربة النزعات التخريبية التي تريد تقويض اللغة والأدب والشعر باسم الحداثة.

ولا بأس بأن نتحدث عن هذه العناصر بشيء من التفصيل.

وأود قبل أن أفصل الحديث عن جوانب الإصلاح عند الشيخ، أن ألمح إلى شيء من طريقته في تشخيص الأدواء، ووصف الأدوية لها، كما أشار إليها في مقدمة كتاب: «علل وأدوية». يقول سدد الله خطاه:

«إنني عندما أكتب أقسِّم مشاعري وأفكاري قسمين: قسما يتعرف الواقع الإسلامي بدقة، أعني أحوال أمتنا ما ظهر منها وما بطن.. وآخر يتلمس من توجيهات الإسلام ما يشفي السقام ويدعم الكيان..

وفي تعرُّفي على أحوال أمتنا أميز الأمراض الموروثة عن الوافدة حتى لا أضل العلاج، ولا أسمح للأعراض المتشابهة أن تخدعني عن جراثيمها المختلفة!

وفي تلمُّسي للأدوية أفرق بين الإسلام من مصادره المعصومة وبين تاريخه المتفاوت بين مد وجزر، سواء كان هذا التاريخ سياسيا أو ثقافيا»[1].

---

(١) من مقدمة كتاب: علل وأدوية.

١ ـ تجديد الإيمان وتزكية الأنفس

أما عنصر الإصلاح الأول، وهو الدعوة إلى الإيمان وتزكية الأنفس، فهو شائع فى كل كتب الشيخ وخطبه ومحاضراته، وهو واع كل الوعى أنه الهدف الأساسى للدين كله من ناحية، وأنه شرط ضرورى لنجاح أى إصلاح حقيقى.

وفى مقدمة كتابه: «علل وأدوية» ذكر الآية الكريمة: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، لما تتضمنه من معنى شريف، يصحح للإنسان هدفه، ويضبط خطاه ويقيه الزيغ والعثار.

يقول الشيخ:

«نحن ننشد إقامة الشرائع التى تقينا السيئات، وترهب المجرمين، ولكنها ـ قبل ذلك ـ تقيم العقائد التى تربط الناس بالله عز وجل، وتجعل تعاملهم معه، وخوفهم منه، وأملهم فيه.

إن كثرة الحديث عن الآخرة والجنة والنار لم يكن من قبيل اللغو. وكثرة الحديث عن التقوى وما تورثه فى القلب من استقرار، وما تلقيه فى الطريق من نور، ليس من قبيل الخيال.

لقد استيقنت أنه لا يقتل الغرور والشره، وحب النفس وحب الظهور، والمكاثرة بالمال والجاه... إلا الإيمان الحى والتعلق الشديد بما عند الله تبارك وتعالى.

لقد رأيت من طغى عندما حكم، ومن غش عندما تعامل، ومن استكبر عندما استغنى، ومن أفسد أسرته وأمته عندما تمهد له الطريق.

وتأملت الدوافع إلى هذا كله، فلم أر إلا قلوبا خالية من الله عز وجل، بعيدة عن الشعور بعظمته ورقابته! وإن همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحى!

وأؤكد أنه عند فساد الفطرة لا يوجد دين، وعند اختلال العقل أو نقصانه لا يفهم وحى! وأن الأوامر الجزئية المتناثرة المنفصلة عن روح جامع لا تكون سلوكا، كما أن اللبنات المركومة وأسياخ الحديد الملقاة لا تنشىء بيتا...

إن تعليمات المرور لا تفيد من أصيب بانفصال فى الشبكية، أو من أصيب فى صمامات القلب.

ولقد قام نبينا ﷺ حضارة حققت الغاية من الوجود الإنسانى، وكانت عدته فى ذلك ما تلقى من وحى، وما ألهم من هدى.

وكان أقدر المستقدمين والمستأخرين على تصحيح المسار الإنسانى عن طريق ضبط الأجهزة الرئيسية فى الكيان الإنسانى.

ونحن فى هذا النهج نسير، وبمواريث النبوة نستهدى»(١).

يريد الشيخ للمسلمين أن يحسنوا فهم الدين، ويحسنوا فهم الحياة أيضا، فلا قيام لدين بغير دنيا تسنده وتقويه.

وهو ينكر سرد الأحاديث والآثار الواردة فى الترهيب من الدنيا، والترغيب فى الفقر وقلة ذات اليد، وفضل الفقراء والمساكين.. إلخ.. سردا يجعل المسلمين يطّلقون الدنيا، فى حين يتزوجها غيرهم.

وهو يقول هنا: «أنا رجل مسلم أعلم أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وأعلم أن تداعى الأمم علينا سببه: حب الدنيا وكراهية الموت.

إننى أريد أن أفهم المؤمنين أن الحياة فى سبيل الله، كالموت فى سبيل الله - جهاد مبرور، وأن الفشل فى كسب الدنيا يستتبع الفشل فى نصرة الدين! وأن الواجد الذى ينزل عما عنده خير من المفلس الذى لا ينزل عن شىء؛ لأنه لا يملك أى شىء!

إن السلبية لا تخلق بطولة؛ لأن البطولة عطاء واسع، ومعاناة أشد»(٢).

الحاجة إلى تصوف نقى:

وشعور مفكرنا الكبير بحاجة الأنفس إلى تزكية وإصلاح، هو الذى جعله فى أكثر من كتاب له، يدعو إلى الاستفادة من التصوف، فى كشف عيوب النفس، ومداخل الشيطان إليها، ووصل القلوب بحب الله عز وجل، وترطيب الألسنة بذكره.

والتراث الصوفى يفيد هنا ما لا يفيد غيره، إذا غربل ونقى من الخرافة فى الفكر، والابتداع فى العبادة، والسلبية فى التربية والسلوك.

---

(١) من مقدمة كتاب: علل وأدوية، نشر إدارة إحياء التراث الإسلامى فى قطر.
(٢) علل وأدوية: ص ٢٣٠.

وقد كان الشيخ شديدا على التصوف والمتصوفة فى كتاباته الأولى. ثم بعد التجربة والنصح وجد أنه ضرورى لإنشاء الضمير الحى، والقلب المؤمن بالله، المتوكل عليه، الخائف من عذابه، الراجى لرحمته، وخصوصا بعد أن أتاحت له فرصة الاعتقال فى الطور قراءة «مدارج السالكين» لابن القيم دراسة منتظمة مع بعض إخوانه.

يقول الشيخ تحت عنوان «التصوف الذى نريد»:

«مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد، والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادى والمعنوى بالكون عملا وتأملا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب. . .

والإسلام المكتمل ليس «نظرية» علمية، أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب فى جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره فى كونه، عاشق للخير، مبغض للشر، يمتد مع كل شىء حسن، وينكمش مع كل شىء قبيح.

وقد خاطب الله المؤمنين من أصحاب محمد فقال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

ومن المتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية.

نعم يوجد ناس لهم عقول ذكية، وسير هابطة، ولا نشك فى أن هؤلاء مرضى، والأدواء التى أصيبوا بها متفاوتة الشناعة والسوء.

والمفروض أن من يعرف خصائص النار يتحاشى ملامستها، غير أننا نلحظ أن بعض الناس قد يعرف شيئا ما معرفة حسنة، ثم يجىء تصرفه وكأنه جاهل كل الجهل.

وهذا التناقض ضرب من الجنون الذى يُرى فى كل مكان، ولا يودَع أصحابه مستشفيات المجانين!..

إن الأمراض التى تعترى الشخصية الإنسانية كثيرة جدا.

وهذا الجنون الجزئى هو ما أشار إليه القرآن الكريم فى تقريعه للأشرار من العلماء: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

نعم، فالمفروض أن صحة التفكير تستتبع صحة التصرف!

لكن هذه البديهية عندما تنتقل إلى عالم التطبيق يعترضها من العوائق، ما يعترض التيار الكهربائى عندما ينقطع السلك الحامل له، أو عندما توجد مواد عازلة تمنعه من الانطلاق إلى مداه.

والدين الحق شفاء من هذه العلل جمعاء، فهو عقل مستقيم، وضمير حى.

أما الثروة الطائلة من النظريات، والفقر المدقع فى المشاعر النبيلة، والاتجاهات الكريمة، فليس تدينا مقبولا...

والسؤال الذى نريد الإجابة عنه: كيف نحقق هذا التدين؟

وكيف نربى فى القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته؟

كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟

كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو، يطبع النفوس على الرقة، ويصفى السرائر من كدرها؟

كيف نجعل المرء مشتاقا إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه، يطيعه ويسارع إلى مرضاته... وكيف نجعله هيابا لذاته، فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه...

كيف يشهد المرء ربه فى مجالى السموات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

إنه لا يتم إيمان، ولا يثمر دين، إلا إذا أحسنا الإجابة عن هذا التساؤل.

ونحن نعرف أن العلوم الشرعية تعاونت على شرح رسالة الإسلام وتوقيف الناس على حدوده وحقائقه، فأى العلوم اكترث بهذه الأسئلة، وطال نفَسه فى الحديث عنها؟

إننى لست متصوفا، وما أحب أن أنتسب إلى فرقة من فرق المسلمين.

بيد أن الإنصاف يدفعنى إلى القول بأن هذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية اللازمة

لم يلق العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمتكلمين، وأن المتصوفة ـ برغم شطحاتهم وغلطاتهم ـ هم الذين أفاضوا فى هذا الحديث.

إن فقهاءنا الذين كتبوا المجلدات فى غسل الأطراف ما كان يعيبهم أن يتناولوا هذا الجانب، وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية.

وإن المتكلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة فى الشئون الإلهية المغيبة ما كان يعيبهم أن يحببوا الناس فى الله، ويرفعوهم إلى حضرته، بأسلوب علمى محكم.

لقد كان ذلك ـ والله ـ أجدى على الإسلام وأهله، من بحوثهم العقيمة فى الذات والصفات.

إن العناوين لا تهمنى، وإنما يهمنى الموضوع. يهمنى أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها فى هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد للقيادة، ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم»[1].

---

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ص ١٣١ ـ ١٣٤.

٢ ـ العدل الاجتماعى

كان «الظلم الاجتماعى» أول ما استلفت نظر الشيخ الغزالى، وشغل قلبه وفكره. فقد نشأ فى بيئة رأى فيها آثار هذا الظلم صارخة، حيث الإقطاعيات، وتفاتيش الخاصة الملكية، تتحكم فى الفلاحين الكادحين، تحكم السادة فى العبيد. وشاهد الكروش المنتفخة، وهى تسمن وتسمن على لحوم المهزولين المتعبين.

لاحظ الشيخ الأولاد الصغار تستخدمهم الدوائر الزراعية فى تنقية الزروع ـ وبخاصة القطن ـ من أسراب الدود المهاجم لها، وفى جنيها أيضا. فتستوردهم من القرى الفقيرة ـ عمال التراحيل ـ وتشترى عرقهم وجهدهم وغربتهم بأبخس الأثمان! ومع هذا لا تصل هذه الأجور إلى مستحقيها كاملة، فإن السماسرة يفرضون عليها ضرائبهم، ويسرقون منها ما يمكن الاستيلاء عليه، وهذا حرام لا شك فيه.

يقول الشيخ: «فهل تدرى مكاتب العمل الحكومية شيئا عن هذه الأحوال؟ إن هؤلاء الأولاد يقضون أيام عملهم ولياليها، يطعمون شر مطعم، ويبيتون شر مبيت، ثم يعودون إلى قراهم المتلهفة لمقدمهم، وقد نال منهم الإعياء، وأصبحوا فريسة سهلة للأمراض المتوطنة، أو للعلل الوافدة. ولولا إلحاح الحاجة، وعض الفقر، ما فرط الآباء فى فلذات أكبادهم بهذا الهوان!

وإلى جانب هؤلاء الأطفال المطالبين بالتكسب منذ نعومة أظفارهم ـ وما أرى أظفارهم إلا خشنة من ساعة الميلاد! ـ يوجد صنف آخر من الفلاحين، هم سكان العزب والقرى التى سقطت بما فيها ومن فيها، بين مخالب أصحاب الإقطاعيات الشاسعة، كما تسقط البلاد المهزومة فى أيدى الجيوش الغازية! وهؤلاء يجدون معايشهم المحدودة منتظمة بنوع انتظام ما داموا قادرين على خدمة الأرض وسادتها. . والويل لهم إن أصابهم مرض. لقد اضطرب مستقبلهم، وخيبت آمالهم. فهم فى بيوت لا يملكونها، وفى زراعة لا يملكونها، ووراء حيوانات لا يملكونها. ومعنى عجزهم عن العمل أن يخرجوا هم وأولادهم ونساؤهم، ويتركوا خلفهم هذا كله لرب الأرض المحظوظ!! وما من ذى نعمة من هؤلاء الملاك البطرين إلا والفلاح التعس رب نعمته، ومصدر ثروته، ومتكأ وجاهته، غير أن الفلاح محروم من هذا الذى صنعت يداه، وهو منه قريب، كما تحرم الإبل فى الصحراء من الماء محمولا على ظهورها، وهى تكاد تهلك عطشا!

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول!

وثم صنف آخر من الفلاحين هم مستأجرو الأرض من ملاكها الصغار أو الكبار. والظاهرة الفذة: أن هذه الإيجارات قلما تنتهى بخير إلى جانب الرجل المرهق فيها. فإما عاش المستأجر من غلتها كفافا لا له ولا عليه. وإما استدان للوفاء بحقوقها المربوطة بعنقه، وربما باع فيها بعض أملاكه الشخصية، بعد مآس تشهدها المحاكم ومحاضر الحجز، ويتوسط فيها أهل الخير الشر»[1].

لقد رأى الشيخ من النقائض التى تقع فى مصر وأشباهها من البلاد المنكوبة بالمظالم الاجتماعية والسياسية: أن هناك أقواما يعملون كثيرا ولا يملكون شيئا قط، وأقواما يملكون كثيرا ولا يعملون شيئا قط! وربما وجدت الرجل يقضى العمر الطويل يحول الطين ورودا ورياحين، ويشقى هو وأولاده أجمعون، ليخرجوا المخبوء من تربة هذه الأرض، فيمزجون دمهم ببقلها وفومها وعدسها وبصلها، ويحرمون منه! والعلة فى هذه النقائض: أن هذا ورث، وهذا لم يرث! وقد علمت كيف بدأت هذه الموروثات وكيف آلت إلى أصحابها[2].

كان الغزالى بقلبه ومشاعره وعقله مع الطبقات الكادحة. إنها أحب الطبقات إلى الله، وأ-ءقها بالحياة الكريمة، وأجدرها بالمستقبل الباسم.. احتفى بها الإسلام وعمل على توسيع دائرتها، حتى تشمل الناس قاطبة. فلا يبقى فيهم عاطل. وعَدّ الأنبياء عمالا يأكلون من كسب أيديهم، وجعل شرار الناس أولئك القاعدين من غير عمل، والطاعمين من غير جهد، الناعمين من غير حق، المشتغلين بالثرثرة لتضييع الفراغ.

لا عجب أن كان أول ما خط قلم الغزالى عن «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».

ريادة الشيخ فى الكتابة الاقتصادية فى الإسلام:

كان الشيخ فى العقد الثالث من عمره عندما بدأ الكتابة فى هذا الجانب البكر، وكان فيه رائدا بحق. ولهذا نجد كتاباته أشبه بصيحات توقظ النيام، ومشاعل تضىء الطريق للسائرين أو السارين فى الظلام. فإن كان ينقصها المنهجية أو العلمية (الأكاديمية) فلم ينقصها النظر السليم، والفكر القويم، والفقه المستقيم: الفقه لدين الله ودنيا الناس معا.

---

(١) انظر: الإسلام والمناهج الاشتراكية: ص ١٥٩ ـ ١٦٢، ط ثانية، دار الكتاب العربى بمصر.
(٢) سنعرض من رأى الغزالى فيما حدث للملكية فى مصر فى فصل «الغزالى والفقه»

وقد عبر الشيخ عن ذلك فى بعض كتبه، معلنا عن عذره فى هذا اللون من الكتابة. وذلك فى كتابه: «قذائف الحق». يقول حفظه الله:

«فى مواجهة التيارات الفكرية الهاجمة علينا أصدرت عدة مؤلفات تتحدث عن النظام الاقتصادى الإسلامى، كما تصورته من كتاب الله وسنة رسوله وتطبيقات الخلافة الراشدة، وكان يغلب علىّ ـ وأنا أقدم هذا التصور ـ أمران:

١ ـ اطلاع المثقفين المعاصرين من خريجى المعاهد المدنية على الجوانب المضيئة من تراثنا، والمغنية عما سواها، حتى يكون تعلقهم بدينهم لا بغيره.

٢ ـ ثم الإزراء على الأوضاع المعوجة السائدة، ورفض السناد الدينى الذى تنتحله لنفسها.

وأعترف بأنى تجوزت فى التعبير أحيانا، وقبلت بعض العناوين الشائعة «كالديمقراطية» فى ميدان الحكم، و«الاشتراكية» فى ميدان الاقتصاد، لا لإعجابى بهذه العناوين، ولكن لأجعل منها جسرا يعبر عليه الكثيرون إلى الإسلام نفسه، أى أنى أريد نقل «الديمقراطيين» و«الاشتراكيين» إلى الإسلام بعدما أوضحته وأبرزت معالمه، لا أنى أريد صبغ الإسلام بصبغة أجنبية، أو نقله إلى مذاهب مستوردة. . .

وقد جاء من بعدى الأستاذان «سيد قطب» و«مصطفى السباعى» ـ عليهما رحمة الله ـ فألف الأول «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» وألف الأخير «اشتراكية الإسلام»، وهما يقصدان ما قصدت إليه من رد المفتونين بالمبادئ الجديدة إلى مواريث أسمى وأغنى. .

وربما كان ما كتباه أفضل مما كتبته أنا وأكثر تنظيما.

وعذرى أننى كنت رائدا تدمى أظافرى فى الاكتشاف والتدوين، فإذا جاء من بعدى ووجد حقائق ممهدة كان على تنسيقها أقدر وعلى صوغها أدق!!»(١).

ويحسن بنا أن ننقل هنا بعض هذه النظرات المبكرة للشيخ، الدالة على مبلغ وعيه بهذه القضية الكبيرة، وكيف ينبغى أن تعالج من صيدلية الإسلام. وقد ذكرنا شيئا من ذلك فى الفصل الماضى (الغزالى والفقه):

---

(١) قذائف الحق: ص ١٥٧، الطبعة الرابعة.

حق الناس فى المال:

تحت عنوان «حق الإنسان فى المال» كتب الشيخ يقول:

«لا يجوز أن يبقى رجل من غير دخل ـ قليل أو كثير ـ يكفل له المستوى الواجب لمعيشته، وعلى المجتمع الديِّن أن ينظم أموره تنظيما يؤدى إلى هذه النتيجة المحتومة، وإلا كان مجتمعا لا دين له، وفى ذلك يقول الرسول: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى». وقد أفتى ابن حزم وغيره من العلماء، بأنه إذا مات رجل جوعا فى بلد عُدّ أهله قتلة، وأخذت منهم دية القتيل! وقد عَدّ القرآن أنه من التكذيب بالدين أن تدعّ اليتيم، وألا تحض على طعام المسكين، فكيف يكون رأى القرآن فى بلاد لا تحض على طعام المسكين فقط بل هى تصنع الفقر والمسكنة، وتخرج إلى المجتمع الإنسانى ألوف الفقراء والمساكين، فكأن أنظمتها الاقتصادية آلات جبارة تصوغ البؤس فى قوالب من أبناء آدم. ثم ترمى بهم على أفاريز الطرق وفى خرائب الأبنية أو بين جدران السجون والملاجئ والمستشفيات!

هل نسمى هذا إلا أنه كفر بالدين، وإنكار لنصوصه وقواعده ومبادئه؟ بلى، وأصحاب هذه النظم هم أصحاب الميسرة[1] فى الدار الآخرة: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٣٤].

والمال الذى يكفى لإذهاب العيْلة واستئصال الحرمان وإشاعة فضل الله على عباده يجب إخراجه ـ مهما عظم ـ من ثروات الأغنياء ولو تجاوز تجاوزا بعيدا مقادير الزكاة المفروضة فمقادير الزكاة ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه، وقد ورد عن النبى: «إن فى المال حقا غير الزكاة».

ولنا كلام يأتى بعد فى أنصبة الزكاة التى فرضها الشارع. غير أننا نلفت النظر إلى أن الزكاة فى صدر الإسلام، لم تكن المصدر الوحيد، الذى رصد لمحاربة الفقر واستئصال شأفته. فقد كانت أموال الفىء والغنائم والخراج مصادر أخرى غزيرة النفع، تعمل

---

(١) أحزاب الميسرة الآن هم المعروفون بالميول الاشتراكية (اليساريون).

عملها الواسع فى تفريج الضوائق وسد حاجات اليتامى والمساكين والمعوزين. فإذا جفت بعض المنابع كان على المنابع الباقية أن تحمل العبء كاملا، وعلى الدولة أن تستنبط من موارد المال، ما توازن به شئون المجتمع وتقيم به مصالح الناس. والدين لها فى كل ذلك ظهير.

وإذا كانت الغاية التى شرعت من أجلها الزكاة هى تحرير الفقراء من قيود الفاقة وإطلاق إنسانيتهم من إسارها الحالك، فلنحقق هذه الغاية كاملة ولنحمل ما تفرضه علينا من تكاليف قليلة أو كثيرة! لكن إبقاء كثير من الناس صرعى للفقر والمسكنة كان ـ والحق يقال ـ هدف أكثر الحكومات المتتابعة فى العصور السابقة واللاحقة. إذ إن تجويع الجماهير بعض الدعائم التى تقوم عليها سياسة الظلم والظلام، ومن هنا انتشر الفقر انتشارا ذريعا فى الشرق الإسلامى، وسخر الدين ورجاله لحمل الناس على قبوله، واستساغته، وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى تفسيرا سقيما نسى الناس معه حقوقهم، وحياتهم وجهلوا دنياهم وأخراهم، وحسبوا الفقر فى الدنيا سبيلا إلى الغنى فى الآخرة كما أسلفنا القول. ونحن لا ننكر أن هناك آثارا دينية تحمد الفقر وتنوه بشأنه، ولكن ما دلالة هذا وما معناه؟ هل إذا قال شاعر:

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

قلنا: إن الشدائد خير... وألفنا مصلحة أو وزارة نسميها وزارة الشدائد، لتذيق الناس لباس الجوع والخوف!! وإذا قال القرآن الكريم في وصف حديث الإفك الذى طعن به شرف السيدة عائشة ـ صانها الله وكرمها ـ: ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ١١] قلنا: إن الإفك خير وألفنا جماعة لترويج الزور ورمى الناس به، وتصبير الناس عليه!! وإذا وقعنا على حديث النبى ﷺ يمدح الفقر على النحو الذى عزيت به السيدة المتهمة بالإفك؛ وجدنا من المتدينين من يؤلف طوائف من المتسكعين والمتبطلين ليعيشوا فى الدنيا فقراء بائسين!!»[١].

منهج الدين:

وتحت عنوان «منهج الدين»، يعنى الإسلام، كتب الغزالى يقول:

«الإسلام ـ كدين ـ له تعبيرات وتوجيهات خاصة، تمتاز بطابعها الذى يقرن التجارة

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية: ص ٨٩ـ٩١، الطبعة الثانية ١٩٥٠، دار الكتاب العربى بمصر.

بالخلق، والأعمال بالعقيدة، والعقوبات الزاجرة فى الدنيا بالأجزية المعدة فى الآخرة. ولا يستغرب منه أن يلجأ إلى وسائل التربية النفسية أولا، ثم إلى الأحكام التشريعية ثانيا، ليصل إلى أغراضه الواضحة. فإن كان فى أحكامه إجمال، فعلى الحاكم أن يضع لها من التفاصيل ما يصل بها إلى الأغراض المرسومة المعلومة. ومنهج الدين فى محاربة الربا والاحتكار والاستغلال بين. فإذا لجأ إلى مكافحة هذه الآفات بالوعيد واللعن فليست هذه وسائله الأولى والأخيرة.

إن الإسلام يبغى أن ينقى المجتمع من هذه الشوائب، وقد ظهر أن الإملاق إلى جانب الترف يولدان الربا، وأن موارد الإنتاج المهملة إلى جانب الطبقات المستهلكة المضيعة تلد حتما شركات الاحتكار المستغلة، وضنك المعايش المذلة.

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد!

وهذه وتلك لا تعيش إلا فى ظلال الاقتصاد الرأسمالى، والتقسيم الإقطاعى، والاستعمار الداخلى والخارجى. وهل تنشب الحروب فى العالم إلا لهذه الأسباب وما ينشأ عنها من أطماع؟ وهل يشيع الاضطراب والاحتراب إلا من تقاتل الرأسماليين على استغلال الضعفاء وانتهاب ما بأيديهم من خيرات؟ أفتبقى الدوافع إلى الحروب بهذه الشدة لو وقر فى الأذهان أن كل إنسان على ظهر الأرض يجب أن تكفل حقوقه المادية والمعنوية، ثم ينتهى من تاريخ البشرية إلى غير رجعة طور الربا والاحتكار والاستغلال؟

إن الإسلام من هذه الناحية قد قال كلمته، وأعلن دعوته، وأنصف الناس من أنفسهم، ومن البرامج التى توضع لهم، وذكر تاريخ الأولين لما ارتكبوا هذه المظالم لتكون منه عظة للآخرين»(1) ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (160) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

---

(١) الإسلام والمناهج الاشتراكية، الطبعة الثانية ١٩٥١م، دار الكتاب العربى بمصر.

٣ـ الحرية ومقاومة الاستبداد السياسى

الغزالى والحرية:

الشيخ الغزالى من عشاق الحرية ودعاتها، وهى من العناصر الأساسية فى برنامجه الإصلاحى. وهو عدو الاستبداد، أيا كانت صورته، ولا يقبله بحال، ولو تسربل باسم الدين. بل يرى أن الاستبداد باسم الدين أشد خطرا من غيره.

من أجل ذلك قسا على بعض مراحل التاريخ الإسلامى، حين رأى الشورى معطلة، والخلافة تنتقل بحكم الوراثة إلى سفيه أو صبى لم يبلغ الحلم.

وحين قرأ فى كتاب: «العواصم من القواصم» للإمام أبى بكر بن العربى، أن البيعة تنعقد باثنين أو بواحد، لم يطق صبرا على هذا الكلام الذى عَدّه فارغا لا وزن له، ولا دليل عليه.

وهو ما جعل العلامة محب الدين الخطيب يعقب عليه فى مجلة «الإخوان المسلمين» تحت عنوان «هل الحكم الشرعى كلام فارغ؟».

ورد عليه الشيخ الغزالى بمقال بعنوان «هل هو حكم شرعى؟».

والمقالان يمثلان نموذجا يحتذى فى حوار العلماء، الذين يقدر بعضهم بعضا، وإن كان الخطيب يمثل هدوء الشيوخ، والغزالى يمثل ثورة الشباب.

وأعظم ما يضيق به الشيخ أن يسمع أو يقرأ من بعض علماء الدين من يقول فى عصرنا: إن الشورى مندوبة وليست واجبة، وهى معلمة وليست ملزمة!

وحديثه فى مقاومة الاستبداد والتسلط على الشعوب بالقهر والجبروت، حديث طويل دافق جاد.

وقد عرفنا من أوائل كتبه «الإسلام والاستبداد السياسى» وهو مجموعة محاضرات ألقاها فى معتقل الطور سنة ١٩٤٩م.

ولكنه تناول الموضوع فى كتب عدة، وبأساليب شتى؛ لأنه يمثل دعامة أساسية فى فكره الإصلاحى والدعوى، وفى فقهه السياسى.

حرب على الفساد السياسي:

تحدث الشيخ عن الفساد السياسى فى كتابه: «هموم داعية» فقال: «الفساد السياسى مرض قديم فى تاريخنا. هناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة.. لأن أهواءهم طافحة، وشهواتهم جامحة.. لا يؤتمنون على دين الله.. ولا دنيا الناس.. ومع ذلك فقد عاشوا آمادا طويلة.

وقد عاصرت حكاما تدعو عليهم الشعوب، ولا تراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشمه. انتفع بهم الاستعمار الشرقى والغربى على سواء فى منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والاحتكام إلى شرائعه. بل انتفع بهم فى إفساد البيئة حتى لا تنبت فيها كرامة فردية، ولا حرية اجتماعية، أيا كان لونها.

ومع هذا البلاء، فقد رأيت منتسبين إلى الدعوة الإسلامية يصورون الحكم الإسلامى المنشود تصويرا يثير الاشمئزاز كله.. قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأى الكثرة أو رأى القلة، أو يجنح إلى رأى عنده وحده..»[1].

أهذه هى الشورى التى قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟!

ووضع بعضهم دستورا إسلاميا أعطى فيه رأس الدولة سلطات خرافية لا يعرفها شرق ولا غرب[2].. وعندما تدبرت هذا الكلام وجدت أن معايب ثلاثة تلتقى فيه:

الأول: سوء فهم لمعنى الشورى، وغباء مطلق فى إنشاء أجهزتها المشرفة على شئون الحكم.

الثانى: عمى عن الأحداث التى أصابت المسلمين فى أثناء القرون الطوال، والتى نشأت عن استبداد الفرد، وغياب مجالس الشورى.

الثالث: جهل بالأصول الإنسانية التى نهضت عليها الحضارة الحديثة، والرقابة الصارمة التى وضعت على تصرفات الحاكمين.

فإذا استقبل المسلمون القرن الخامس عشر، وفهم عدد منهم لوظيفة الحكم لا يتجاوز هذا النطاق العقيم، فكيف تسير الأمة، وأين تتجه؟!

---

(١) رددنا على هذا فى فتوانا عن «الإسلام والديمقراطية» فى الجزء الثانى من كتابنا: «فتاوى معاصرة». وفى كتابنا «من فقه الدولة فى الإسلام» طبعة دار الشروق بالقاهرة.

(٢) يشير إلى الدستور الذى وضعه «حزب التحرير الإسلامى» وأصدره الشيخ تقى الدين النبهانى مؤسس الحزب فى كتابه «نظام الإسلام».

إن الفقه الدستورى فى أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال الحجاج، وعبيدالله بن زياد، وبعض ملوك بنى العباس، وبعض سلاطين آل عثمان.

ويجب أن يمنع عن الخوض فيه شيوخ يقولون: إن الرسول ﷺ افتات على الصحابة فى عمرة الحديبية. فمن حق غيره أن يفتات على الناس ويتجاوز آراءهم.

إن ذلك الضلال فى تصوير الإسلام يفقد الإسلام حق الحياة.

والمعروف أن الرسول ﷺ احترم الشورى، ونزل على حكمها فيما لا وحى فيه، وأن قصة الحديبية تصرف فيها الرسول ﷺ على النحو المروى لما حبس ناقته حابس الفيل، وأحس أن الله تعالى يلزمه بمسلك يجنب الحرم ويلات حرب سيئة.

فكيف يجيء من يعطى الرؤساء حق الحرب والسلام، بعيدا عن الشورى؛ لأن الرسول ﷺ فعل ذلك يوما ما فى مكة التى يعلل القرآن منع الحرب فيها بقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٤، ٢٥].

وظاهر أن الرسول ﷺ اتجه مع توجيه السماء له.

وظاهر كذلك أن الشورى تكون حيث لا نص فيه يوجه، وأن الأمة هى مصدر السلطة حيث لا نص بداهة.

ويؤسفنى أن الكلام عن تكوين الدولة عندنا تعرض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية، أو على حظ من الزلفى يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان.

وإصلاح أداة الحكم وأصله الأول يحتاج إلى فقهاء أتقياء أذكياء»[1] ا. هـ.

وفى كتاب آخر، رد على الذين اعترضوا على اتخاذ أساليب الديمقراطية وضماناتها لكبح جماح الحكام المتسلطين، والذين قالوا: إن ذلك من معالم الديمقراطية (الغربية)، ونحن نرفض استيراد مبادئ أجنبية لتحكم أمتنا، حسبنا ما لدينا.

---

(١) هموم داعية: ص ٢٥٠-٢٥٣.

قال الشيخ: «هذا كلام جميل، وإنه ليسرنى أن نحسن اتباع ما هدانا الله به، غير أنه من الإنصاف أن نعرف وجهة النظر الكاملة عند من طبقوا النظام الديمقراطى فى الغرب، وعند من حاولوا الاقتباس منه هنا، حتى لا يعترض الدعاة بجهالة ما لا يدركون.

إن الدساتير هناك تتضمن مبادئ أو نصوصا ثابتة ليست موضع جدل، ولا تؤخذ عليها آراء، وتتضمن شئونا أخرى توضح ما يناقش، ويقع فيه التأييد والتفنيد.

والأقطار الإسلامية التى حاولت التقليد عندما تجعل الإسلام دين الدولة، والفقه الإسلامى مصدر التشريع، فإن النقاش سيكون بعد ذلك فى الشئون الدنيوية، وفى المصالح المرسلة وفى تقويم أفعال الرجال تزكية أو بخسا، وتلك كلها لا حرج فى تناولها، وكما قيل: لا اجتهاد مع النص، وبعيدا عن دوائر النصوص تتفاوت الأنظار وتتعدد الآراء.

سيقال: إذا سلمنا بهذا الذى قلته كله، فنحن زهاد فى جلب عناوين أجنبية لنظمنا الإسلامية.

وهذا والله جميل، يبقى أن نكشف للناس ما لدينا، ونقول لهم: هذا عوض عن ذاك. إننا نرفض ذاك الدخيل، ونقدم بدله هذا الأصيل: الشورى الإسلامية بدل الديمقراطية الغربية.

وعلى العلماء والدعاة أن يكشفوا أسباب التفضيل، وجوانب الترجيح..

وقلت أداعب أحد أولئك المحافظين أولى الغيرة: هل الشورى ملزمة للحاكم؟ فأجاب: لا!!

قلت: كيف تتم الشورى؟ قال: مع أهل الحل والعقد.

قلت: كيف يتكون مجلسهم؟

فسكت غير قليل ثم أجاب: يكونه الحاكم!

قلت: مستشارون يختارهم الحاكم برغبته، وله حق ألا يلتزم برأيهم، تلك هى الديمقراطية الدينية؟!!

يا صديقى إن الديمقراطية الغربية - وأنا أكره الاستيراد - امتدت فى الفراغ الذى صنعتموه أنتم، ووجدت لها عشاقا؛ لأن تصوركم للحقائق الدينية والمدنية بالغ

التشويه، وملاحظتكم لطبائع البشر وتاريخ الأمم وهى تنشد الرحمة والعدالة تكاد تكون معدومة.

إنكم تحسنون الإماتة ولا تحسنون الإحياء، تقولون باسم الله: هذا حرام، ولا تجيئون بالحلال الذى يشبع النهمة، ويسد طريق المعصية!

ماذا لو فكرتم فى طريقة معقولة يتكون بها أهل الحل والعقد؟ وفى مواضع كثيرة تكون الشورى فيها ملزمة، وماذا لو استفدنا من تجارب الآخرين؟» ا. هـ.

لا تؤخذ الديمقراطية على إطلاقها:

وأحب أن أؤكد هنا حقيقة مهمة، وهى أن دعوة الشيخ إلى الاستفادة من الديمقراطية، لا تعنى أخذها على إطلاقها، فهو يفرق بين الوسائل والأهداف، وبين الضمانات والمبادئ.

ولهذا يعيب على الديمقراطية أنها تبيح المنكرات، ولا تقف عند حدود الله.

يقول الشيخ:

«إننى أومن بالشورى، وأزدرى الاستبداد السياسى من أعماق قلبى، وأرد إليه أغلب هزائم أمتنا خلال تاريخها..

وأرمق الديمقراطية الغربية فأحسد أصحابها على مناقشة الآراء بحرية، وعلى استكانة الحكام للحق، وعلى اعتزاز الأفراد بكراماتهم. وكنت أهمس إلى نفسى: أما يجىء يوم يظفر فيه المسلمون بمثل هذه النعمة؟!

بَيْدَ أننى مسلم، لا يتقدم شىء أبدا على ولائى لله، وقد تابعت مناقشات مجلس العموم البريطانى فى مسألة إلغاء عقوبة الإعدام، ورأيت كيف حاولت رئيسة الوزراء الاقتصاص من القتلة، وكيف خذلها أغلب أعضاء المجلس، وأصروا على إلغاء عقوبة الإعدام.

قلت: هذا هو الفرق بين الشورى عندنا وبين الشورى عندهم. نحن نرى أنه لا اجتهاد مع النص، ولا شورى مع كلام الله ورسوله، وهؤلاء ساء ظنهم بالدين كله، وقرروا البحث بعقولهم عن مصالحهم، وكفر المغربيين بالدين يرجع إلى أسباب نابعة من البيئة لديهم. لا نشرحها هنا»[1].

---

(١) الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا: ص ٦٢، ٦٣.

ضياع الحرية من وراء التخلف:

ومن حفاوة الشيخ بالحرية، ومعرفته بقيمتها فى الحياة إذا وجدت، وبأثرها إذا ضاعت، جعل ضياعها، وغلبة الاستبداد عليها هو السر وراء تخلفنا. استمع إليه يقول:

«بدأت صناعة الطيران فى مصر والهند فى سَنة واحدة، كما بدأت بحوث الذرة تقريبا فى السنة نفسها، وأكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم، والاستفادة من التقدم الأوربى فى هذا المجال.

وبعد ربع قرن نجح الهنود فى إنتاج طائرة هندية، كما نجحوا فى صنع قنبلة ذرية!

أما عندنا فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات معدودة، وتجمد العمل فى وكالة الطاقة الذرية، وإلى الآن لم نخط إلى الأمام خطوة مقدورة!

ما سبب هذا الفشل؟ هل العقل الهندى أذكى من العقل المصرى؟ لم يقل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين!

السبب أن استقرار الحريات فى الهند أتاح لكل ذى كفاية أن يعمل وأن ينجح.. وأن النظام الديمقراطى السائد أقام سباقا لا حواجز فيه بين أصحاب المواهب، فانطلقوا بين عوامل التقرير والتشجيع يخدمون أمتهم، ويتبارون فى إعلاء شأنها.

والنظام الديمقراطى فى الهند «المتخلفة» جعل الحكومة المستولية على السلطة تجرى الانتخابات، فتسقط فيها، وتأتى بالسيدة المعارضة «أنديرا غاندى» لتحكم، وكذلك يتكرر الأمر مع السيدة نفسها فتضع مقاليد الحكم فى أيد أخرى؛ لأن الأمة رأت ذلك.

إن امرأة تحكم ـ ومعها جهاز شورى دقيق ـ أقرب إلى الله، وأحنى على الناس، من مستبد يقف الغراب على شواربه، ويزعم أنه أحاط بكل شىء علما، وهو لا يدرى شيئا!»[1].

---

(١) علل وأدوية: ص ١٩١.

٤ ـ تحرير المرأة والأسرة

المرأة نصف الوجود البشرى، إن لم تكن أكثر. وهى ـ بالنسبة للرجل ـ أمه وابنته وأخته وزوجه وعمته وخالته. ولا قيام للحياة البشرية إلا بالجنسين. فلابد أن ينهضا بعبئها معا، وفقا لفطرة الله التى فطر عليها الناس، وهداية السماء التى أوحى بها الله.

وقد ظلمت الجاهليات المختلفة المرأة، وحرمتها حقوقها الفطرية، ونظرت إليها نظرة فيها كثير من الإهانة أو الاتهام أو الريبة. حتى جاء الإسلام فانتشلها من ظلم الجاهلية وظلامها، ورد إليها اعتبارها، فكرمها إنسانا، وكرمها أنثى، وكرمها ابنة، وكرمها زوجة، وكرمها أما، وكرمها عضوا فى المجتمع.

فهى مكلفة مثل الرجل، مجزية فى الدنيا والآخرة مثل ما يجزى، يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. ويقول سبحانه: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة، أى كلاهما مكمل لصاحبه وليس خصما له.

ويقول عز وجل: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

فالمرأة مطالبة كالرجل بالوظائف الاجتماعية والدعوية، وفى مقدمتها: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فليست هذه وظائف رجالية.

والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يقول: «إنما النساء شقائق الرجال»(١).

ومع وضوح التعاليم القرآنية والنبوية فى شأن المرأة، فإن المسلمين فى أعصار التخلف والانهزام الحضارى ظلموا المرأة، وأضاعوا كثيرا من حقوقها وجعلوها سجينة بيتها، جاهلة بدينها ودنياها.

ظلمها كثير من الآباء، فزوجوها بغير رضاها وإذنها، ولم يعطوها حقها فى الميراث، وهو فريضة من الله. وظلمها كثير من الأزواج، فحرموها الذهاب إلى المسجد، بل منعوها حتى من زيارة الأبوين.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عائشة، والبزار عن أنس، كما فى صحيح الجامع الصغير.

وجار عليها المجتمع، وعَدّها مجرد آلة لمتعة الرجل، وقال بعض الناس: إن مهمتها أن تلد الرجال!

هذا الوضع المزرى للمرأة المسلمة هو الذى غاظ الشيخ الغزالى، وعمل على مقاومته، وإصلاح ما أفسده الزمن من حال المرأة المسلمة، وتحريرها من عسف الرجال وتحكمهم بغير حق. ولم أر من المفكرين الإسلاميين من اهتم بأمر المرأة وإنصافها مثل الشيخ الغزالى.

وهو يريد أن يحرر المرأة من نوعين من التقاليد الدخيلة على الإسلام:

١ - التقاليد الموروثة من عهود الانحطاط فى الحضارة الإسلامية، حيث اختفت التعاليم الصحيحة، التى جاءت بها النبوة الهادية، لتحل محلها تقاليد صنعتها أوهام البشر وأهواؤهم ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠].

٢ - التقاليد الوافدة مع الغزو الفكرى، والاستعمار الثقافى، وهى تقاليد مناقضة لتلك التقاليد البالية. تلك تريد أن تسجنها، وهذه تريد أن تعريها. وكلتاهما ضد الفطرة والوحى.

انتصار للمرأة باسم الإسلام:

انتصر الغزالى للمرأة ودافع عنها باسم الإسلام وشريعته، وشهر سيفه - وسيفه قلمه - فى وجوه الذين حرموها حقوقها التى فرضها لها الإسلام.

وإذا نظرنا إلى الغزالى الداعية، أو الغزالى المصلح، أو الغزالى المفسر، أو الغزالى الفقيه، فسنجد أنه فى كل مجال من هذه المجالات منصف للمرأة، محام بحرارة عنها.

آداب اللقاء بين الجنسين:

يرفض الغزالى حبس المرأة بين جدران بيتها الأربعة، فلا ترى رجلا ولا يراها رجل. ويرى أن هذه شائعة مكذوبة فى مجال العلم الشرعى. يقول حفظه الله:

«الفتوى الشائعة بين بعض المسلمين والمتناقَلة بين خصوم الإسلام: أن الإسلام يقيم أسوارا عالية بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر، فالرؤية المجردة محرمة!

وقد رجعت إلى القرآن الكريم والسنن المتواترة والصحيحة، فوجدت أن هذه الشائعة

مكذوبة، وأن الرؤية العادية لا شيء فيها، وإنما المرفوض هو الرؤية الجريئة والوضيعة التى تبحث عن الإثم! ومن ثم أمر الدين بغض البصر، أمر بذلك الرجال والنساء على السواء، فإذا حدث أن وقع البصر على شيء يثير، وجب على المسلم ألا يعاود النظر، وأن يحصن ضميره من الريبة وشتى الوساوس.

فالمسجد والشارع وأرجاء المجتمع يوجد فيها الجنسان تحكمهما هذه الآداب: عدم التبرج والإثارة، غض البصر والتزام العفة، انشغال كل مسلم ومسلمة بالأغراض المشروعة التى خرج من أجلها..

وقد تواتر ذلك فى حياة السلف الأول، فرئيت المرأة فى المسجد، بل تبعت الجيوش المقاتلة، يحيط بها سياج من آداب الإسلام المقررة.

وأعرف أن هناك آثارا واهية، نبذها أصحاب الدقة العلمية فى تمحيص المرويات، ولم يذكرها عالم يروى الصحاح، ولا احترمها فقيه ينقل حقائق الإسلام، مثل ما روى عن فاطمة: أن المرأة لا ترى رجلا ولا يراها رجل، ومثل حديث منع الرسول بعض نسائه أن يرين عبدالله بن أم مكتوم! وتلك كلها أخبار لا تساوى الحبر الذى كتبت به، وهى ظاهرة التناقض مع مقررات الكتاب والسنة المقطوع بثبوتها ودلالتها.

ولكن هذه المرويات المنكرة من الناحية العلمية هى التى صنعت الفكر الإسلامى فى العصور الأخيرة، وفرضت الأمية والتخلف لا على المرأة وحدها، بل على نظام الأسرة وكيان المجتمع وطبيعة التشريع.

ووجد من خطباء المساجد من يقول: المرأة لا تخرج من بيتها إلا إلى الزوج أو إلى القبر!

ومن أيام جاءتنى امرأة ثاكلة تقول: إن فؤادها يحترق من الحزن، وإنها تريد أن تزو قبر ابنها.. قلت لها: ولماذا لم تزوريه؟ قالت: إن إمام المسجد ذكر أن اللعنة تنزل على من يفعل ذلك! قلت لها: زورى قبر ابنك وأنت محتسبة صابرة، ثم عودى إلى بيتك وأنت مسلِّمة بقضاء الله، ولك الأجر إن شاء الله. إن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما روى البخارى ـ لم ينه عن هذه الزيارة، ولا لام صاحبتها.

إن هناك عقولا معتلة، تتعشق الآثار المعتلة، وتبنى عليها ما تهوى من أحكام، والإسلام النقى برىء من هذه الانحرافات.

إننا فى عصر شاركت فيه المرأة الرجل غزو الفضاء، فلا يجوز أن نترك القاصرين يثيرون على ديننا التهم، وينقلون إلى الناس ما فى نفوسهم من علل»(١).

المرأة وصلاة الجماعة فى المسجد:

يرى الشيخ أن المسلمين فى عصور التخلف جاروا على المرأة، حتى إنهم حرموها من الذهاب إلى المساجد، مع ما للجماعة من أثر عميق فى سلوك الإنسان، فضلا عما يكون فى المسجد من دروس وعظات.

وهذا أمر بدأ مبكرا منذ عهد الصحابة، حتى إن عبدالله بن عمر ذكر الحديث الشريف: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(٢)، فقال له أحد أبنائه: «والله لنمنعهن، إنهن يتخذنه دخلا». يريد أنهن يجعلن الصلاة حيلة للخروج والريبة! فقال له أبوه: أقول: قال رسول الله.. وتقول: والله لنمنعهن!! والله لا كلمتك أبدا.. وهجره حتى مات رضى الله عنه.

ويرى الشيخ الغزالى أن المسلمين تركوا رواية الأب الصحابى الفقيه، واتبعوا رأى الابن العاق الجاهل!

يقول الشيخ:

«صح فى السنة: أن المرأة راعية فى بيتها وهى مسئولة عن رعيتها! ولا ريب فى أن شئون الأولاد، خصوصا الرضع، وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله، كل ذلك يحول دون انتظام المرأة فى الجماعات الخمس.

ولذلك نرى أن حضور الجماعات مطلوب منها بعد أن تفرغ من وظائف بيتها، فإذا قامت بما عليها فلا يجوز لرجلها أن يمنعها من الذهاب إلى المسجد، وقد جاء فى الحديث: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

ونحن موقنون بأن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ جعل أحد أبواب المسجد خاصا بالنساء، وأنه أقامهن فى الصفوف المؤخرة من المسجد ـ وذلك أصون لهن فى الركوع والسجود ـ وأنه زجر الرجال الذين يقتربون من صفوفهن، كما زجر النساء اللائى يتقدمن قريبا من صفوف الرجال...

---

(١) الحق المر: ٢/١١٨، ١١٩، ط. دار الشروق.

(٢) الحديث متفق عليه عن ابن عمر، كما فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، برقم (٢٥٤).

وقد بقيت صفوف النساء فى المسجد طيلة العهد النبوى وأيام الخلافة الراشدة، لم يشغب عليها شاغب، تبدأ مع الفجر وتنتهى عند العشاء. .

وربما قامت للنساء جماعات حاشدة لصلاة التراويح فى رمضان، ومعروف أن اشتراكهن فى صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام.

بيد أن الازدهار الذى أحدثه الإسلام فى عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول والتلاشى، فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة، كى يبقين على أميتهن الأولى!!

لحساب من تعود هذه الجاهلية؟

وعندما يفرض على نصف الأمة الجهل والعمى، فكيف تنشأ الأجيال المقبلة؟

ثم شاع حديث آخر يأبى على النساء حضور الجماعات كلها، بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة فى بيتها أن تختار المكان الموحش المهزول، فصلاتها فى سرداب أفضل من صلاتها فى الغرفة، وصلاتها فى الظلمة أفضل من صلاتها فى الضوء!!

وراوى هذا الحديث يطوِّح وراء ظهره بالسنن العملية المتواترة عن صاحب الرسالة، وينظر إلى المرأة المصلية وكأنها أذى يجب حصره فى أضيق نطاق وأبعده.

ولنقرأ هذا الحديث الغريب كما ذكره ابن خزيمة وغيره:

عن أم حميد امرأة أبى حميد الساعدى أنها جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله إنى أحب الصلاة معك. قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معى! وصلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك، وصلاتك فى حجرتك خير من صلاتك فى دارك، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى». قال الراوى: فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى شىء من بيتها وأظلمه، وكانت تصلى فيه حتى لقيت الله عز وجل!!

والبيت فى الحديث هو غرفة النوم، والحجرة غرفة الجلوس، والصلاة فى الأولى أفضل من الصلاة فى الأخرى!

والصلاة فى غرفة الجلوس أفضل من الصلاة فى عرصة الدار، وهى فى عرصة الدار أفضل من الصلاة فى مسجد الحى. .

وكلما ضاق المكان وبعد واستوحش كانت الصلاة فيه أفضل!

ويجعل ابن خزيمة عنوان الباب الذى ذكر فيه هذه القضايا: «صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى مسجد رسول الله». وما قول النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد» إنما أراد به صلاة الرجال دون صلاة النساء!!

والسؤال السريع: إن كان هذا الكلام صحيحا فلماذا ترك النبى النساء يشهدن الجماعات معه طوال عشر سنين من الفجر إلى العشاء؟ ولماذا خص أحد أبواب المسجد بدخولهن؟ ولماذا لم ينصحهن بالبقاء فى البيوت بدل هذه المعاناة الباطلة؟

ولماذا قصر صلاة الفجر على سورتين صغيرتين عندما سمع بكاء رضيع مع أمه حتى لا ينشغل قلبها؟

ولماذا قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»؟ ولماذا استبقت الخلافة الراشدة صفوف النساء فى المساجد بعد وفاة الرسول الكريم؟

إن ابن حزم أراح نفسه وأراح غيره عندما كذب أحاديث منع النساء من الصلاة فى المساجد، وعدها من الباطل!

وعلماء المصطلح يقولون: يُعَدّ الحديث شاذا إذا كان الثقة قد خالف به الأوثق.

فإذا كان المخالف ليس ثقة بل ضعيفا، فحديثه متروك أو منكر!

ولم يجئ فى أحد الصحيحين ما يفيد منع النساء من الصلاة فى المساجد.. فهذه الأحاديث مردودة كلها.. فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة والمشهورة؟ إن حديثه يستبعد ابتداء..

وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة، ولا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة..

وقد يُقبَل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت متبرجة، فإن الذهاب إلى المساجد ليس استعراضا للزينات، وبعثرة للفتن! إنه سعى لمرضاة الله، وغرس للتقوى..

وحجز النساء عن هذا الشر هو بتنفيذ وصاة رسول الله «... يخرجن تفلات» أى فى ملابس عادية وهيئة طبيعية، لا تعطر ولا تبختر..

أمـا إصـدار حكم عـام بتـحـريم المسـاجـد على النسـاء فـهـو مـسلك لا صلة له بالإسلام. . . »(١).

صوت المرأة ليس عورة:

كما يكذب الشيخ الغزالى بقوة الشائعة الأخرى التى تقول: إن صوت المرأة عورة! كتب يقول:

« كان شاب قريبا منى يكاد يتميز من الغيظ، ونحن نستمع إلى بحث تلقيه إحدى السيـدات. قلت له: مـا بك؟ هل فى الكلام خطأ؟ فرد على عـجل: أتقر هذا؟! أليس صوت المرأة عورة؟ فأجبت فى برود: هذا كذب لا أصل له فى دين الله.

اسمع حكم الإسـلام من كـتـاب الله. يقـول الله لأمـهـات المؤمنين إذا حـدثن أحدا: ﴿ . .فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. فهل يصمتن فلا ينبسن ببنت شفة لأن الصوت عورة؟ كلا: ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ ، أى ليكن الكلام طبيعيا ليست به نغمة مريبة ولا لحن مثير!

وعندما جاءت المؤمنات مهاجرات من مكة بعد عهد الحديبية عقد لهن امتحان شفوى لتعرف أحوالهن، هل هن فارات بدينهن حقا؟ أم لهن مآرب أخرى، فإذا تبين من النقاش إيمانهن قبلن فى المجتمع الإسلامى: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ [الممتحنة: ١٠]. ولم يدر بخلد أحد أن صوت المرأة عورة؟

وعندما جاءت المجادلة تشرح لرسول الله ﷺ قضيتها، وتراجعه فى الحكم، لم يقل لها: اسكتى إن صوتك عورة. . .

وعندما جاءت بنت شعيب ـ التى صارت زوجة لموسى فيما بعد ـ تقول له: ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٥] لم يقل لها موسى: كيف تتحدثين معى هكذا وصوت المرأة عورة؟!

وعندما دخلت ملكة سبأ قصر سليمان، وأراها العرش الذى استحضره من اليمن إلى القدس وسألها: ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾! [النمل: ٤٢]. قال المفسرون: عرف

---

(١) السنة النبوية' ص ٦١ ـ ٦٤.

من إجابتها ذكاءها لأنها مع إحساسها بأنه عرشها استبعدت أن يطير آلاف الأميال لتلقاه هنا! ولم يقل عالم ولا جاهل: إن صوتها عورة.

وعندما خرجت زينب بنت رسول الله على المسلمين في المسجد، وأعلنت أنها أجارت زوجها الذي أسره المسلمون في بدر، استمع الناس إلى الصوت الراجي المحزون، وقال الرسول الكريم في رقة: «لم نتفق على هذا وإن شئتم رددتم إليها زوجها». ولم يقل أحد: إن صوتها عورة..

إنني أكره من أعماق فؤادي علاقة المرأة بالرجل في الحضارة المادية التي أقامها الغرب ـ الصليبي والشيوعي ـ بيد أن هذه الحضارة سوف تبقى بأرجاسها وأدرانها ما بقي المتحدثون عن الإسلام يقدمونه بهذا الجهل والعمى!

إن صوت المرأة ليس عورة. العورة هي في هذا التفكير الذي لاسناد له، والذي يصرخ به شباب جهول، باسم الإسلام المظلوم»[1].

المرأة والوظائف العامة في المجتمع:

موقف الغزالي هنا هو الموقف الذي يتفق مع الفطرة السليمة، ومع تعاليم الدين الصحيح. فقد كتب يقول حفظه الله:

«أكره البيوت الخالية من رباتها! إن ربة البيت روح ينفث الهناءة والمودة في جنباته ويعين على تكوين إنسان سوى طيب.. وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة.

وإلى جانب هذه الحقيقة، فإني أكره وأد البنت طفلة، ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوة الخير لأمتها وأهلها!! فكيف نوفق بين الأمرين؟

لنتفق أولا على أن احتقار الأنوثة جريمة، وكذلك دفعها إلى الطرق لإجابة الحيوان الرابض في دماء بعض الناس.

يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه، بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة. ومطلوب أيضا توفير جو من التقى والعفاف تؤدي فيه المرأة ما قد تكلف به من عمل.

---

(١) الحق المرّ: ٢/١٢٨، ١٢٩.

-إذا كـان هناك مـائة ألف طبيب، أو مـائة ألف مـدرس، فـلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء. والمهم فى المجتمع المسلم قيام الآداب التى أوصت بها الشريعة، وصانت بها حدود الله، فلا تبرج ولا خلاعة، ولا مكان لاختلاط ماجن هابط، ولا مكان لخلوة بأجنبى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

على أن الأساس الذى ينبغى أن نرتبط به أو نظل قريبين منه هو البيت، إننى أشعر بقلق من ترك الأولاد للخدم، أو حتى لدور الحضانة.

إن أنفاس الأم عميقة الآثار فى إنضاج الفضائل وحماية النشء.

ويجب أن نبحث عن ألف وسيلة لتقريب المرأة من وظيفتها الأولى، وهذا ميسور لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح، وتركنا الانحراف والغلو..

أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة، وأعرف طبيبات ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن، وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله..

وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت فى الهزيمة المحزنة التى نزلت بنا، وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية لدينها.

كما أن امرأة يهودية هى التى قادت قومها، وأذلت نفرا من الساسة العرب لهم لحى وشوارب فى حرب الأيام الستة وفى حروب تالية!

وقد لاحظت فى الشمال الإفريقى وأقطار أخرى أن الراهبات وسيدات متزوجات وغير متزوجات يخدمن التنصير بحماسة واستبسال!

ولعلنا لا ننسى الطبيبة التى بقيت فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وهى تهدم على رءوس أصحابها، وتحملت أكل الموتى من الحيوانات والجثث، ثم خرجت ببعض الأطفال العرب آخر الحصار لتستكمل معالجة عللهم فى إنجلترا!

إن هناك نشاطا نسائيا عالميا فى ساحات شريفة رحبة، لا يجوز أن ننساه، لما يقع فى ساحات أخرى من تبذل وإسفاف.

وقد ذكرنى الجهاد الدينى والاجتماعى الذى تقوم به النساء غير المسلمات فى أرضنا أو وراء حدودنا، بالجهاد الكبير الذى قامت به نساء السلف الأول فى نصرة الإسلام.

لقد تحملن غربة الدين بشجاعة، وهاجرن وآوين عندما فرضت الهجرة والإيواء، وأقمن الصلوات رائحات غاديات إلى المسجد النبوى سنين عددا، وعندما احتاج الأمر إلى القتال قاتلن.

وقبل ذلك أسدين خدمات طبية - أعنّ فى المهام التى يحتاج إليها الجيش.

وقد ساء وضع المرأة فى القرون الأخيرة، وفرضت عليها الأمية والتخلف الإنسانى العام..

بل إننى أشعر بأن أحكاما قرآنية ثابتة أهملت كل الإهمال؛ لأنها تتصل بمصلحة المرأة، منها أنه قلما نالت امرأة ميراثها، وقلما استشيرت فى زواجها!

وبين كل مائة ألف طلاق يمكن أن يقع تمتيع مطلقة.. أما قوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤١] فهو كلام للتلاوة..

والتطويح بالزوجة لنزوة طارئة أمر عادى، أما قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٣٥] فحبر على ورق..

المرأة أنزل رتبة وأقل قيمة من أن ينعقد لأجلها مجلس صلح! إن الرغبة فى طردها لا يجوز أن تقاوم...!!

وقد نددت فى مكان آخر بأن خطيئة الرجل تغتفر، أما خطأ المرأة فدمها ثمن له!!

وقد استغل الاستعمار العالمى فى غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج المنكور، وشن على تعاليم الإسلام حربا ضارية! كأن الإسلام المظلوم هو المسئول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه...

والذى يثير الدهشة أن مدافعين عن الإسلام أو متحدثين باسمه وقفوا محامين عن هذه الفوضى الموروثة؛ لأنهم - بغباوة رائعة - ظنوا أن الإسلام هو هذه الفوضى! والجنون فنون والجهالة فنون!!»[1].

(١) السنة النبوية: ص ٥٢ - ٥٥. وانظر تفصيل رأى الغزالى فى تولى المرأة للمناصب العامة فى حديثنا عن «الغزالى والفقه»، الفصل الثامن.

٥ـ تصحيح التدين المغلوط

عنى مفكرنا الغزالى بتصحيح الفكر الديني، والقصور الدينى لدى المسلمين خاصتهم وعامتهم. وكان هذا بارزا بينا فى كتبه الأولى: «الإسلام والأوضاع». . «الإسلام والمناهج». . «الإسلام المفترى عليه». . «الإسلام والاستبداد». . «تأملات فى الدين والحياة». . «ليس من الإسلام». . «كيف نفهم الإسلام». . وغيرها.

ثم ازداد ذلك بروزا وتأكدا فى كتب المرحلة الأخيرة: «دستور الوحدة الثقافية». وما بعده.

تصحيح المفاهيم المغلوطة:

وكان من أهم مظاهر الإصلاح والتجديد التى وجه إليها الغزالى فكره وقلمه وبيانه: تصحيح المفاهيم الإسلامية التى غلط الناس فى تصورها، وأساءوا فى تصويرها.

ومن ذلك: مفهوم «العبادة». وقد وضح ذلك فى عدد من كتبه.

ولعل من أبلغ ما كتبه فى ذلك ما جاء فى كتابه: «مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية»، إذ يقول:

«عندما ننظر إلى العبادات السماوية نجد أداءها فى اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة، ونجد تعاليمها تستغرق صفحة أو صفحتين، ويبقى الزمان بعد ذلك واسعا، والمجال رحبا لفهم الحياة واكتشاف طاقاتها وتسخيرها كلا وجزءا لخدمة الدين.

وكل جهد يبذل فى ذلك يسمى شرعا: عملا صالحا، وجهادا مبرورا، وضميمة إلى الإيمان تؤهل المرء لرضوان الله . . .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالا بالدنيا، عجزة فى الحياة. والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب، وقارورة الصيدلى. ويصنعها الغواص فى بحره والطيار فى جوه، والباحث فى معمله، والمحاسب فى دفتره. يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منه أداة لنصرة ربه، وإعلاء كلمته.

وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظا عندما خبنا فى ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله فى كلمات تقال ومظاهر تقام!

ومن قديم، رأى نفر من العابدين أن يحصروا عبادتهم فى الصلوات والأذكار، يبدئون ويعيدون، ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة. فمن ينصر الله ورسله، إذا كان أولئك جهالا بالحديد وأفرانه ومصانعه؟ والله يقول فى كتابه: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه والانتفاع بمشتقاته، لا نعرف منها شيئا، فهل تخدم عقيدة التوحيد وما ينبنى عليها بهذا العجز المهين . . . ؟

إنه لو قيل لكل شىء فى البلاد الإسلامية: عد من حيث جئت، لخشيت أن يمشى الناس حفاة عراة، لا يجدون ـ من صنع أيديهم ـ ما يكتسون، ولا ما يتعلمون، ولا ما يركبون، ولا ما يضىء لهم البيوت . . . . بل لخشيت أن يجوعوا؛ لأن بلادهم لا تستطيع الاكتفاء الذاتى من الحبوب!!

وقد رأيت صيدليا مشغولا ببحث قضية «صلاة تحية المسجد» فى أثناء خطبة الجمعة، ومهتما بترجيح مذهب على مذهب، فقلت له: لماذا لا تنصر الإسلام فى ميدانك، وتدع هذا الموضوع لأهله؟

إن الإسلام فى ميدان الدواء مهزوم! ولو أراد أعداء الإسلام أن يسمموا أمته فى هذا الميدان لفعلوا، ولعجزتم عن مقاومتهم!

أفما كان الأولى بك وبإخوانك أن تصنعوا شيئا لدينكم فى ميدان خلا منه، بدل الدخول فى موازنة بين الشافعى ومالك؟

وسألنى طالب بأحد أقسام الكيمياء عن موضوع شائك فى علم الكلام! فقلت فى نفسى: إن جائزة «نوبل» لهذا العام قسمت بين نفر من علماء الكيمياء ليس فيهم عربى واحد، وحاجة المسلمين إلى الاستبحار فى علوم الكيمياء ماسة. وقد أوردت فى بعض كتبى كيف أباد الروس قرية أفغانية عندما شنوا عليها حربا كيمياوية، وذهب الضحايا فى صمت، وتسامع جمهور المسلمين بالنبأ، وهو لا يدرى شيئا عما كان أو يكون..

قلت للطالب السائل:

إن ما تسأل عنه درسناه قديما، وحكايته كيت وكيت، وخير لك أن تنصرف عن هذا

الأمر، وأن تقبل بقوة على ما تخصصت فيه. إننا فقراء إلى النابغين فى المادة التى تتعلمها، وأغنياء عن المشتغلين بالفلسفات الكلامية»ا. هـ.

الدين فى خدمة الشعوب:

كان الشيخ الغزالى يرى أن الإسلام مصدر قوة للشعوب، وليس قيدا فى رجلها ولا غُلاّ فى عنقها، بل هو العامل الأول على تحريرها من الطواغيت، الذين يغزونها من الخارج، أو يستبدون بها من الداخل. وقد غاظه أن يساء فهم الإسلام، حتى يحسب مع الأديان المحرفة والمخرفة، التى تثبط الشعوب عن المطالبة بحقوقها، والجهاد فى سبيلها، طلبا لإحدى الحسنيين.

ومن ثم ألف مع بعض إخوانه من العلماء والأحرار المستنيرين لجنة تكتب وتنشر تحت عنوان اختارته شعارا لها، وهو: الدين فى خدمة الشعوب!

وربما أخذ على هذا العنوان أنه جعل الدين وسيلة وهو غاية، وأنه وضعه موضع «الشرطة فى خدمة الشعب»! ولكن الشيخ أراد أن يرد على الماركسيين الذين جعلوا من أبرز شعاراتهم: الدين أفيون الشعوب.

والشيخ يقف بقوة ضد هذا الفهم المغلوط للإسلام، الذى لم يكن يوما ـ بحسب تعاليمه الأصيلة ـ أداة للحكام ضد الشعوب، ولا للأقوياء ضد الضعفاء، ولا للأغنياء ضد الفقراء، ولا للملاك وأرباب المال ضد المستأجرين والعاملين.. إن الإسلام دائما مع المستضعفين فى الأرض فى مواجهة المتألهين والمستكبرين.

ولعل من أقوى الفقرات التى كتبها فى ذلك: ما قدم به كتابه: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» فى طبعته الثانية، حين قال:

«لم تستذل ـ فى هذا العصر ـ شعوب كما استذلت شعوب الشرق، ولم يستغل شىء ـ فى هضم حقوقها ـ كما استغل الدين.

لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالى، كما يصرخ الحارس اليقظ إذا رأى جرأة اللصوص الوقحين!! وبذلك أصبحت الأمة مضيعة بين استذلال عنيد واستغلال منافق، وأصبح الدين مسخرا فى ميادين شتى لتسويغ الحيف، والتقليل من خطره. فكان حقا علينا ـ كمؤمنين ـ أن ننصف الدين من

الأوضاع التى شانت حقيقته، وكان لزاما علينا ـ كمواطنين ـ أن ننصف الوطن من الأنظمة التى ظلمت أهله، وأكلت ثروته، وكان من أجدر الحقائق بالإفصاح والإيضاح أن يعلم الناس علم اليقين أن الدين فى خدمة الشعوب لا فى خدمة فرد أو أفراد! !».

ويستمر الشيخ فى بيان وظيفة الدين الحق، بعد أن يفضح مواقف رجال الدين قبل الإسلام، الذين كتبوا آيات الدين فى ألواح مذهبة، تعلق فى قصور الملوك الظلمة، أو صاغوها فى ألحان عذبة ترسلها الأصوات الحنون تراتيل ومزامير! ثم يقول الشيخ فى بيان ثائر هادر:

«إن الدين أنزل من عند الله لخدمة الشعوب وحدها، وليست آياته زينة تعلق على جدران القصور الظالمة، بل هى زلازل تدك بنيانها وتغل طغيانها، وما كان الوحى يوما ما غناء مطربين، ولا تراتيل دجالين، وإنما هو نذير العدل يصرخ فى آفاق الحياة باستنكار البغى والعدوان، ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

وليست وظيفة رجال الدين أن يمشوا فى ركاب العظماء! فهل هذه إلا وظيفة المتملقين من رجال الدنيا؟! إن رؤساء الأديان المبعوثين من لدن الله كانوا ينشدون المساواة الحقة بين البشر، فإذا لم يستطيعوا أن يهبطوا بمنازل السادة فلن يعجزوا عن الارتفاع بمستوى العبيد، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به، فهذه جريمة.

بل يقول الإسلام للرجل المغصوب فى ماله، أو المنكوب فى عرضه: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد»... لا تستسلم أبدا... إن الدين فى خدمتك: يضع السلاح فى يمينك، ويضع الأمل فى قلبك، ويضع الإصرار فى إرادتك، ويكلفك أن تستميت دون حقك. إن الله لم يبعث أنبياءه ليستريح باسمهم نفر قلائل من حثالة الناس، أو من قادتهم العظام، إنما بعثوا ليستريح البشر كافة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهكذا سبقت مشيئة الله أن يكون الدين لخدمة الشعوب لا لسلب الشعوب واستغلال بنيها واستذلال أحرارها.

لشىء ما غلبت أمم على أمرها وذاقت ضراوة الوحوش من مستعمريها، أو.... من

حكامها، وطالما تلفتت إلى الأرض وإلى السماء تلتمس النجدة!!! لقد كفرت بالدنيا لما ظلمت فيها، ثم كفرت بالدين لما ترقبت معونته فلم يسعفها بها.

أما هنا في الشرق فلن تتكرر المأساة الدامية! لن ندع الناس يكفرون لا بالدين ولا بالدنيا، سنقدم لها التأمين الاجتماعي مشربا بروح الإيمان الحر... أو الإيمان بالله مفرغا في نظام من الحرية والإخاء والمساواة. ذلك هو الدين كما أنزل من عند الله، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. وما كان الدين مخدرا للشعوب كما يقول فيه الساخرون، ولا كان مخدرا للشعوب كما يصنع منه المسحرون. ولا مكان معه لشيوعية ولا رأسمالية... خطتنا الفذة أبدا هي: مع المظلوم حتى ينتصر، وعلى الظلم حتى ينكسر، وإلى جانب الشعوب حتى تتخلص من آسريها، وتثأر لنفسها من قاهريها...!».

ويختم مقدمة الكتاب بهذا النداء الثوري:

«يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان، لقد نزل الدين إلى الميدان بجانبكم فضعوا أيديكم في يده. إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تقص، والأوضاع التي تغتال حقوقكم يجب أن تقصى! والفراغ الذي خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد يجب أن تزاح غمته إلى الأبد».

النظرة الشمولية المتوازنة للإسلام:

لقد ضاق الشيخ الإمام بالتصوير الجزئي للإسلام، الذي بخل بـ «النسب» التي أقامها الشرع بين أحكامه وتعاليمه بعضها وبعض، فلم يجعلها كلها في درجة واحدة، لا في المأمورات، ولا في المنهيات، وهو ما أسمينا العلم به «فقه الأولويات» أو فقه «مراتب الأعمال».

فالإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، كما صح في الحديث، ولكن الشيخ يتساءل:

«هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كيفما اتفق؟ هل هي كسلع اشتراها شخص من السوق ثم وضعها في حقيبته كيفما تيسر؟ لا.. إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه.

والشبكة التي تكون شعب الإيمان كلها تشبه الخارطة الموضوعة للجهاز العامل في

إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات. هناك مديرون، وهناك مساعدون، وهناك فعلة، وهناك مراقبون، وبين هذه وتلك علاقات مرسومة، ونظم إرسال واستقبال، وتنفيذ وإنتاج...

إن شعب الإيمان التى تعد بالعشرات تشبه السيارة المنطلقة لها هيكل وإطارات وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراسى وغير ذلك، وكل منها له وظيفته وقيمته.

ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال جسمية.

والذى يحدث عند بعض الناس أن جزءا ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء، كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله!

وقد كان الخوارج أول من أصيب بهذا القصور العقلى أو بهذا الخلل الفقهى. قاتلوا عليا أو يتبرأ من التحكيم! وقاتلوا عمر بن عبدالعزيز أو يلعن آباءه ملوك أمية!

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسى كله، ولا تدع مكانا لمعان أخرى شىء لا يستساغ!

لقينى رجل من المعروفين بالطيبة وسألنى: هل تؤمن بكرامات الشيخ فلان؟ قلت: لم أقرأ سيرة هذا الشيخ. قال: إليك كتابا يشرح سيرته.. ثم لقينى بعد فترة وسألنى: ما رأيك؟ قلت: نسيت أن أقرأ الكتاب. قال: كيف؟ ـ بانفعال ـ قلت: الأمر غير مهم.. إذا مت وأنا لا أعرف صاحبك، فإن الله غير سائلى عنه، وعن كراماته. فانطلق يشيع عنى أنى مارق لا أومن بالكرامات..

وقابلنى آخر يقول: ما رأيك فى الموسيقى؟ فأجبت: إن كانت عسكرية تثير الحماسة والتضحية فلا بأس، وإن كانت عاطفية تثير النشاط أو الرقة فلا بأس.. وإن كانت تثير العبث والمجون فلا.. فانطلق يشيع عنى أنى متحلل أسمع الحرام!!

كلا الشخصين آمن بشىء حسبه الدين كله، فهو يحاكم الأشخاص والأوضاع إليه وحده.

وهذا التورم الذى يصيب جانبا دينيا معينا هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء.

وهو السر وراء محدِّثين يحفظون النصوص، ولا يضعونها مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها.

وأصحاب رأى يلمحون المصلحة، ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.

وهو السر وراء حكام يعملون ـ حسب المواصفات المقررة ـ رعاة للجماهير، وباعهم فى تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهى والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل!

وهو السر وراء أناس يتقنون مراسم العبادة ولا يفرِّطون ذرة فى صور الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئا، ولا يستفيدون منها خلُقا.

الصلاة تورث النظام والنظافة، وهم فوضى شعثون.

والحج رحلة العمر التى تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة، وهم فى أثناء المناسك وبعدها قساة سيئون.

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلى الفقه كثيرى النشاط، ينطلقون بعقولهم الكليلة فيسيئون ولا يحسنون.

ماذا يفيده الإسلام من شبان يغشَون المجتمعات الأوربية والأمريكية يلبسون جلاليب بيضاء، ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم، ثم يلعقون أطراف أصابعهم، وهذا فى نظرهم هَدْى الرسول فى الأكل، والسنة التى يبدءون ـ من عندها ـ عرض الإسلام على الغربيين؟!

هل هذه آداب الإسلام فى الطعام؟

وعندما يرى الأوربيون رجلا يبغى الشرب فيتناول الكأس، ثم يقعد وكان واقفا، ليتبع السنة فى الشرب، فهل هذا المنظر الغريب هو الذى يغرى بدخول الإسلام؟!

لماذا تجسَّم التوافه على نحو يصد عن سبيل الله، ويبرز الإسلام به وكأنه دين دميم الوجه؟!

ثم إن الدعوة إلى الإسلام لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية مهما كانت مهمة عند أصحابها. والأكل على الأرض أو بالأيدى مسألة عادية وليست عبادية، ومن السماجة: عرض الإسلام من خلالها. ووضع النقاب على وجه المرأة أمر تناوله الأخذ والرد، ولا يسوغ بحال تقديمه عند عرض دين الله على عباد الله»(١).

(١) الدعوة الإسلامية: ص ٦٨ ـ ٧٠.

٦ـ تحرير الأمة وتوحيدها

ومن جوانب الإصلاح المهمة عند الشيخ الغزالى: تحرير الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها من كل سلطان أجنبى يشل إرادتها أو فكرها أو يدها:

ولهذا قاوم الشيخ الاستعمار غربيه وشرقيه، قديمه وجديده، كما قاوم عملاءه وفروخه فى ديار الإسلام، الذين ينفِّقون فكره، ويتبنَّون خطه، ويسيرون فى دربه، من بنى جلدتنا، وممن يتكلمون بألسنتنا.

قاوم الشيخ الاستعمار سواء تمثل فى احتلال عسكرى أم فى تسلط سياسى، أم فى تحكم اقتصادى، أم فى غزو فكرى أو تعليمى أو إعلامى أو اجتماعى.

الاستعمار أحقاد وأطماع:

وبين الشيخ أن الاستعمار لا تدفعه «الأطماع» وحدها فى خيرات بلاد الإسلام، بل هناك دوافع أخرى كامنة هى «الأحقاد» الموروثة من الحروب الصليبية، بل منذ اصطدم الإسلام بالنصرانية وانتصر عليها فى آسية وإفريقية، وأخذ منها بلاداً كثيرة غدت جزءاً مهمّاً من «دار الإسلام».

وقدم الأدلة على هذه الروح التى ورثت هذا الحقد الأسود من وقائع التاريخ، ومن أحداث الواقع.

يقول الشيخ: «كنا نفكر أن سيطرة الغربيين على بلادنا كانت مجرد غلب القوى على الضعيف، حتى صحونا من منامنا، أو استفقنا من بلاهتنا، فوجدنا الأوربيين الغزاة يطوون أفئدتهم على جميع المشاعر التى حركت أسلافهم الأقدمين، حين حاربونا باسم «الصليب») زهاء قرنين من الزمان.

إنهم هم هم، بغضاؤهم للإسلام لم تنقض، بل ظلت فى نماء، وسخطهم على أهله لا تزيده الليالى إلا ضراماً.

كل ما أفادوه من تقدم علمى فى إبّان غفوتنا الأخيرة، أنهم غيروا الوسائل، وأضافوا إليها مقداراً أكبر من الختل والخبث، وطوروا السلاح، ليجعلوه أشد فتكا، وأوسع هلكا، حشدوا كل ما لديهم ليجهزوا على الكتاب والسنة، أى على رسالة محمد عدوهم

الألد . . ثم ليمزقوا أمته شر ممزق، فيسلطوا عليها من صنوف البلاء ما يجعلها تتعثر فى طلب النجاة دون جدوى»(١) .

الاستعمار الشيوعى:

كما بين الشيخ أن الاستعمار ليس هو فقط الاستعمار الغربى الذى احتل أوطان المسلمين من إندونيسيا إلى المغرب الأقصى: بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وهولندا وإيطاليا وغيرها، بل يشمل الاستعمار الشرقى الذى هو أحدّ أنيابًا وأقوى أظافر، وأشد شراسة من الاستعمار الغربى، أعنى الاستعمار الشيوعى: الذى احتل عددا من الجمهوريات الإسلامية فى آسيا: أوزبكستان، وطاجيكستان، وكازاخستان، وآذربيجان . . إلخ، وهى أقطار إسلامية عريقة فى إسلامها، ضمها الاتحاد السوفيتى إليه بالحديد والنار، فغدت جزءا من إمبراطوريته خلف الستار الحديدى .

وأبرز ما ظهر فيه موقف الشيخ من الاستعمار الأحمر: كتابه: «الإسلام فى وجه الزحف الأحمر» الذى نشر طبعته الأولى فى سنة ١٩٦٦م، أى فى أوج عهد عبدالناصر . وقد كان الشيوعيون فى ذلك الوقت لهم سطوة وسلطان، وكانوا ممكنين من جميع أجهزة الثقافة والإعلام، وكانت صلة مصر بالسوفيت وثيقة متينة . لا غرو أن قال الشيخ فى مقدمة كتابه هذه العبارات:

« لذلك رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته .

وأعرف أننى بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى، ويفنى الإسلام! إن الضربات تنهال من كل ناحية على هذا الدين الجلد! وعلى بُعد ما بين الخصوم الضاربين من منازع وغايات، فقد جمعهم حب الإجهاز على الإسلام، واقتسام تركته!

وقد فرض الله على العلماء أن يقولوا الحق ولو كان مرًا، وألا يخشوا فى الله لومة لائم . وعشاق الحق لابد أن يحيوا معه، وإلا فبطن الأرض خير لهم من ظهرها .

والأمة التى أعنيها ليست عشيرتى الأقربين، ولا العرب أجمعين . . كلا . إننى أعنى الأمة الإسلامية حيث انتشرت فى الأرض، ولمس ترابها جبهات الساجدين، وكل منهم يهمس فى خشوع: «سبحان ربى الأعلى» .

---

(١) كفاح دين: ص ١١١ .

هذه الأمة التى أحاط بها الطامعون والحاقدون هى الأمة التى أحذر عليها، وأعمل لها»[1].

لم ينس الشيخ فى كتاباته ومحاضراته وخطبه الأمة الإسلامية، ولم يغفل يوما عن قضاياها، بل كان هو المحامى الدائم عن قضاياها، والمدافع العنيد عن مظالمها، والمحرض المستمر لها لمواجهة أعدائها، وإبطال مكايدهم.

وكتبه شاهدة على ذلك: «الاستعمار أحقاد وأطماع». . «الإسلام فى وجه الزحف الأحمر». . «ظلام من الغرب». . وغيرها.

قضية فلسطين:

وفى مقدمة القضايا الإسلامية التى تبناها الشيخ واحتلت بؤرة شعوره، وصميم قلبه وفكره، وعد نفسه حارسًا لها بقلمه ولسانه ووجدانه: قضية فلسطين، أرض الإسراء والمعراج، والمسجد الأقصى، وأولى القبلتين.

واهتمامه بقضية فلسطين يأخذ وجهتين:

الأولى: تحريك الأمة الإسلامية، لتنهض بواجبها فى الدفاع عن أرض المقدسات، ونسيان ما بينها من خلاف لتقف صفا واحدا، ضد العدوان اليهودى المغتصب.

الثانية: المقارنة بما تصنعه إسرائيل ويهود العالم: من تخطيط وتنظيم وبذل وتعاون، وكيف استخدموا علوم العصر، وتكنولوجياته المتطورة، فى خدمة دولتهم، لتكون هذه المقارنة ذريعة لنا عسى أن نغير ما بأنفسنا، ملتمسين العبرة من عدونا.

وقف الشيخ بقلمه ولسانه مع قضايا المسلمين فى العالم، مع الإسلام فى كل مكان: الإسلام الجريح فى الحبشة[2]، الإسلام المقاتل فى كشمير والفلبين[3]، الإسلام المقاوَم فى فلسطين. . وفى البوسنة والهرسك. . الإسلام الصامد فى إندونيسيا، وفى بنجلاديش فى آسيا، وفى نيجيريا والصومال فى إفريقيا: أمام موجات التنصير والعلمانية، الإسلام الذى يقاوم التغريب والعلمنة فى تركيا وفى البلاد العربية. .

---

(١) من مقدمة كتاب: الإسلام فى وجه الزحف الأحمر.

(٢) انظر: حديثه عن «مأساة المسلمين فى الحبشة» فى كتابه: «كفاح دين»، فصل: «حكومات مسيحية لشعوب مسلمة» فصل: «دئاب الحبشة تنهش الإسلام».

(٣) انظر: أحوال المسلمين فى الفلبين، فى كتاب: علل وأدوية: ص ٢٠٩ ـ ٢١١.

وقف الشيخ مع اللاجئين المشردين من أبناء الإسلام فى أنحاء العالم : أبناء بورما وتشاد والصومال وإريتريا وغيرهم . .

لقد وقف الشيخ مع كل قضايا المسلمين، بحيث تستطيع أن تقول : إنه (محامى الأمة الإسلامية) حيثما كان لها قضية .

توحيد الأمة بعد تحريرها:

ولا يقف الشيخ عند قضية التحرير، بل لابد من العمل على «توحيد الأمة» كما أمر الله سبحانه، فهى (أمة واحدة) وليست أمما، وعندها من عوامل التوحيد ما يقرب بينها . العقبة الكأداء فى سبيل وحدتها هو ما صنعه الاستعمار من أنظمة وثقافات ومناهج وأفكار، باعدت بين شعوب الأمة، وخصوصا بين حكامها وقادتها . .

ويرى الشيخ أن إعادة الخلافة الإسلامية فرض عين على الأمة، وهى لازمة شرعا وواقعا لتبليغ الدعوة إلى العالم وحمايتها، والدفاع عن المستضعفين من المسلمين، وعن قضايا الإسلام فى أنحاء الأرض .

يقول الشيخ فى ألم وأسى : «إن قلبى يتفطر عندما أرى الدم الإسلامى أرخص دم على الأرض . . لقد استباحه المجوس واليهود والنصارى والوثنيون والملحدون . . وحكام مسلمون!!

ولا ريب فى أن المدافعين عن الإسلام تكتنفهم ظروف صعبة معقدة، غير أنه بين الحين والحين ينبجس من روح الله ندى يواسى الجراح، ويهون الكفاح، ويبشر بالصباح . .

ومهما كانت الأوضاع محرجة فلابد من بقاء الدعوة الإسلامية مرفوعة الراية، واضحة الهداية، تعلن الحق وتبسط براهينه، وتلقف الشبه وتوهى إسنادها . .

إن محمدًا ليس وقفا على عصر أو جنس، إن رسالته للقارات الخمس ما بقى الزمان، وعلينا أن ننهض بهذا العبء . .

وحتى تعود «الخلافة الإسلامية» ـ وإعادتها فرض عين ـ لتتولى هذه المهام يجدر بنا أن نتبع ما يأتى . . . »[1] . ويذكر الشيخ هنا جملة من المقترحات النافعة .

---

(١) قذائف الحق : ص ١٤٨ .

مسئولية الخلافة عن الدعوة فى العالم:

وفى موضع آخر تحدث الشيخ عن «الدعوة الإسلامية والحكام الخونة»، وقال فى مقدمة هذا الفصل:

«المسلمون مكلفون بنشر دينهم فى القارات الخمس. ويجب أن تكون لديهم أجهزة متخصصة تعرِّف العالم كله: من محمد؟ وما رسالته؟ ما الذى ينشده للناس كى يسعدوا فى معاشهم ومعادهم؟

يجب أن تكون تعاليم الإسلام تحت أبصار الناس قاطبة، فمن شاء قبلها، ومن شاء ردها، المهم أن يعرفها على حقيقتها، وأن يزول الجهل بها، وألا يكون الدخان الذى أطلقه أعداؤها حائلا دون هذا الإدراك الواعى السليم.

وقد كانت «الخلافة» الكبرى مسئولة عن ذلك، إذ كانت رمزًا للإسلام، وشاخصا عالميا يلفت الأنظار إليه، ويذود الأعداء عنه.

ومع أن «الخلافة» عندما تولاها الجنس التركى قد أصبحت شبحا عليلا، ومع أن الخلفاء الأتراك كانوا أقرب إلى السلاطين الجبابرة منهم إلى أمراء المؤمنين وحراس اليقين ودعاة الحق وهداة الخلق!! مع ذلك كله، فإن وجود الخلافة فيهم كان له أثره فى وحدة المسلمين، وتقليل الخسائر النازلة بهم من هنا وهناك.

وحسبنا أن نشير إلى موقف السلطان «عبدالحميد» من فلسطين، فقد ساق إليه اليهود قناطير الذهب ليسمح بوجود يهودى فيها، فأبى الرجل إباء قطع كل محاولات الإغراء، وأحبط جميع المؤامرات لشطر العالم الإسلامى بهذا العنصر الغريب.

ولما كان لوجود «الخلافة» من آثار مادية وأدبية بعيدة المدى، فقد كان همُّ العالم الصليبى أن يجهز عليها. وقد استطاع أن يبلغ غرضه بعد الحرب العالمية الأولى مستغلا أطماع القائد التركى «مصطفى كمال» الذى باع الإسلام والمسلمين من أجل البقاء رئيسا للدولة التركية الجديدة!!

إن الشروط الأربعة التى عرضها «الحلفاء» المنتصرون عليه هى أن يقطع صلة تركيا بالعالم الإسلامى وبالعرب خاصة، وأن يلغى نظام الخلافة، وأن يحكم الشعب بدستور تقدمى مبتوت الصلة بالدين»[1].

---

(١) المصدر السابق: ص ١٣٥.

تذويب الفِرَق المنشقة عن الأمة:

وللشيخ الغزالى رأى له أهميته فى وجوب تذويب الفِرَق المنشقة عن الجماعة والأمة الإسلامية، نسجله هنا. يقول شيخنا:

« فى الأمة الإسلامية الآن فرق تذكرنا بمذاهب الباطنية وفلسفاتها الدخيلة التى نجحت قبل ألف عام. هناك النصيرية، والدروز، والإسماعيلية - الأغاخانية - وأمثال أولئك جميعا ممن ينتمون إلى الإسلام انتماء غامضا.

وقد يزعمون أنهم مسلمون شيعة! بيد أن جماهير الشيعة ترفضهم وتتنكر لهم...

إنهم سلالات باطنية تلبس الإسلام على خليط من الأفكار التى لا سناد لها، وهم فى نظرى ضحايا الإهمال الغريب من الدولة والأمة معا..

لماذا تمر القرون الطوال وهؤلاء الناس معزولون داخل دار الإسلام على هذا النحو المتوارث؟

أكثر من ألف عام والحكم الإسلامى غير مكترث بالتجميد الأدبى لألوف مؤلفة من الناس تعيش فى صميمه، لا هم منه ولا هم من عدوه..!!

إن هذا الخطأ لابد أن يوضع له حد، ولابد من التعفية على آثاره.!

ولدت الباطنية ونمت فى الفراغ الحقيقى الذى كان موجودا بين الحكام والشعوب. أغلب الحكام كان جائرا جاهلا وإن لبس برد الخلافة أو لاذ بمن يلبس هذا البرد..

وتعلقت القلوب بمنقذ من آل البيت، ينسخ الجور ويؤنس المستوحشين.

وحول هذا الأمل الحبيب تكونت فى الظلام عصابات، لم تجد لها فى وضح النهار مكانا.

وحول قليل من الحق تكونت مذاهب مستوردة من الهندوكية والمجوسية واليونانية وغيرها، فكان التفكير الباطنى، وكانت شعبه العديدة.

نصوص من القرآن يتم تفريغها من محتواها الصحيح، لتحل محله أوهام المستغلين، وخيالات ما أنزل الله بها من سلطان!

واتسعت دائرة المخدوعين المستغلين خصوصا فى القرنين الثالث والرابع، وبلغ من

سطوة الباطنية أن إحدى فرقهم انتزعت الحجر الأسود من مكانه فى الكعبة المشرفة، فلم يعد إلا بعد نيف وعشرين سنة بشفاعة فرقة أخرى![1].

وإذا كان ذلك عجيبا، فإن رد الفعل أعجب لدى الحاكمين والمحكومين على سواء.

ولقد استيقنت ـ وأنا أقرأ هذه الصحائف السود ـ أن نظام الحكم من قديم كان القشرة العفنة فى كياننا كله.

ولقد نهض عدد كبير من العلماء بدحض الفكر الباطنى وفضح خرافاته، حتى انصرف عنه جمهور العقلاء، وانكسرت حدته السياسية انكسارا تاما.

لكن حكام المسلمين ـ فى غيبوبتهم الفكرية ـ لم يكملوا ما بدأه العلماء المجاهدون، بل لقد خيل إلى أنهم جمَّدوا ـ عن عمد ـ بقايا الباطنية، مع أن قضاياها أمست بلا موضوع.

وجمهور المنتسبين إلى هذه الفرق انقطع عن المنابع التى كانت تمده فى القديم، وبقيت نسبته إلى الإسلام أبرز فى وعيه من النسبة إلى أفكار أخرى.

والخطوة التالية والواجبة أن يستلحق الكيان الإسلامى الكبير هذه الطوائف التى اقتطعت منه لظروف مؤسفة، يستطيع بالتعليم الموصول والإعلام الدائم أن يجعل راية الكتاب والسنة ترفرف عليها وعلى جميع المسلمين.

نعم، فليس لهذه الطوائف دين تنتسب إليه إلا الإسلام ـ كما يقولون ـ وليست لها فلسفات عقلية أو اجتماعية تمثل مذهبا مستقلا فى الحياة، وربما كانت الروابط التى تمسك أبناءها روابط قبلية، أو عصبيات جنسية. وخطأ الجماعة الإسلامية فى الحفاظ على كيانها الكبير لا يجوز أن يستمر بعد اليوم.

لقد دخل الصليبيون الأندلس، فلم يبقوا فيه إلا مذهبا واحدًا هو «الكثلكة».

وسيطر الإسلام على ما يسمى الآن «الشرق الأوسط» وبقى فيه أربعة عشر قرنا، ومع ذلك فإن الطوائف الكثيرة لا تزال تكون فيه عصبة أم!!

ربما كان ذلك شاهدا على ما انفرد به الإسلام من سماحة مستغربة فى التاريخ البشرى الحافل بفنون التعصب. لكن هذه السماحة لا يسوغ أن تتحول إلى فتوق تأتى عليه من القواعد، وتأذن للخيانات والمخادعات أن تنال منه.

---

(١) يقصد الفاطميين فى مصر.

وعلى الجماعة الإسلامية أن تدفع عن وجودها بالوسائل العادية التى فاتتها من قديم، أى أن عليها تذويب هذه الفرق كلها فى الكيان العام»[1].

مبادئ للتصالح بين السنة والشيعة:

كما يرى شيخنا الإمام أن أوضاع المسلمين الراهنة، والأخطار المحدقة بهم، وتداعى الأمم عليهم من كل أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، كل ذلك يوجب الدعوة من عقلاء أهل السنة والشيعة إلى التصالح والتضامن بين الفريقين لمواجهة التحديات. وفى ذلك يقول:

« من الخلافات الموروثة: ما بين الشيعة وأهل السنة من فجوات ملأتها الدماء فى بعض الأعصار، وزادها البهت والافتراء بين الحين والحين!

وما أنكر أن أسبابا علمية وعاطفية تخفى أو تظهر وراء هذا الخلاف، بيد أن للسياسة ومطالب الحكم أسبابا أخرى وأنمى.

وقد تحدثت فى كتب أخرى عن حقيقة ما بين الفريقين من الناحية العلمية، ولا مجال هنا لتفصيل أو زيادة. وأعترف بأن لى أصدقاء من الشيعة أعزهم وأحبهم.

ومن أجل ذلك أعرض هذه المبادئ لدفع الأمور إلى طريق التصالح والإخاء:

(أ) يتفق الفريقان فى مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصون الخالد، والمصدر الأول للتشريع، وأن الله حفظه من الزيادة والنقص وكل أنواع التحريف، وأن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبى ﷺ على أصحابه، وأنه ليس هناك فى تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف.

(ب) السنّة هى المصدر الثانى بعد القرآن الكريم، والرسول أسوة حسنة لأتباعه إلى قيام الساعة، والاختلاف فى ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية.

(جـ) ما وقع من خلاف بين القرن الأول يدرس فى إطار البحث العلمى والعبرة التاريخية، ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، بل يجمّد من الناحية العلمية تجميدا تاما، ويترك حسابه إلى الله وفق الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين: ص ١٤٤ ـ ١٤٦.

(د) يواجه المسلمون جميعا مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة ـ وهى كثيرة جدا ـ وعلى مرونة وتسامح فى شتى الفروع الفقهية ووجهات النظر المذهبية الأخرى .

إننى لا أستطيع خلال سطور، أن أحل مشكلة تراخت عليها العصور، لكننى ألفت النظر إلى أن أوهاما وأهواء تملأ الجو بين الشيعة وجماعة المسلمين لا يسيغ العقلاء بقاءها .

ولو وضع كل شىء فى حجمه الطبيعى، وأغلقت الأفواه التى تستمرئ الوقيعة والإفك لتلاشت أنواع من الفرقة لا مساغ لوجودها .

وإنى إذ أرسل هذه الكلمات إلى إخوانى فى كل قطر، أستشعر الخطر الذى يكتنف المسلمين هنا وهناك، وكثافة القوى التى تتجمع فى هذه الأيام للإجهاز عليهم، واستئصال شأفتهم .

لقد اتفقت أحزاب أهل الكتاب وأحزاب الوثنية، وأحزاب الماديين، جميعا على استئصال شأفتنا، فإلى متى نتفرق؟!

لماذا يتباعد أتباع المذاهب الفرعية؟

لماذا تُجترُّ خلافات بين السلف، وتُمنح القدرة على الحياة والأذى؟!(1) .

---

(1) المصدر السابق. ص ١٤٧، ١٤٨ .

٧ ـ الدعوة إلى التقدم والخروج من التخلف

ومما أخذ من عناية الشيخ الغزالى جانبا غير قليل: دعوته الدائبة إلى استخراج الأمة من دائرة التخلف، والعمل على إلحاقها بركب التقدم البشرى الصاعد أبدا إلى الأمام.

إن التأخر ليس من طبيعة هذه الأمة ولا من لوازم تدينها، فقد كانت هذه الأمة هى الأمة الأولى فى العالم كله، قرابة ألف عام، وكانت حضارتها هى الحضارة الغالبة والسائدة، وكان علماؤها فى كل فرع من العلوم هم قادة العلم والفكر فى الدنيا القديمة.

ومن ذا الذى يجحد ما قدمه أمثال ابن حيان فى الكيمياء، وابن الهيثم فى الفيزياء، والخوارزمى فى الجبر، والبيرونى فى الرياضيات، والرازى وابن سينا والزهراوى وابن النفيس فى الطب، وابن رشد فى الطب والفلسفة؟

ومن ينكر ما قدمه المسلمون للعالم بإقرار المنهج الاستقرائى التجريبى، إقراره عمليا فى شتى العلوم الطبيعية والكونية، والدفاع عنه نظريا بنقد المنهج الصورى القياسى، الذى قام على أساس المنطق الأرسطى؟[١].

ومن هنا اقتبست أوربا من الحضارة الإسلامية المنهج التجريبى؛ وأسست عليها نهضتها، كما شهد بذلك شهود منصفون من أهلها، أمثال بريفولت وغوستاف لوبون، وجورج سارطون.

فالتخلف ـ إذن ـ طارئ على الأمة، وعلة عارضة لها، وليست من طبيعتها ولا طبيعة دينها الذى جعل منها من قبل خير أمة أخرجت للناس، وبوأها مكان الأستاذية للبشرية كلها.

وحرام على الأمة المسلمة أن تظل فى مؤخرة الأمم فى مجال العلم والعمران والتكنولوجيا، ومكانها الطبيعى أن تقود هى القافلة!

وهذا ما شغل فكر الشيخ الغزالى، وكوى قلبه بنار الأسى على مصير الأمة القائدة: أن تنتهى إلى هذا الوضع الذى صارت إليه اليوم: تستورد ولا تنشئ، تستهلك ولا تكاد تنتج إلا التوافه. حتى قوتها اليومى لا تنتج منه ما يكفيها، برغم خصوبة أراضيها، وحتى سلاحها الذى تذود به عن بيضتها لا تصنعه، بل تشتريه من غيرها بشروطه طبعا!

---

(١) نقد الإمام ابن تيمية منطق أرسطو نقدا علميا، وانظر: كتاب: مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ونشأة المنهج العلمى فى العالم الإسلامى: للدكتور على سامى النشار.

عجز الأمة عن توفير غذائها:

لأسباب شتى أخذت أمتنا تتراجع أمام خصومها، وتترنح تحت ضربات موجعة. وظهر عجزها عن تبليغ رسالتها، بعد عجزها عن العمل بها بداهة، وعجزها عن حماية نفسها؛ لأنها لم تعد تصنع السلاح الذى يحميها.

وتبع ذلك عجز أنكى وأخزى، هو عجزها عن صنع رغيفها الذى تأكله.

يقول شيخنا: «وقد قرأت أنباء «ندوة الغذاء العربى» التى انعقدت فى دمشق، واستوقف بصرى عنوان كبير: «٧٧٪ من قمح رغيف الخبز من الأقطار العربية مستوردا، سنة ٢٠٠٠ يستورد العرب غذاء قيمته ١٢٠ مليار دولار». .

يقول المحرر: لندخل فى التفاصيل. لقد وصلت تكلفة المستوردات العربية للمنتجات الغذائية سنة ١٩٨١ إلى ٢٢,٥ مليار، أى أنها تضاعفت أكثر من اثنتى عشرة مرة خلال اثنى عشر عامًا.

أما الصادرات فى العام نفسه فلم تتجاوز ٣,٥ مليار دولار، أى أن العجز فى الميدان الغذائى وحده بلغ ١٩ مليار دولار. .

ثم قال المحرر: إننا ننحدر عاما بعد عام! فإن نسبة الاكتفاء الذاتى من الحبوب فى أوائل السبعينيات كانت ٨٤٪، ثم هبطت فى نهاية هذا العقد إلى ٦٠٪، وكانت نسبة الاكتفاء الذاتى فى السكر ٤٠٪ وفى المنتجات الحيوانية انخفضت النسبة من ٨١٪ إلى ٦٥٪، حتى القطن الذى كان لدينا من أهم المحصولات الزراعية انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتى فيه من ٢٤٠٪ إلى ١٩٠٪».

ثم قال: «. . . والوطن العربى يستورد ١٧٪ من صادرات القمح العالمية، و١٥٪ من صادرات الأرز العالمية، و ٤٠٪ من صادرات الأغنام فى العالم، و ٥٣٪ من الصادرات العالمية لزيت بذرة القطن، و ١٢٪ من زيت عباد الشمس، و١٣٪ من الألبان المجففة. .».

لم هذا الاستيراد كله؟ ولماذا لا ينتج العرب ما يستهلكون؟ وما نتيجة اعتمادهم على غيرهم فيما يأكلون؟

النتيجة نفهمها من قول وزير الزراعة الأمريكى سنة ١٩٧٥ لمجلة «دير شبيجل» الألمانية: «السلطة فى العالم تتركز فى موردين لا ثالث لهما، هما النفط والغذاء، وسلطة

الغذاء أشد قوة! ولهذا يصبح الغذاء أخطر مكانة وأعظم أثرا فى تعاملنا مع ثلثى سكان الأرض..».

ونضيف نحن أن الذين يملكون موارد الغذاء هم الذين يحمون موارد النفط لضمان مصالحهم. وقد أكد أكثر من مسئول أمريكى أن الولايات المتحدة حريصة عند تقديم مساعداتها للدول النامية على أن تكون مصحوبة بشرط تحقق المصالح الأمريكية الثقافية والسياسية..

نقول: وكذلك المصالح الصهيونية والصليبية، فإن خصوم «إسرائيل» لا يجوز أن يحصلوا على دولار واحد! وكذلك خصوم التبشير الاستعمارى والغزو الفكرى، ليس من حق صاحب اليد السفلى أن يعترض على السادة فى قليل أو كثير، إلا أن يكون الاعتراض من باب التمثيل أو من قبيل الاستهلاك المحلى.

إن المتخلفين صناعيًا وحضاريًا ليس لهم أن يغالوا بعقائدهم وشرائعهم، ليس لهم أن يحتفظوا بمعالم شخصيتهم. يجب أن يفتحوا أبوابهم لكل ما هو أجنبى، وأن يتواروا خجلا بكل ما هو قومى ووطنى»(١).

أسباب تخلف الأمة:

صنف الشيخ الغزالى كتابا فى «سر تأخر العرب والمسلمين» لا أجده أمامى الآن، ولكنى وجدت الشيخ فى كتاب آخر تحدث بإسهاب عن «أسباب انهيار الحضارة الإسلامية»، وأحسب أنها تصلح أسبابا لتأخر الأمة أيضا وتخلفها.

حصر شيخنا الإمام هذه الأسباب فى تسعة أساسية، نتحدث عنها إجمالا فيما يلى:

١ ـ سوء الفهم للإسلام، وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، وشيوع خرافات باسم الدين مثل قراءة البخارى عند الأزمات، لا اتخاذ الأسباب وفق السنن، كما حدث فى استقدام بعض المشايخ لقراءة البخارى فى سفن الأسطول التركى للبركة، فعلق بعض الظرفاء فقال: إن السفن تسير بالبخار لا بالبخارى! وقبل معركة التل الكبير أقام أحمد عرابى باشا حفل ذكر، كى ينصره الله على الإنجليز وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث الساعة!

---

(١) انظر: الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا: ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

٢ ـ وقوع الخلل الكبير فى الثقافة الإسلامية، التى هى الغذاء الفكرى والروحى للأمة، والتى تصنع عقولها وأذواقها وإراداتها.

وهذا سنعرض له بتفصيل فى المبحث القادم.

٣ ـ جهل المسلمين بالدنيا: وهذا ناشئ عن اختلال الثقافة. يقول الشيخ: قد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة، وأسلحتهم فاتكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء؟ يقول الشيخ: عندما كنت أقرأ الهجوم الفرنسى على مصر فى القرن الثالث عشر للهجرة، كنت أحس طنينا فى دماغى لكثرة ما سفك من دمائنا دون جدوى. كان الفرسان الشجعان يذوبون أمام المدافع الحديثة، والذخائر الخبيثة. وكانت خبرة الفرنسيين بالحياة وعلومها وكشوفها تساعدهم على التوغل بقدرة، وترغم الأحرار على الفرار أو الموت الرخيص! لماذا جهلنا الحياة وبحوثها على هذا النحو؟ إن العلم الواسع بالدنيا، والقدرة التامة عليها، كانت أمورا بديهية عند أسلافنا.

٤ ـ انتشار الجبرية فى العالم الإسلامى: فالإنسان مسير لا مخير، والمرء لا حول له ولا طول، ولا قدرة ولا إرادة. ومن أين له والقدر يحركه ذات اليمين وذات الشمال برغمه؟

كريشة فى مهب الريح حائرة لا تستقر على حال من القلق

فالغنى والفقر، والسعادة والشقاء، والنجاح والفشل: حظوظ مقسومة، وأنصبة مكتوبة، والمكتوب ما منه هروب! وبذلك اهتزت الشخصية المسلمة، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية.

وسبب ذلك فيما يرى الشيخ: علم الكلام، وعلم التصوف، وبعض مفسرى القرآن، وشراح السنن. وانضم إلى ذلك ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات، وانتشار فكرة الكرامات وخوارق العادات، حتى كادت تبطل السنن الإلهية التى أقام الله عليها هذا الكون.

٥ ـ تقاليد الرياء فى المجتمعات الإسلامية: فقد كان السلف أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة. جعلوا الله ورضوانه غايتهم، والرسول أسوتهم، فيما يفعلون ويتركون.

أما مسلمو العصور الأخيرة، فقد استحدثوا فى حياتهم تقاليد كثيرة، تقوم على

التكلف والتزويق والتظاهر الزائف، وتبتعد عن فطرة الإسلام السمحة السهلة. لما تأيمت حفصة بنت عمر لم ير الأب غضاضة فى أن يفاتح صديقه أبا بكر فى الزواج منها، وكذلك عثمان، بحكم عاطفة الأبوة.

واليوم وقبل اليوم يجىء الخطّاب للبنات فيرفضهم الآباء، لا لشىء إلا تحكيم تقاليد بالية، يرفض فيها من يرضى دينه وخلقه. وتغلق البيوت على عوانس كثيرات بائسات يائسات! إن الربا شرك. وهذا الشرك سيطر على أعراف وعادات جعلت المسلمين يرقب بعضهم بعضا ويتقى بعضا. وجعلت الرجل - باسم كرامته أو كرامة الأسرة التى ينحدر منها - يعيش طول عمره وفق أوضاع وقيود من صنع الاستعلاء والتزمت.

إن الأمة المسلمة فى القرون الأخيرة جمعت الكثير من الجاهليات فى مسالكها الخاصة والعامة: فى نفقاتها، فى صداقاتها، فى أحزانها وأفراحها، فى علاقاتها بحكامها، ولم تكن تفسيرا عمليا لأحكام الإسلام وحدوده، وفطرته وسماحته.

٦ - وضع المرأة فى عصور الضعف: منعت المرأة من التعلم بناء على حديث مكذوب: «لا تعلموهن الكتاب» وآخر واه جدا: «ألا ترى رجلا ولا يراها رجل».

وحرمت من الذهاب إلى المسجد بناء على مرويات أخر، تخالف المتواتر والصحيح من السنن، فأقفرت منهن بيوت الله، وانقطعت من التوجيه الدينى، فلا قرآن ولا حديث ولا فقه. . . وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم أقل ارتباطا بالدين، واتصالا بالمجتمع. فاضطرب حبل التربية فى العالم الإسلامى اضطرابا شديدا.

٧ - ذبول الأدب العربى: فعندما ضعف المسلمون أصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر. وقل الأدباء المصورون، كما قل المؤلفون والمفكرون.

ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة. . . وانكمش الأدب شعرا ونثرا انكماشا يثير الاشمئزاز.

٨ - سياسة المال فى المجتمع: فقد اضطربت سياسة المال، وساء تداولها فى المجتمع الإسلامى، ونشأ عن ذلك فقر مدقع، وترف مفسد. ورغم أن الإسلام هو أول من سير الجيوش لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين، فإن أغلب الحكام لم يهتم بهذا الجانب، وتعرضت جماهير الفقراء لضيم كبير. كما انتشرت الرشوة - وخصوصا بين الكبار - برغم لعن النبى ﷺ للراشى والمرتشى. وانتشرت البطالة الصريحة والمقنعة،

وامتلأ العالم الإسلامى بالطاعمين الكاسين من فضول أموال، لا يدرى كيف نبتت أصولها. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع فى مبحث خاص.

٩ ـ الفساد السياسى: ففى الحديث: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[1]، وما وسد الأمر إلى أهله، وما حاول الذين وسد إليهم الأمر أن يرتفعوا إلى مستواه، ولا قنعوا ماديا وأدبيا بالعيش فى نطاقه المحدود.

أهملت الشورى فى الحكم، مع أن الإسلام قرر أن المجتمع يقوم على التناصح، والتواصى بالحق، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والتعاون على الخير، ورفض الإعجاب بالرأى، والافتيات على الجماعة. كما بدا العجز الإدارى للدولة عجزا فاضحا. وفقدت الأجهزة المسئولة عن الدعوة فى الداخل والخارج، فلم يحدث أن انعقد مؤتمر يبحث عن أسباب سقوط القدس، أو بغداد أو الأندلس، ويأخذ العبرة منها للمستقبل. ومع الغفلة عاشت ـ داخل الكيان الإسلامى ـ فرق دينية أبطنت الخيانة والمروق، وظلت تنتظر الفرصة لضرب الإسلام وطعن أمته فى ظهرها.. وقد تحركت هذه فى زحف الاستعمار وكانت له عونا على الأمة الغافلة[2].

طريق الأمة للخروج من التخلف:

يرى شيخنا أن طرد المسلمين من أماكن القيادة العالمية لم يكن ظلما نزل بهم، بل كان العدل الإلهى مع قوم نسوا رسالتهم، وحطوا مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأهواء والأوهام فى مجالى العلم والعمل على سواء: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥١، ٥٢].

ولم يكن أعداء الإسلام نياما! لقد انتهزوا الفرصة، وبلغوا ما بلغوا!! وأحب أن أحدد الأوضاع السليمة لعلاقتنا بديننا، كما أحب أن أحدد الأوضاع السليمة لعلاقتنا بدنيا الناس..

إن أولى الألباب يرفضون أن تكون العودة إلى الإسلام عودة إلى الأيام العجاف من تاريخه، ويرفضون أن تكون هذه العودة امتدادا لتعصب فى فقه الفروع، ينصر مذهبا على مذهب أو قولا على قول، مع تجاهل الآثار الاجتماعية لهذا التجميد.

---

(١) الحديث رواه البخارى فى العلم (٥٩) عن أبى هريرة، وفى الرقاق (٦٤٩٦) عن أبى هريرة أيضا.
(٢) انظر: الدعوة الإسلامية ص ٦٥ ـ ٩٢.

إن الإسلام دين مضبوط الأصول محكم الشرائع، ولا نقبل أن يعبث به المعلولون ووعاظ السلاطين، هواة الاستبداد السياسى.

أما صلتنا بالدنيا فيجب أن تتسع دائرتها إلى أبعد الحدود، وأن نهجر أخطاءنا إلى صواب غيرنا، وألا نستحى من التعلم والاقتباس، وأن نحث الخطى إلى الأحسن حيث كان فى شرق أو غرب..

وفى ميدان الوسائل المرنة للأهداف الثابتة أرى أن خدمة مبدأ الشورى بالوسائل الغربية أفضل من خدمته بالوسائل العربية...

أما فى ميادين الزراعة والصناعة فإن تخلفنا البادى يفرض علينا أن نكون تلامذة، وأن نطلب هذه العلوم من الغرب أو الشرق على سواء...

ومحمد على باشا - رأس الأسرة المالكة السابقة - لم يخطئ حين أرسل البعوث إلى أوربا لنقل تفوقها الصناعى والعلمى، وإنما أخطأ أفحش الخطأ حين جعل لخدمة أطماعه فى إقامة دولة علوية، يملك فيها مصر هو وأسرته من بعده. كما أخطأ حين تجاهل الإسلام، ورنا ببصره إلى فرنسا ينقل منها التشريع والتقاليد..

وخطيئة محمد على باشا تبعه فيها زعماء معاصرون يدعون التقدمية، وأدباء صحافيون من أمثال طه حسين، ورؤساء ثورات عسكرية ظاهرها التحرر، وباطنها التبعية الكافرة للغرب الصليبى أو الشرق الشيوعى..

من قال: إن تصحيح أخطائنا المدنية يتطلب ترك الإسلام؟ إن هذا منطق العاملين لمصلحة إحدى الجبهتين الكبيرتين، وليس منطق العاملين لأمتهم بأى حال...

نحن نرفض استيراد الإلحاد والتحلل باسم استيراد العلم والمدنية! ما علاقة هذا بذاك؟

جهدنا يتوزع على جبهتين متوازيتين: إحداهما تقوم على تصحيح الوعى الدينى. والأخرى تنعشنا من الإغماءة الطويلة التى غبنا فيها عن الدنيا، فبقينا فى موضعنا وغزا غيرنا الكواكب..

وأعرف أن الغزو الثقافى سوف يحاول مخادعتنا عن عقائدنا وشرائعنا، وربما ظن أنه يبيعنا تقدمه الصناعى باستلاب تراثنا كله، وتحويل المسلمين إلى شعوب باحثة عن الطعام والجنس، زاهدة فى الوحى الذى شرفها الله به ودون هذا الموت!

وقد وضع الأستاذ خلدون حمادة أربعة شروط للاستفادة من الحضارة الغربية، ختم بها محاضرته التى أشرنا إليها، ونرى إثباتها هنا:

١ ـ يجب أن يتم الاقتباس بشكل إرادى واع، وعن طريق الانتقاء لما يلائمنا، فنأخذ ما نراه أوفق لنا وندع غيره، ونضع ما نقتبسه فى مكانه الصحيح من حياتنا.

٢ ـ ولنعلم أن الاقتباس يتم لمصلحة المقتبس لا لترسيخ قدم المقتبس عنه، وتمكينه من أعناقنا، كما يأمل الاستعمار الثقافى.

٣ ـ أن يقع ذلك على جرعات متراخية، ونظام رتيب ييسر النفع ويمنع الأزمات الحضارية، والاختناقات الاجتماعية، وعقد النقص التى قد تعترى المقتبسين.

٤ ـ ولا بأس بين الحين والحين أن نراجع ما نقلنا وما أفدنا، وأن نحسب مدى الربح والخسارة فى هذا التلاقى الحضارى، وذلك على ضوء ما نقدس من كتاب ربنا وسنة نبينا.

لقد سبقتنا اليابان إلى هذا اللون من الاقتباس ونجحت، واستطاع الشيوعيون أن يستفيدوا من العلم الغربى، مع بقائهم أعداء للرأسمالية الغربية، واستطاع الأوربيون فى العصور الوسطى أن يأخذوا العلم عن آبائنا، فأخذوا كل شىء، ونقلوا إلى بلادهم مكتبات ملأى بنفائسنا، وأحسنوا الانتقال إلى عصر الإحياء ثم استداروا إلينا ليستعبدونا!

ونحن يجب أن ندفع ضريبة تكاسلنا، وما يفكر فى الانتحار الأدبى إلا أحمق.

والناس تقسم طلاب الإصلاح فى عصرنا إلى قسمين: المحافظين على القديم، والمتطلعين إلى الجديد ـ وهذه قسمة ساذجة ـ وقبل أن نعترف بها نريد أن نسأل المحافظين: ما الذى تحتفظون به؟ ما كل قديم يستحق البقاء! ونسأل المتطلعين إلى الجديد: ما الذى تريدون اقتباسه أو نقله؟ فما كل جديد يستحق الاحترام!

إن ولاء المسلم لشىء واحد، هو الوحى الأعلى! أما ما ألقاه الشيطان فى هذا الوحى فهو دبر آذاننا وتحت أقدامنا، وسيتحقق فيه الوعد الإلهى: ﴿ ... فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢]، وكذلك ما استحدثه فلاسفة المذاهب الحديثة وزاحموا به الإسلام فى دياره، متهزين غفلة أهله، وجمود فقهائه، وزيغ ساسته. إن هذا كله لا قيمة له، ولا يصرفنا عن كتاب ربنا وسنة نبينا[1].

---

(١) انظر: كتاب: الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا: ص ١٥٦ ـ ١٦٠.

٨ـ تنقية الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامى

كان من جوانب الإصلاح التى عنى بها الشيخ الغزالى . ما يتعلق بثقافتنا التقليدية، وتراثنا العلمى الموروث . وقد درسه دراسة الفاحص الناقد، لا دراسة المقلد المتلقى .

ومن ثم وجه نقده ـ الذى لا يخلو من حدة ـ إلى تلك الثقافة، وذلك التراث، وبين مواضع الخلل، ونقاط الضعف، وذلك فى أكثر من كتاب له . ثم أفرد لذلك كتابا مستقلا نشره المعهد العالمى للفكر الإسلامى بواشنطن، وهو كتابه : «تراثنا بين الشرع والعقل» .

ينبه الشيخ الغزالى إلى أن الطريقة التى يواجه بها المسلمون الحياة تحتوى على أغلاط كثيرة .

ومردّ ذلك إما إلى جهلهم بأمور كان يجب أن يحيطوا بها علمًا، وإما إلى علمهم بأمور على غير وجهها الصحيح .

وفى رأيه أن الثقافة التقليدية ـ وهى التى تصنع عقيدة الأمة ومزاجها وشخصيتها ووجهتها ـ مسئولة عن ذلك القصور السائد .

لأنها تنقص عناصر لابد منها لتكوين الغذاء العقلى المطلوب للجماهير .

ولأنها ـ خلال القرون الطوال ـ تضمنت جملة من التصورات والأحكام المعيبة .

ولأن ما بها من حقائق ما زال يعرض العرض المنفر أو يفسر التفسير الناقص .

وذلكم هو السر الأول فى تخلف العالم الإسلامى خلال الأعصار الأخيرة تخلفا جعل الأوربيين ـ منذ عصر الإحياء ـ ينفردون تقريبا بقيادة القارات الخمس .

ومن السخف أن نجعل التصوف المنديل الذى نمسح به أوضارنا، فإن فساد التصوف جزء من الفساد الذى لحق جملة العلوم الدينية، وفى مقدمتها الفقه، والكلام، والتفسير، والحديث .

وانحطاط التعليم الدينى فى هذه المجالات هو المسئول عن تكوين أجيال ضيقة الأفق بيّنة القصور، لا تتقدم بها دنيا، ولا ينتصر بها دين .

لقد كان من إعزاز الله لرسالته الخاتمة أن خلد كتابها وعصمه، كما استبقى محمدا الأسوة الفريدة للكمال الإنسانى، فجعل سنته مصدرا ثانيا للدين بعد قرآنه الكريم .

وعن طريق الكتاب والسنّة يمكن تجديد التراث الدينى كله، وخلق ثقافة إسلامية سليمة كاملة لا عوج فيها ولا شطط.

ولست أعيب أسلافنا أو أنتقص جهادهم، فمن هؤلاء الأسلاف تلقينا فنونا من المعرفة المشرفة والتربية الصالحة.

وإنما نلفت الأنظار إلى أن القرون الأولى للإسلام مليئة بالخير والذكاء والنشاط، وأن شكوانا تنصب فى جملتها على عصور الجمود والكسل العقلى، والسماح للبدع والخرافات بالتعشيش فى أرجاء المجتمع وكأنها دين قويم وصراط مستقيم[1]!

ملاحظات مهمة على ثقافتنا:

يرى الشيخ أن ثقافتنا فى طورها القائم تحمل أخلاطا لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص، وتفرض علينا أن نميز بين الخبيث والطيب.

وهناك ملاحظات صادقة على هذه الثقافة يوصى الشيخ بوجوب وعيها؛ لأنها وراء المد والجذر الذى تعرض له تاريخنا الطويل. وهو يوجز هذه الملاحظات فيما يلى:

التقعر فيما وراء المادة:

(أ) التقعر فى دراسة ما وراء المادة مرض أصاب المسلمين، ولوى مسيرتهم العلمية ليّا شائنا. والمعروف أن الآيات المحكمة هى أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية، وأنه بحسب المسلمين فى عالم الخلق والسلوك، وعالم العقيدة والعبادة، وعالم القضاء والتشريع، أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها. أما ما تشابه فى الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل فى بحثه...

إن العقل البشرى أعجز من أن يفقه حقيقة الروح بين جنبيه، بل أعجز من أن يفقه تحول الأغذية فى جسده إلى طاقة وخلايا.

فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات؟

لكن المسلمين ـ للأسف ـ خاضوا بحارا مغرقة فى هذه البحوث العقيمة كان لها أثر وخيم فى تعجيز العقل الإسلامى عن البحوث المادية وإحسان الإفادة منها. وهذا الاتجاه

(١) انظر: ركائز الإيمان: ص ١٨٣، ١٨٤.

الشارد عصيان لله الذى أمر بالنظر فى الكون، وبنى على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة.

التنطع فيما يسره الله:

(ب) الإسلام دين عمل يؤثر الواقع على الخيال، ويؤثر الحقيقة على الظن، ويؤثر الحركة الماضية في مرضاة الله على اللغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام، وهل نجح سلف الأمة إلا بهذا المنهج؟

بيد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطولة دون سبب واضح.

والذى أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءا من أعمار المسلمين... ومثار افتراق واسع بين الدهماء، بل بين نفر من المنتسبين إلى العلوم الدينية.

ولم يكتف البعض بهذا الطول المفتعل، فأضاف إلى أعمال الحج أدعية فى أشواط الطواف وأشواط السعى لا أصل لها، حتى يزيد المراسم وعورة وتهيبا...

وقد تأدت هذه المزايدات إلى إضعاف علاقة المسلمين بالحياة، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى.

(جـ) هناك فارق مؤكد بين درجة التخصص ودرجة التثقيف العام؛ فالمتخصص يلم بمعارف شتى فى فنه، ويعيبه أن يجهل ناحية ما فى ميدانه.. أما أصحاب الثقافة العامة فيكفيهم ما يحتاجون إليه فى بيئاتهم وأحوالهم، ولا معنى لحشو أذهانهم بما لا أثر له فى معايشهم..

وقد رأيت أناسا من العوام تبلبلت أفكارهم إثر أحاديث نبوية درست لهم، وهى أحاديث صحيحة السند، ولكن ليس من الحكمة أن يعرفها العوام، فهى فوق طاقتهم الذهنية، وقد جاء فى الأثر: «إنك ما حدثت قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1].

ومع ذلك فإن قرويين وبدوا أو هملا من الخلق، يذكر لهم أن نبيا ضرب ملك الموت ففقأ عينه، وأن آدم حج موسى فى القدر فغلبه، وأن موسى راجع نبينا فى الصلوات الخمسين حتى جعلها خمسا، وأن الجبار ليلة الإسراء هو الذى دنا فتدلى.. إلخ.

(١) هو من كلام ابن مسعود رضى الله عنه.

لماذا تُشغل أذهانُ الجماهير بهذه الأمور؟ ولماذا لا يختار لهم من السنن ما يصحح وجهتهم فى الحياة؟ لقد توارث العوام أن سماع هذا الكلام عبادة، وأورثهم ذلك شيئا من الخدر والاسترخاء غير قليل. .

توجيه الضعاف للتعليم الدينى:

(د) ألف المسلمون أن يحفظ القرآن للأطفال، وألفوا أن يوجه للتعليم الدينى الضعاف والفقراء ذوو العاهات. . وفى بعض الأقطار الإسلامية يكاد العلم الدينى يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التى يشترط فيها التفوق والتبريز أو حسن المظهر وقوة العصبية. .

وهذا المسلك يزرى بمعنى التدين، ويضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة، وقد يعجزهم عن مقاومة الجبارين والخطائين. .

وعلى ضوء التجارب الكثيرة، ينبغى وضع سياسة أخرى للتعليم الدينى. .

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم فى تاريخنا، وأن عددا من الأئمة والأشياخ أدى واجبه شامخا راسخا.

ولكن عددا آخر ـ ربما كان أكبر ـ آثر الانزواء، وارتضى فى تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان.

وهناك فريق آخر ربما كان أكبر وأكبر، مشى وراء الساسة مداهنا فأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم!

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع!

موقف المسلمين من الدنيا:

(هـ) الذى أبدع هذا العالم الكبير يعرف أنه أبدع شيئا يبهر ويعجب، وعندما يلفت النظر إلى أسرار جماله، ووثاقة بنائه، فهو يرجعنا إلى الشعور بعظمته، ويثير فى أنفسنا الخضوع والإعزاز لقدرته وحكمته. . ! !

ولقد كان جديرا بالمسلمين أن يفكروا فى الكون، وينتهزوا فرصة حياتهم على

الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين، بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتى العناصر . .

إن الله لا يعرف بدراسة ذاته فهذا مستحيل، وإنما يعرف بدراسة ملكوته الضخم، واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك، لا بأسلوب شعرى هائم، ولكن بأسلوب علمى صارم . .

وذلك هو منهج القرآن الكريم. وقد ولدت الملاحظة والتجربة فى البيئة الإسلامية، وكان يمكن أن تترعرع وتؤتى ثمارها إلى آخر مدى لولا الانحراف الذى أصاب العقل الإسلامى بالتقعر فيما وراء المادة، ولولا انطلاق بعض المخربين يصرفون الناس عن الدنيا، ويضعون على حواسهم حجبا، فلا يدركون من قوتها ولا من جمالها شيئا . .

ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان ويستوى على الطريق.

إن العلم بالحياة الدنيا وارتفاقها والاستمكان منها معان إنسانية عامة فطر الناس عليها، ولا يعد التنبيه إليها مثار دهشة، بل الدهشة أن يتقلب الناس فى جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها . .

وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم، ينتفعون بها فى دعم أفكارهم وتأييد مبادئهم وقيمهم، فالكف العزلاء تخذل الحق، والسلاح التافه يجر الهزيمة[1] . . !!

ضعف التعليم الأصلى:

(و) إن التعليم الأصلى فى صدر الإسلام ـ ولم يكن ثم غيره ـ لبى حاجات الأمة التربوية والتشريعية والأدبية، وقدر قدرة تامة على تكوين أجيال ناضجة، وجعل المسلمين ـ عالميا ـ أمة تعطى أكثر مما تأخذ، بل جعلها تدفع ولا تندفع، وتغزو ولا تغزى. نعم كان المسلمون بازدهارهم العلمى الأمة الأولى فى العالم . . !

ثم حدثت بعد ذلك أمور ليس هنا مكان متابعتها، فلنقفز قفزة واسعة لنرى هذا التعليم من نصف قرن فقط.

قصور فى دراسة التاريخ:

(ز) وسأجعل نفسى ومراحل دراستى منطلق التعليق الذى لا بد منه !

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ' ص ٧١ ـ ٧٥.

في الصف الثانى من المرحلة الابتدائية درسنا تاريخ الدولة العثمانية. حسنا، إن دراسة أى شعب إسلامى أمر واجب، فالمسلمون أمة واحدة. غير أنى أتممت دراستى الأزهرية التى استغرقت خمسة عشر عاما، دون أدرس حرفا عن المسلمين فى جنوب شرقى آسيا وجنوبى آسيا نفسها، وشمالى إفريقيا وغربيها فى العصر الحديث!

لم نعرف حرفا عن الاستعمار الهولندى لجزر إندونيسيا ولا الإسبانى لجزر سولو ومنداناو وسائر الجزر التى سميت بعد «الفلبين». لم نعرف كيف استعمر الفرنسيون الهند الصينية، ولا ما حدث للمسلمين فى فطانى والملايو وسنغافورة. . إلخ.

وما يقال عن هؤلاء يقال مثله عن جهلنا المطبق بمسلمى التركستان الصينية والروسية وبقية الشعوب الإسلامية التى ابتلعها التنين الروسى.

أما القارة السوداء، والإسلام هو الدين الأول فى أقطارها، فالوضع أدهى وأمر، وقد أنشئت فيها الآن خمسون دولة وزع المسلمون عليها بخطة بالغة الخبث كى يذوبوا على عجل أو على مكث! المهم أن يذوبوا على مر الأيام.

لقد تبين لى أن دراستنا للتاريخ الإسلامى ضحلة، وأن دراستنا للتاريخ الإنسانى فوق الصفر بقليل.

كيف هذا؟ إن رسالة محمد ﷺ للقارات كلها، فكيف نجهل هذه القارات ولا نعرف ما يعمرها من أجناس ومذاهب وفلسفات؟ ولماذا نلوك بألسنتنا أن رسالتنا عالمية، دون أى سعى للاتصال بهذا العالم الرحب؟ ولماذا انتظرنا حتى اكتشف غيرنا الأمريكتين وأستراليا ووضع عليها طابعه المادى والأدبى، ثم جاء يطرق أبوابنا وهو يجرر أذياله خيلاء واستعلاء ليعلمنا مالم نكن نعلم؟

إن القرآن الكريم يجعل السياحة من خلال الفضل، ويجعل دراسة التاريخ كله من مكونات العقل!

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦].

الحق أن المشرفين على التعليم الأصلى من أمد طويل فرطوا فى حقوق الأخوة الإسلامية حين فرطوا فى دراسة الأجناس التى اعتنقت الإسلام، وعموا عن قضاياها المصيرية، ونسوها على هذا النحو الشائن.

وأساءوا إلى عالمية الرسالة المحمدية حين انطووا على أنفسهم وانشغلوا بمشكلاتهم، تافهة كانت أو جليلة، فكان عقباهم هذا البلاء الذى نزل بهم من كلاب الأرض وذئابها.

وقفت ـ وأنا أزور البحرين ـ أمام بقايا قلعة برتغالية لا تزال جاثمة على أرضنا، وغصت فى أعماقى أنبش معلوماتى التاريخية، متى وصل القراصنة هنا؟ ولم أستطع الإجابة! وسكت وأنا محزون.

قصور فى معرفة الفقه والتشريع:

(حـ) ولأترك تقصيرنا فى دراسة التاريخ الإسلامى، وتقصيرنا فى الإلمام بمعالم تاريخ الإنسانية قديما وحديثا، ولأنتقل إلى موضوع آخر.

إن التشريع الإسلامى أنفس مواريثنا الحضارية.

والقانون الرومانى إذا قيس بفقهنا الرحب كان كالكوم التافه إلى جوار جبل أشم.

وعلم أصول الفقه هو ـ كما قال الشيخ مصطفى عبدالرازق ـ آية العبقرية العربية، وهو أدل على فكرنا وأصالة بحثنا من الفلسفة الإسلامية لأنه نتاج إسلامى خالص رائع.

غير أن علم الأصول فى دراساتنا الأخيرة أمسى علما أثريا هامدا يحفل بالأقوال والمناقشات الحرفية، ولا صلة له بتشريع خاص أو عام. وقد جدد الشاطبى منهجه فى الموافقات، كما أن لبعض المذاهب الفقهية قواعد أصولية جديرة بالحفاوة! ولكن ذلك كله مهجور فى دراستنا.

والمادة العلمية لا تعدو التلخيص أو التمطيط، والاطلاع النظرى على مخلفات الماضين.

أما الفقه الإسلامى الذى استبحر قديما وحكم العلاقات الدولية كما حكم الروابط العائلية، فهو يحيا الآن على هامش المجتمع الإسلامى، ريثما يتم رميه بعد حين فى سلال المهملات.

فقه لا يستفتى فى الشئون العمالية أو الدستورية أو الدولية، وقد يسمع قوله أحيانا فى بعض الشئون، أو لا يسمع.

ورجال التعليم الأصلى مسئولون عن هذا المصير الكابى، فنحن ندرس الفقه على نحو

عقيم أو قليل الجدوى، وأذكر أنى فى الحادية عشرة من عمرى بدأت أدرس فقه العبادات على المذهب الحنفى وكان زملائى الآخرون يدرسونه على مذاهب أخرى.

وفى ظنى أن الفقه المذهبى نوع من التخصص العلمى، التخصص المبكر الذى لا معنى له.

ووددت لو تعلمنا العبادات من خلاصات سهلة من الكتاب والسنة، ثم بعد فترة نتوزع على الفقه المذهبى، ولا بأس فى أن يدرس الطالب أكثر من مذهب فقهى إذا كان سيتجه إلى هذا الميدان. ويجب أن تدرس المذاهب على أنها وجهات نظر متساوية القيمة، وأن تناقش الأدلة وتوزن الاتجاهات بحياد علمى وصدر مفتوح، لا مكان فيه للخصومة والجفاء وتفريق الأمة.

وأرى أن يوضع حد للتقطع القائم بين آراء الفقهاء الكبار، وأن يدرس الأزهر ابن تيمية، وابن حزم وغيرهما إلى جانب الأئمة الأربعة. إننا نواجه طوفانا من الأفكار والموازين الشائعة للحقوق والمصالح ولا مساغ لمقابلة هذا الطوفان بفكر إسلامى واحد، بل يجب أن يقابل بجميع المدارس الفقهية عندنا.

ثم إن الخلود لكتاب الله وسنة رسوله لا لاجتهاد بشر، ويعنى هذا ألا نتحرج من وزن الاجتهادات القديمة وأن ننفض يدنا من بعضها إذا بدا ألا مجال لبقائه.

ألا ترى ابن تيمية عدَّ الطلاق الثلاث واحدا، لما رأى أن اجتهاد عمر فى إمضائه ثلاثا أدى إلى نتائج سيئة؟ لقد عاد به إلى الأصل على عهد النبى ﷺ وعهد أبى بكر..

وهناك اجتهادات كثيرة ينبغى أن يتوفر الراسخون فى العلم على وزنها، وإعادة تقويمها، حتى لا يجىء امرؤ يخدم الاستبداد السياسى بدعوى أن الشورى لا تلزم حاكما.. مثلا! والقضايا الاجتهادية كثيرة، وقد نستبدل اجتهادا باجتهاد، أو نأتى بجديد تحتاج إليه الأمة وتقره النصوص والقواعد.

وأحسب أن فقه العبادات سوف يبقى على حاله، أما الفقه الإدارى والدستورى والدولى فإن تياراته الراكدة يجب أن تتحرك، وأرى لفيفا من المسئولين عن التعليم الأصلى كانوا - باسترخائهم وتقاعسهم - سببا فى انهزام الشريعة وهجوم قوانين دخيلة على دار الإسلام، أى أننا أزرينا بأفضل مواريثنا، ومكنا لتشريعات وضعية معيبة أن تتسلل وتحتل أرجاء المجتمع، مع الغنى التام عنها.

قصر الباع فى العلوم الكونية والإنسانية:

(ط) ومن ذلك : القصور فى علوم الكون الإنسانية . يقول الشيخ :

« وأعود إلى ذكريات تعليمنا الثانوى، كانت الشهادة الثانوية قسمين؛ أولا وثانيا، وكان مفروضا فى القسم الأول أن ننال من علوم الكون والحياة والرياضة ما يناله زملاؤنا من طلاب التعليم المدنى، لا نقل عنهم إلا معرفة اللغات .

ثم شكا بعض قصار الباع من هذا الوضع، فإذا لجنة تتكون لتحذف كثيرا من علوم الأحياء والرياضة والطبيعة والكيمياء بحجة ضعف الطلاب فى العلوم الأصلية! والحجة مفتعلة! وقد نشأ عن هذا الحذف تخرج علماء لا يدرون من العلوم المهمة إلا فتاتا خفيف الوزن .

وأحب أن أنبه إلى أن كل قصور فى العلوم المدنية لا يزيد دارسى الدين إلا خبالا . إن الإسلام دين لا ترسخ قواعده ولا تنضج معارفه إلا فى جو علمى واسع الآفاق، ولا أدرى كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما . .

إننى شعرت بخجل حين استبعد عالم دينى الوصول إلى القمر، وقال فى التعليق على ما أذيع : إنه خبر آحاد! وشعرت بخجل أشد عندما ألف بعض المنسوبين إلى العلم الدينى - بل البارزين فيه - كتابا ينكر فيه دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وساق آيات من الكتاب لم يفهمها ليدعم رأيه .

إن عقيدة التوحيد تضار حين يعرضها أولئك القاصرون! وهم معذورون؛ لأنهم لم يعرفوا من العلوم الكونية شيئا، وجل ما يحفظون مرويات تتضمن الغث والسمين، وتعرقل سير الدعوة، بل تلقى ظلمات على الفكر الدينى كله .

والواقع أن تكوين العقل الدينى لا يتم إذا كان فى عزلة عن الاستبحار العلمى الحديث، وأهل الذكر لا تستقيم لهم فتوى إذا كانت معرفتهم بالحياة لا تعدو الأبجديات القديمة .

وأرى ضرورة تنظيم محاضرات فلكية وطبية وجغرافية وجيولوجية وفيزيائية وكيمائية . . إلخ على المشتغلين بالعلم الدينى حتى بعد تخرجهم، فإن التخلف فى هذا المضمار مصيبة .

ونلاحظ أن هناك وحشة بإزاء عدد من العلوم الإنسانية مثل علم النفس والتربية والأخلاق والاجتماع . . إلخ .

والواجب أن تدرس هذه العلوم، وأن توضع فى إطار إسلامى صلب.

غربلة التراث الصوفى:

وعندى أننا لو غربلنا التراث الصوفى، وقدرنا جهود ابن القيم وابن الجوزى والغزالى وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم، لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر فى مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية فى قالب إسلامى جميل ونافع.

لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوف علما، وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار شيوخ لا يحسنون التربية والقيادة، بيد أن هؤلاء القاصرين كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهين فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها.

فإلى متى يبقى هذا الموقف الرافض؟ وماذا كسبنا منه؟

كسبنا أن الدين عند العوام وأشباههم جملة من الأحكام الجزئية، والمعارف المبتورة، ومن ورائها طباع لم تهذب، وأهواء قد تعلن عن نفسها بمكر فى صور الطاعات وقشور العبادات، أما الضمير فميت!

إن الدين يفقد جوهره حين تَهِى علاقته بالقلب، وعلم القلوب أو علم السلوك وجد فى التصوف الإسلامى خواطرهَ ومراحله، والمهم هو ضبطها بتعاليم الشريعة، ومنع العواطف السائلة الرجراجة من الانطلاق دون حدود.

وإنه لمما يعين على إدراك هذا الهدف الاستعانة بالعلوم الإنسانية، خصوصا بعدما هجرت منهجها الفلسفى وخطت لها مجرى علميا يحترم الحقيقة ويلتزم بها»[1].

سقوط الخلافة أهون من سقوط الثقافة:

إن بقاء الثقافة الإسلامية حية نابضة نقية، قادر على أن يعيد الحياة والعافية إلى الجسم الهامد العليل.

لقد مرت بالمسلمين قرون أربعة عشر، فيها قرون حية، وأخرى هامدة، فيها أيام مزهرة بالعلم، وأخرى مظلمة بالجهل.

---

(١) علل وأدوية: ص ١٨١ ـ ١٨٨.

وامتددنا حتى أدبنا الجبابرة، وانكمشنا حتى استنسر بأرضنا البغاث. ليكن، فتلك طبيعة الحياة الدنيا . .

والدرس الذى لا يجوز أن يغيب عنا : أننا ما فقدنا الصدارة قط ونحن أوفياء لربنا ونبينا، ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١].

ومن قدرنا نحن مسلمى القرن الرابع عشر أن تسقط الخلافة الإسلامية فى أوائل هذا القرن، وما هذه أول مرة تسقط فيها الخلافة، لقد ديست فى بغداد على أيدى الهمج فى القرن السابع . . وسقوط الخلافة الإسلامية حدث شنيع، ولكنه مهما قبح دون سقوط الثقافة الإسلامية . . ! !

لقد بقى العلم الإسلامى يضع فى العقول النور، ويضع فى القلوب اليقين.

وكافح العلماء حتى صنعوا أجيالا أشرف وأزكى، وعادت الخلافة مرة أخرى ترفع علم التوحيد فى المشارق والمغارب . .

وخصوم الإسلام فى هذا العصر مستميتون لأن يسقطوا معاقل الثقافة الإسلامية، وأن يردموا منابعها أو يلوثوها ما استطاعوا، وذلك حتى لا تعود للإسلام وحدته الكبرى ودولته الجامعة، ومن ثم فإن الجهاد العلمى الآن فريضة محكمة. إن الثقافة الحارسة لتراثنا كفاح أدبى هائل النتائج، بل إنه الكفاح الذى يوزن فيه مداد العلماء بدماء الشهداء . .

أذكر أن الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ـ طيب الله ثراه ـ قال لى : عندما أسقط الحلفاء الخلافة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، قررت جميع القوى التى شاركت فى ذلك أن تنتقل إلى القاهرة كى تضرب ضربتها الأخيرة بوصف القاهرة هى العاصمة الثقافية للعالم الإسلامى.

لكن موطن الأزهر قاومت ولا تزال، ونرجو أن تظل راية الثقافة الإسلامية مرتفعة فى مصر، وشتى عواصم الإسلام.

وإنى إذ أقرر هذه المقاومة لا أريد الترويج لخدعة كبيرة يفهم منها أن التعليم الدينى بخير، وأن الثقافة الإسلامية فى أمان.

العكس هو الصحيح، والمسلمون يعانون أزمة ضروسا فى الدعاة والمربين، والفقهاء والمفتين، والميدان الإسلامى من عشرين سنة ينتقص كما وكيفا، وهنا مكمن الخطر!

لقد قلت : إن الهزائم العسكرية عرض يزول ، أما الهزائم الثقافية فجرح مميت ، والثقافة الصحيحة هى التى تبنى الإنسان المسلم والمجتمع المسلم على قواعدهما الركينة من كتاب الله وسنة رسوله ، وعبقرية البناء الصحيح المتين هى التى استبقت صرح الإسلام إلى يوم الناس هذا . . .

إنه أمام التمزيق المتعمد للرقعة الإسلامية الكبرى لابد من ثقافة تؤكد وحدتنا العاطفية والفكرية . وأمام المغالاة بالقشور والرسوم ، والمخاتلة بالصور الشائهة ، نريد ثقافة تنشئ العقل المسلم ، والضمير المسلم ، والسلوك المسلم . . وأمام العجز الشائن فى شئون الدنيا نريد ثقافة تجعل عبادة الله سواء فى المسجد والمصنع .

لقد ضاقت نفسى بلفيْف من الناس يدَّعون الإسلام ولا جهد لهم إلا استفزاز الأقوياء وتلقى الضربات ! أما العمل الصامت الذكى لخدمة الإسلام وأمته فقلما يحسنون .

وما كان ذلك دأب سلفنا الذين امتلئوا أمانات وكفايات من أخمص القدم إلى ذؤابة الرأس ، اقتحمتهم العيون أول ما خرجوا من الصحراء ، فلما اشتبكوا مع أبناء الحضارات المدبرة فى فارس والروم جثا التاريخ بين أيديهم يسجل ويروى .

ومهما تكن الهزائم التى أصابتنا خلال هذا القرن ، فإن يوم الإسلام قادم لا ريب فيه .

سنظل نقاتل الإلحاد الشيوعى ، والعدوان اليهودى ، والاستعمار الصليبى ، تحت علم التوحيد ، وسيكون القتال قاسيا كثير الشهداء .

وفى ذروة هذه المعركة سينزل عيسى بن مريم ليكذب بنفسه الذين جعلوه إلها مع الله ، ولن يقبل هدنة إلا إذا اندحر الباطل وسويت قلاعه بالرغام ![1] .

---

(١) انظر : الدعوة الإسلامية : ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢ .

٩ـ ترشيد الصحوة

عنى الشيخ الإمام بالصحوة الإسلامية، ويُعَدّ واحدا من أبرز آبائها، إن لم يكن أبرزهم. عنى ببعثها، كما عنى بترشيدها، حتى لا تهدم من الداخل، أو تضرب من الخارج، وكتبه الأخيرة تكاد تدور حول هذا المحور، من هذه الكتب:

- دستور الوحدة الثقافية للمسلمين.
- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.
- هموم داعية.
- علل وأدوية.
- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.
- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر.
- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا.
- مستقبل الإسلام خارج أرضه.
- الطريق من هنا.
- الحق المر.
- السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث.

وهذه الكتب امتداد لكتبه القديمة الناقدة للتدين المعلول، مثل: تأملات في الدين والحياة.. وليس من الإسلام.. وركائز الإيمان بين العقل والقلب.

وهو يريد للأمة أن تلتف حول هذه الصحوة لا أن تتفرج عليها، فهي منها ولها.

معالم لترشيد الصحوة:

يقول في أحد كتبه ـ راسما بعض المعالم الرئيسية للصحوة المرجوة ـ:

«إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه. ولا يغض من موقفه نفر شذاذ من الخونة والجبناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن!

ولكى نحسن الوقوف أمام عدو الله وعدونا يجب أن تتوافر لجبهتنا العناصر الآتية :

أولا : يعود الولاء للإسلام ويستعلن الانتماء إليه ، وفى حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا!

لماذا يتقرر إبعاده عن المعركة؟ ولحساب من؟ إن رفض الإسلام فى هذه الساعة هو الانتحار ، وطريق الدمار ، بل هو قرة عين الاستعمار . .

ثانيًا : الولاء الشكلى للإسلام مخادعة محقورة ، ومن المستحيل أن نرتبط روحيًا ومنهجيًا بالماركسية أو بالصليبية وفى الوقت نفسه ندعى الإسلام . .

يجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا ، والمسلم الذى يستحى من الصلاة بينما يستعلن اليهودى بصلاته فى أرقى العواصم لا يمكن عده مسلمًا! ولن ننال ذرة من عناية الله إذا اتخذنا الدين لهوًا ولعبًا . .

ثالثا : يقصى من ميدان التدين : العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدى الساسة المنحرفين ، ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم . .

والعلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن ، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل .

والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم ، ويرونه فى سياسة الحكم والمال ظهيرا للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب .

إن المسلمين فى المشارق والمغارب مهيئون ليقظة عامة تحمى كيانهم وتستبقى إسلامهم . وهم كارهون أشد الكره لأن تكون الأحوال المعاصرة صورة طبق الأصل لما كان عليه المسلمون قبل الهجوم الصليبى فى العصور الوسطى .

أطلب من عباد الله الصالحين أن يصيخوا السمع للنذير العريان ، قبل أن يأخذنا الطوفان ، فإن الأقدار تقتص من المستضعفين المفرّطين ، كما تقتص من المجرمين المعتدين .

وينبغى أن نزيد الأمر وضوحًا فيما يفعل اليهود ، وفيما يراد منا فعله ، فإن مسافة الخلف واسعة بين الموقفين . لقد تأملت فى الأحداث المثيرة التى وقعت ، فوجدت أن الذى أضرم النار فى المسجد الأقصى من بضع سنين يهودى أسترالى ، وأن الذى أطلق الرصاص على المصلين فقتل وجرح عشرات ، وصوب طلقاته على قبة الصخرة فكاد يهدها يهودى أمريكى!

إن الأخوة الدينية جمعت بين الأستراليين والأمريكيين لدعم «إسرائيل»، وكذلك جمعت هذه الأخوة بين شرقي أوربا وغربيها، وبين اليهود العرب في إفريقية وآسيا! وعد أولئك كلهم أولاد الأنبياء، ونسل يعقوب المبارك!

والعالم المتحضر لا يرى في هذا الرباط شيئًا ينكر. . الشيء الذى ينكر حقا هو الإخاء الدينى بين المسلمين وحدهم، وتحول هذا الإخاء إلى سياج يحمى عرب فلسطين من الهاجمين عليهم!!

ومن ثم كانت قضية فلسطين عنصرية لا دينية، كما يصورها لنا الخادعون المخدوعون!

والوجود اليهودى فى فلسطين المحتلة لا يجوز أن يستغربه العرب، لماذا لا يكون إحساسهم به على أنه واقع طبيعى لابد منه؟ ونتساءل: هل الوجود العربى إلى جوار اليهود له أى احترام فى توراة اليهود وتلمودهم؟ إن إسرائيل من الفرات إلى النيل، ومن دمشق إلى المدينة! وبلوغ المرام يتم خطوة خطوة عند قوم يستغلون الزمن، ويحسنون التريث، ويعرفون متى يضربون!

ظاهر أن المراد تنويم الأمة المثخنة من الداخل والخارج حتى يتم الإجهاز الكامل عليها.

إن المأساة المقلقة وقوع الغارة اليهودية، ومن قبلها الغارة الصليبية فى أيام نحسات من تاريخنا المديد! فالعلم بالدين سيئ والعمل به أسوأ، وقد استطاع الاستعمار الثقافى خلق جيل مهزوز الإيمان والفقه، ضعيف الثقة بنفسه وأمته، فهو يعطى الدنية فى دينه ودنياه، غير شاعر بأولاه وعقباه.

إننا بحاجة إلى يقظة عامة تتناول أوضاعنا كلها، حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا فى عالم لا تسمع فيه إلا عواء الأقوياء»(١).

الدفاع عن الرموز والأعلام:

ومن ميادين إصلاح الصحوة وترشيدها لدى الشيخ الغزالى: العمل على تجميع الجبهة الإسلامية، وتقريب بعضها من بعض، وضم جهودها للتشييد لا للتقويض، والوقوف فى وجه الكيد الصهيونى والمكر الصليبى، والتهجم العلمانى.

---

(١) هموم داعية: ص ١٠٨ ـ ١١٢.

إنه يأسف أشد الأسف حين يرى الجبهة الإسلامية يناوش بعضها بعضا، أو يكيد بعضها لبعض، أو تحاول فئة منها هدم غيرها لبناء نفسها على أنقاض الآخرين.

وهو يأسى كل الأسى إذا وجد بعض الصغار يتطاولون على الكبار، ويحرصون على هدم القمم، وتشويه الرموز فى تاريخ الأمة وتراثها الفكرى.

دفاع عن الإمام الغزالى:

ولكم تملكه الغضب والحزن حين بلغه أن رجلا قام يلقى محاضرة فى إحدى الجمعيات عنوانها «أبو حامد الغزالى الكافر»!

يقول الشيخ: «فزعت لشناعة التهمة الموجهة إلى إمام ضخم من قادة الفكر الإسلامى. لقد كان أبو حامد عالمًا أديبًا، وفقيها أصوليا، ومربيا فيلسوفا»[1].

وهو أذكى من أرسطو وأفلاطون وسقراط، الذين تشمخ بهم اليونان، وتعتز بهم أوربا. لماذا يقوم امرؤ بتكفيره؟

وإذا كانت للرجل أخطاء فى الأحاديث النبوية، فقد استدركت عليه من أصحاب هذا الفن، ليتيسر ـ بعد ذلك ـ الانتفاع بعلمه الغزير.

ويوم طغت الفلسفة اليونانية على العقل الإسلامى اجتاحها أبو حامد بكتابه: (تهافت الفلاسفة) ليعيد إلى الأصول الإسلامية مكانتها. ويوم استهلك الترف أمتنا، حكومات وشعوبا، وأذلها عن رسالتها الكبرى عمل على «إحياء علوم الدين».

هذه العلوم كانت تحتضر، وكان المسلمون قد فقدوا جدارتهم بالحياة، فعندما هجم الصليبيون على الشام، واستباحوا بيت المقدس لم يكن فى مواجهتهم أحد.

إن هؤلاء الصليبيين الزاحفين لو قاومهم جيش من الكلاب لهزمهم، فقد كانوا يجرون أقدامهم جرا من الإعياء والمجاعة، ولكنهم لم يجدوا أمامهم أحدا! أين كنا؟

وجهد الغزالى فى الإحياء مشوب، وقد وقع فى أخطاء شتى، بيد أن الكتاب من أخصب المؤلفات فى شرح آفات النفوس، وتقويم الطباع البشرية، واقتياد البشر إلى ربهم تبارك اسمه، فهل جزاء الرجل بعد ذلك أن يتهم بالكفر؟

---

(١) انظر فى ذلك: كتابنا: الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه، طبعة دار الوفاء بمصر.

إن المسارعة فى التكفير دأب الرعاع والحمقى! وهناك علماء مبرزون فى ميدان ومقصرون فى ميدان آخر يعطون أنفسهم حق إصدار أحكام علمية وتاريخية فى كلا الميدانين، وهم يعينون الجهلة على تكوين أفكار منحرفة ضد رجال أبرياء.

ولو اتجهنا إلى البناء بدل الهدم، وإلى الإنصاف بدل الحيف لكنا أهدى سبيلا(١).

إن الشيخ يؤلمه ويحزنه ما يراه من تفرق العاملين للإسلام، وتشتت الجبهة الإسلامية، فى حين أن خصومهم المهاجمين لرسالتهم من دعاة اليمين واليسار، متفاهمون على الغاية المنشودة، متعاونون فى الطريق الطويل، يقيم بعضهم بعضا إذا كبا، ويغطيه إذا تعرى، ومع أن للكثير منهم أخطاء مذلة فقلما تجد من يتتبعها، وقد وزعوا الأدوار بينهم، ومشوا إلى هدفهم متساندين.

أما الإسلاميون فما بينهم متقطع، وإذا تصالح ندامى الحان، وتشاكس إخوان المسجد، فستتكسر المئذنة ويستولى السكارى على المحراب.

يقول الشيخ:

«اطلعت أمس على مجلة أحبها فقرأت فيها لمزا للأديب الحر المصلح عبدالرحمن الكواكبى، وتفسيقا لرجلين من بناة النهضة الإسلامية الحديثة.. وأنا أحد تلامذة «المنار» وشيخها محمد رشيد، وأستاذه الشيخ محمد عبده.

وأنا أعرف أن المتنبى - غفر الله له - كان يحب المال إلى حد البخل! ويحب الإمارة إلى حد الجنون. ومع ذلك أطرب لشعره، وأستجيده وأستزيده، وإذا لم يكن أمير الشعراء العرب فهو من قممهم.

إننى لا أجعل عيبا ما يغطى مواهب العبقرى، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبى والدينى؟ ولمصلحة من أشتم اليوم علماء لهم فى خدمة الإسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور؟

ومن يبقى من رجالنا إذا أخذت تاريخ الشيخين أبى بكر وعمر من أفواه غلاة الشيعة، وتاريخ على بن أبى طالب من أفواه الخوارج، وتاريخ أبى حنيفة من أفواه الإخباريين، وتاريخ ابن تيمية من ابن بطوطة وابن فلان، وتاريخ محمد بن عبدالوهاب من أفواه الأتراك.. إلخ؟

---

(١) انظر علل وأدوية: ص ١٠٥، ١٠٦.

وددت لو أعنت على محاكاة أبى حامد الغزالى مؤلف «إلجام العوام عن علم الكلام» فألفت كتابا عنوانه: «إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار» لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم.

وجهة نظر فى أقدار الرجال:

أكره التعصب المذهبى، وأراه ضيق عقل وقلة علم، أو ضيق خلق وقلة مروءة.

وأستحب التقليد المذهبى للعامة وأشباههم، وللأخصائيين فى علوم الكون والحياة وشئون الدنيا، حتى لا تشغلهم الفضول عن الأصول! وأعنى بالأصول ما توفروا عليه من مهارات فنية وحيوية، مدنية أو عسكرية لابد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها، فإن مصاب المسلمين فى هذه الميادين فادح أو فاضح.

أما المشتغلون بعلوم الدين التقليدية، فلا بأس أن يوازنوا بين وجهات النظر المختلفة، ويرجحوا دليلا على دليل ومذهبا على مذهب.

مع إكنان الاحترام للرجال الذين قادوا ثقافتنا القديمة. وليس هذا تفضلا عليهم نتطوع به، بل هو أدب ننزل به على قول رسولنا الكريم ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»(١).

واحترامى لك لا يعنى بتاتا أن أسلم بكل ما تقول، وتخطئتى لإنسان ما لا تعنى أبدا أنى أفضل منه، إن حقيقة الفضل لا يعلمها إلا الله، والأئمة الراسخون قد تقع منهم هنات، وما يهدم ذلك مكانة حصلوها بالسهر والإخلاص والدأب والتفانى.

مع محمد عبده:

وقد نبتت فى عصرنا هذا نابتة سوء تغمز الأكابر بما تراه مأخذا عليها، وتتعامى عن كل مالهم من حسنات.

فمن من عباقرة الأرض رزق العصمة؟ ذاك لو سلمنا بأن ما ذكروا مآخذ.. أقول ذلك

---

(١) الحديث رواه أحمد والحاكم والطبرانى عن عبادة بن الصامت بلفظ: «ليس منا من لم يجل كبيرنا..» الحديث. قال الهيثمى: «وسنده حسن».

لمناسبة ما قرأت من تهجم على الشيخ محمد عبده وهو أحد رواد الإصلاح الحديث، وروح الفقه المتجدد فى مدرسة المنار.

أول ما عرفت الشيخ فى كتابه: «رسالة التوحيد»، وهو عرض جديد لعلم الكلام ردم الفجوة بين السلف والخلف، وشرح العقائد شرحا يمزج بين العقل والنقل، وتجاوز الترف العقلى والجدل اللفظى ومنهج المتون والشروح، وقدم أصول الإسلام تقدمة دقيقة جيدة.

ثم قرأت كتابه عن «الإسلام والعلم» الذى رد به على وزير خارجية فرنسا، فرأيت رجلا عليما بالإسلام وتاريخه وفضله على الحضارة الإنسانية، عليما فى الوقت نفسه بالنصرانية والهندوكية وتاريخهما وما يكتنفه من غيوم.

وقد ألف الكتاب فى ليلة واحدة لشدة غضبه من الهجوم الفرنسى، وملأه بالوثائق التى تشرف الحق وتخزى الباطل[1].

مَنْ مِنْ علماء المسلمين فى عهده تحرك بهذه العاطفة ورد بهذا الرسوخ؟

ثم قرأت تفسيره للقرآن الكريم، ووجدت بواكير التفسير الموضوعى للسورة فيما كتب، اهتدى إليها ذهن لماح مستوعب، وبصر حديد فى إدراك الخيوط التى تشد أجزاء السورة، كما تشد الأعصاب أجزاء الكائن الحى.

ويمكن عند متابعة المنار أن يعرف فضل الرجل فى تجلية المعنى والحكمة، ودفع الشبهات ودعم اليقين.

قال صديق: لا تنس أن الرجل ـ من الناحية العلمية ـ متهم بتجاوز أحاديث صحاح، وهو اتهام لو صح يسىء إلى مكانته! قلت: نعم، إن الذين يرفضون السنة النبوية مصدرا للتشريع بعد القرآن الكريم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، وإذا كان رفضهم للمتواتر والآحاد جميعا فهم كافرون يقينا.. بيد أن هنا خلطا مزعجا ينبغى كشفه، فإن جماهير أهل العلم تعترف بالسنة جملة، ويقوم لديها بعدئذ من الأسباب الوجيهة ما ترد به حديثا من مرويات الآحاد.

والذين يفعلون ذلك لا يسمون مكذبين بالسنة، فإن ردهم لهذا الحديث إنما وقع لأنهم

(١) ومن كتبه الجديرة بالتنويه: كتابه: «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» الذى رد به على النصرانى اللبنانى فرح أنطون، الذى ادعى أن النصرانية كانت أرحب صدرا للعلم والمدنية من الإسلام، فأسكته الشيخ بكتابه هذا الرائع، الذى يدل على غيرة الرجل، وعلى سعة علمه بالإسلام والنصرانية أيضا.

يستبعدونه من السنة المطهرة، كأنهم يقولون عنه: هو موضوع، أو فاقد لشرط من شروط القبول المقررة.

وخصوم محمد عبده يكادون يتهمونه بالزيغ؛ لأنه رفض حديث سحر الرسول ﷺ، مع أنه رفضه تعلقا بظاهر القرآن الكريم وإعلاء لقدر المصطفى.

وأخلص من هذا التطويل إلى أن اتهام الرجل برفض السنة كلها ـ لأنه اعترض أثرا محددا ـ جور شديد، ومدرسة المنار شديدة الاحترام للسنة، ولكن القرآن عندها الدليل المقدم، ومن يعترض هذا؟

قال الصديق: فى كلامك وجهة نظر قد تقبل، لكن ما لا يقبل تطويع القرآن لنظريات علمية أو مفاهيم حديثة، إن تفسير الشيخ للملائكة، وللطير الأبابيل لا مساغ له!

قلت: قد يكون تطرف فى تقريب المعانى من أذهان المعاصرين[1]، ولست ممن يرتضون هذا المنهج، غير أنى أتساءل: لماذا يحسب عليه ذلك، ولا يحسب له تفسيره. القيم النقى لآيات سورة الأحزاب فى زواج بنت جحش، وتفسيره الرائع لآيات سورة الحج:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢].

إن الرجل دمر خرافة الغرانيق التى وجدت لها أسانيد عند بعض المحدثين الكبار، وذاد عن السيرة الشريفة أوهاما تعكر صفاءها، ويبدا من أسلوبه فى الاستدلال أنه استدرك على بعض المحدثين اهتمامهم بالسند وذهولهم عن المتن، وأنه رفض تقوية الفرع على حساب توهين الأصل.

والواقع أنه لا يرد أوهام المستشرقين، ولا يصد مفتريات المبشرين إلا فكر على هذا الغرار، فهل ذلك عيبه؟

صحيح أن الجانب السياسى فى حياة الرجل موضع أخذ ورد، وأعرف أنه كان فى

---

(١) ظهر الشيخ محمد عبده، والغرب فى أوج حضارته وازدهاره، والمسلمون فى حضيض هبوطهم، وهذا كان له تأثيره على الشيخ ومدرسته فى محاولة التقرب من الفكر الغربى، وإزالة الحواجز بينه وبين الفكر الإسلامى، إلى حد التنازل والتجاوز أحيانا، فمن الإنصاف أن نضع الرجل فى زمانه، لا أن نحاكمه إلى زماننا نحن، وعلى كل حال لم يقع السيد رشيد رضا فيما وقع فيه شيخه من التأويل المردود.

وضع لا يحسد عليه بين محتل غاشم وقصر خائن. وليست لى دراسة مفصلة لهذا الجانب، وإنما أعلم أن دواعى التزكية والترجيح، والإهانة والتجريح، طيعة لمن أراد المدح والقدح، والمصير إلى الله الخبير بالنيات، وإنما عنانى فقط الجانب العلمى الذى يعنى المسلمين كلهم، وله بحاضر المسلمين ومستقبلهم علاقة وثيقة.

مع جمال الدين الأفغانى:

وأذكر فى سطور قلائل رأيى فى جمال الدين الأفغانى، لوددت أن يكون علماء الدين على صفته فى عزة النفس وشموخ الأنف والتوكل على الله. عندما ذهب إلى الآستانة طلب منه السلطان عبدالحميد أن يدع مهاجمة شاه إيران، وأنصت جمال الدين دون أن يرد، فلما طال إلحاح السلطان عليه قال منهيا الحديث: قد عفوت عنه!

وشُده السلطان، وذعرت الحاشية! قد عفوت عنه؟ العهد بعلماء الدين أن يكونوا مدفوعين بالباب ينتظرون الجدا، ويشكرون الندى. فما بال هذا الرجل يناصى الملوك ويحاكم أخطاءهم؟!

قال المؤرخون: ما كان جمال الدين يرى نفسه دون الخليفة.

هل هذا السمو خلق عميل للماسونية كما يقال؟! إنه خلق متوكل وثيق الصلة بربه، راسخ القدم فى دينه، وما سمعت قبله ولا فى عصره من كشف أحقاد الصليبية العالمية، وألب الجماهير ضدها، وشن الغارات شعواء على المستبدين والظلمة، ونفخ من أنفته فى الشعوب الراكدة المستعبدة يحضها على العمل لدينها ودنياها. إن الرجل وحده كان صاحب هذا الصوت ويظهر أن تلك كانت جريمته.

قالوا: كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية، ولا أنفى هذا، وإنما أسأل: فى أى كتاب إسلامى شرحت آثام الماسونية وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغانى؟

إنه خدع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم فى المؤسسات العالمية الكثيرة، والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات عليلا أو قتيلا لم يؤثر عنه إلا العمل على استنهاض المسلمين وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم.. وذاك حسبه من الشرف.

أذكر أن «بابا روما» الأسبق مات عقب مرض ألم به، فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدرى ما فيها عن حياته الخاصة، فصودرت الرسالة، وفصل الطبيب من النقابة، وانتهت حياته الاجتماعية.

وقد ألفت عشرات الكتب عن «نابليون» تنوه بأمجاده، وتتواصى بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته.

القوم إن رأوا من عظمائهم خيرا أذاعوه، وإن رأوا شرا دفنوه! أما نحن فمبدعون فى تضخيم الآفات إن وجدت، واختلاقها إن لم يكن لها وجود، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ[١].

والعجيب أن غلاة الإسلاميين اتفقوا فى موقفهم من الأفغانى مع غلاة العلمانيين! على بعد ما بين الفريقين فى المفاهيم والأهداف والمواقف.

فالدكتور لويس عوض - وهو نصرانى الديانة، غربى الثقافة، علمانى الوجهة - يصب جام غضبه على جمال الدين، ويصفه بكل موبقة، فهو عنده «مغامر مجهول، كافر مجنون، مخاطر مغمور، زنديق مخبول، ملحد مأجور، أفاك دساس، دجال متلون... إلخ».

وقد كتب الأستاذان أحمد بهجت وسامح كريم فى الأهرام ٢٩/٨/١٩٨٣ تعليقات على طريقة لويس عوض فى البحث والحكم، وبينا أن الرجل كان يرجع إلى تقارير المخابرات الدولية، ويستقى من مصادر لا تعرف بالنزاهة والصدق. كما بين الأستاذ الدكتور جابر قميحة أن «لويس» كان قاصر البحث، غائب المنهج.

والدكتور لويس - كما يقول الغزالى - يرى أن المعلم يعقوب - الذى خان مصر وانضم إلى الحملة الفرنسية - هو زعيم قومى عظيم القدر! وأن جمال الدين - موقظ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث - جاسوس ملحد!!

ولا عجب فى موقف الدكتور، إنما العجب فى موقف الذين تلاقوا معه - من المتدينين - فى ضرب رجل الإسلام، والجنون فنون[٢]!

إن تشويه الرموز الإسلامية، وتحطيم الأعلام، وتدمير القمم: عمل لا يستفيد منه غير أعداء الإسلام، وخصوم المسلمين. وهو للأسف ما أصبح هواية لبعض المنتمين إلى الدين!

لقد زرت المملكة العربية السعودية فى العام الماضى، فوجدت أمرا رابنى وساءنى:

---

(١) علل وأدوية: ص ٨٥، ٩٣

(٢) انظر علل وأدوية: ص ١٠٤.

مجموعة من الكتب تتهم العلماء والدعاة، وتوسعهم سبا وقذفا. صنف هذه الكتب بعض الأخوة الغلاة ممن ينسبون أنفسهم إلى السلفية والحق أن السلفية منهم براء.

لم يكد هؤلاء يدعون عالما كبيرا، سابقا أو لاحقا أو معاصرا، يخالفهم فى قضية ما، إلا كالوا له الذم بأوسع مكيال.

لم يسلم من طول ألسنتهم الباقلانى ولا إمام الحرمين، ولا الإسفراييني، ولا الغزالى، ولا الرازى، ولا النووى، ولا ابن حجر العسقلانى، ولا السيوطى، ولا غيرهم من المتقدمين.

كما لم يسلم منهم من المحدثين الأفغانى ومحمد عبده، والكواكبى ورشيد رضا وفريد وجدى وغيرهم من دعاة الإصلاح.

وكذلك لم يسلم منهم من بعدهم من المفكرين والدعاة: المودودى والندوى وحسن البنا وسيد قطب والغزالى والقرضاوى ومحمد عمارة وفهمى هويدى... وغيرهم.. من الأموات والأحياء.

وهو ما جعل بعض العقلاء من علماء السعودية يرد عليهم هذا الإسراف والتطاول، داعيا إلى وجوب التثبت بين الناس بعضهم وبعض.

ونسى هؤلاء أن حسن الظن بالمسلمين أولى من سوئه، وأن الأصل حمل حال المسلمين على الصلاح، والتماس المعاذير لأهل الإسلام، وافتراض نية الخير منهم.

١٠ - إحياء اللغة العربية

اللغة العربية هى لغة القرآن، ولسان الإسلام، ووعاء ثقافته، وهى اللغة التى شرفها الله تعالى بأن أنزل بها أعظم كتبه، فخلد ذكرها، وعمم أثرها.

وقد ذهب الإمام الشافعى إلى أن تعلم اللغة العربية - أو قدر منها على الأقل - فرض على كل مسلم حتى يستطيع أن يؤدى فرائض دينه، وخصوصا الصلاة اليومية.

وقد كان انتشار الإسلام فى العالم سببا فى انتشار اللغة العربية، وخصوصا فى العصور الأولى، حيث كانت اللغة تسير مع الدين جنبا إلى جنب، وهذا سر تعريب مصر والسودان وشمال إفريقية كله، والأندلس يوم كان للمسلمين فيه دولة.

وقد وسعت اللغة العربية علوم الحضارة الإسلامية وفنونها فى زمن ازدهارها، ولم تضق بعلم ولا فن، بالإضافة إلى علوم العربية نفسها، التى نبغ فيها عباقرة أفذاذ من شتى الأجناس، لا من العرب وحدهم، وارتقى الأدب العربى شعرا ونثراً، حتى بلغ الذروة فى آداب العالم.

وفى عصور الهزيمة والتخلف وإدبار الحضارة الإسلامية، ذبلت اللغة العربية وآدابها، وطغت على شعرها ونثرها المحسنات اللفظية، وغابت الأصالة والإبداع، وأضحى التكرار والتقليد هو الطابع العام للإنتاج الأدبى، وأصبح المثل السائر هو: ما ترك الأول للآخر شيئا!

وعندما بدأت اليقظة الإسلامية الحديثة، كان التوجه لإصلاح اللغة وإحيائها، وتحريرها من العوائق اللفظية التى تنوء بها فى مقدمة بواكير التجديد والإصلاح.

نجد هذا عند كل المصلحين الإسلاميين، وخصوصا الشيخ الإمام محمد عبده، الذى عَدّ إصلاح أساليب اللغة العربية أحد أمرين أساسين أو أمور ثلاثة كانت فى طليعة ما عنى به.

وقد ساهم الشيخ فى ذلك بنشر «نهج البلاغة» الذى يضم كلمات وخطب سيدنا على رضى الله عنه، كما جمعها الشريف الرضى، وتعليق الشيخ عليها.

كما كانت كتابات الشيخ نموذجا يحتذى فى ذلك، بعيدا عن التقعر والتكلف.

وكذلك عنى الإمام الشهيد حسن البنا باللغة، حتى جعل من وصاياه العشر لأتباعه وتلاميذه التكلم باللغة العربية الفصحى.

فلا غرو بعد ذلك أن يعنى إمامنا الغزالى بالعربية، وأن يدافع عنها، وينوه برجالها وأدبائها وشعرائها الكبار، مثل المتنبى قديما وأحمد شوقى حديثا، ومصطفى صادق الرافعى، وغيرهم.

وهو يهاجم الذين يروجون اللهجات العامية، ويريدون تخليدها وتعميقها، كما يهاجم دعاة الشعر الحديث، الذى لا يراه شعرا ولا نثرا. حتى ذكر الشيخ فى بعض كتبه: «إن الجرأة على اللغة العربية وصلت إلى حد الفحش، والسكوت على هذا الوضع طريق إلى الارتداد عن دين الله»![1].

وأثنى الشيخ على الزعيم المصرى سعد زغلول لأمرين:

١ ـ جعل اللغة العربية هى لغة التعليم والتربية فى جميع مدارس مصر، بدل الإنكليزية.

٢ ـ وثانيا أنه كان يخطب بالفصحى، فلا يقع فى خطابه السياسى لحن ولا عامية ولا إسفاف، على خلاف زعماء جاءوا بعد ذلك يخطبون الجماهير بالعامية المبتذلة!

وفى موضع آخر يقول الشيخ: معروف أن المبشرين والمستشرقين بذلوا جهودا حثيثة لتغليب العامية، وإماتة لغة القرآن.

فكيف ـ باسم العروبة ـ نمقت لغتها ونهجر بلاغتها وأدبها، ولحساب من؟

ولاحظت أنه باسم العروبة كانت الخطب الرسمية الضافية تلقى باللغة العامية الدنيا، وهو تصرف لم يؤثر عن قادة الأمم فى شرق وغرب!

ولاحظت أنه باسم العروبة أصبحت العامية لغة البرامج الإذاعية حاشا نشرات الأخبار والدروس الدينية، وتقررت اللهجات العامية لغة للتخاطب والتسجيل..

كما أنه باسم العروبة فرض حظر رهيب على اللغة العربية أن تدخل كليات الطب والهندسة والصيدلة والعلوم... إلخ.

وتحجرت هذه اللغة، فلم تواكب سير الحضارة إلا بخطى السلحفاة أحيانا وفى جو من التندر والسخرية!!

---

(١) علل وأدوية: ص١٩٠.

المطلوب لإحياء اللغة:

وفى أثناء حديث للشيخ عن الإعلام الإسلامى وتقصيرنا فيه، وما يتطلبه منا، تحدث عن دور اللغة فى الإعلام. وكان مما قاله هنا:

بقى عنصر أخير فرطنا فيه كثيرا وهو تعليم اللغة العربية، سواء للمسلمين الأعاجم أو لغير المسلمين! إن الجهل باللغة العربية يشيع بين ٨٠ أو ٨٥ فى المائة من المسلمين. وأما الجهل بها فى أرجاء العالم فشىء مفزع، ولا يمكن عدها لغة عالمية مع أنها الوعاء الفذ للرسالة العالمية الوحيدة التى طرقت أبواب العالم، وشاء القدر الأعلى أن تبقى فيه إلى يومه الأخير.

ونحن نطلب ثلاثة أشياء محددة لإحياء اللغة العربية والحفاظ على مكانتها:

١ ـ تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة وحدها دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الدينى، أى تهيئة معرفة اللغة وإتقانها لأى إنسان يطلب المزيد من الثقافة. وسوف يجنى الإسلام على المدى البعيد ثمرة الازدهار اللغوى المجرد.

٢ ـ الجد فى محاربة اللهجات العامية ـ داخل الوطن العربى ـ وتضييق الخناق عليها، ومنع البرامج التى تقدم الأحاديث باللغات العامية، ومنع الأزجال والمواويل والشعر الفوضوى المبتدع أخيرا، والذى يسمونه الشعر المرسل.

٣ ـ إحياء الأدب العربى الخالص وتقريبه من طبيعة العصر، أى تجريده من التكلف وافتعال المحسنات اللفظية، وتشجيع الشعراء المجيدين بشتى الوسائل...

وقبل ذلك لابد أن تقوم مجامع اللغة العربية بجهد محترم فى نشر ألفاظ الحضارة وجعل العربية لغة للعلوم الحديثة...

إن العناية باللغة العربية جزء حقيقى من عمل الإعلام الإسلامى.

الفصل العاشر

الغزالى.. رجل المواقف

الغزالى .. رجل المواقف

للغزالى مزايا كثيرة، ومن مميزاته المعروفة: أنه رجل موقف.

ومواقف الغزالى فى حياته كثيرة. أعنى المواقف التى يقف فيها عند رأيه متشبثًا به مدافعًا عنه، مهما يكلفه ذلك من تضحية ومكابدات، على نحو ما قال شوقى:

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدًا ... إن الحياة عقيدة وجهاد!

ولقد أشرت إلى موقف الشيخ الغزالى عندما ذهبنا إلى معتقل الطور، ووجد القادة المسئولين عن المعتقلين يسرقون أقواتهم، ولا يعطونهم إلا الفتات، فخطب الشيخ، وقاد مسيرة بعد صلاة الجمعة، تهتف بسقوط «لصوص التجويع»، وتلعن «اللصوصية المنظمة»، مما أدى إلى مفاوضات مع المعتقلين انتهت بتسليمهم مستحقاتهم (جافة)، وهم يتولون طهيها وتهيئتها.

المؤتمر القومى العام:

ومن المواقف التى تذكر للشيخ: موقفه فى المؤتمر القومى العام الذى عقد فى القاهرة أيام عبدالناصر، فى أوائل الستينيات، ووقوف الشيخ يدعو صراحة إلى وجوب التحرر من الاستعمار التشريعى، بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية. وعرج الشيخ فى نهاية كلمته على ضرورة التخلص من التقليد والتبعية فى الأزياء، وأن يكون للأمة أزياؤها الخاصة بها، سواء ما يتعلق بالرجال أو النساء، وضرورة عودة المرأة المسلمة إلى الاحتشام، وهو ما أثار العلمانيين عامة والماركسيين خاصة وهاجموا الشيخ، ولكن الشيخ لم يبال بهذا الهجوم، وثبت على موقفه كالطود الأشم، وانتصرت له الجماهير.

قانون الأحوال الشخصية:

ومن المواقف التى تذكر للشيخ: موقفه من قانون الأحوال الشخصية، الذى يعرف عند

المصريين بـ «قانون السيدة چيهان» ، يقصدون قرينة الرئيس الراحل أنور السادات ، التى كانت متحمسة له ، وقد هاجمه الشيخ فى قاعة الشيخ محمد عبده بالأزهر ، وصفقت له الجماهير ، ووقفت بجانبه .

وكان موقف الشيخ فى هذه القضية مماثلاً لموقف شيخنا الدكتور عبدالحليم محمود ـ الإمام الأكبر شيخ الأزهر ـ ولذا سقط القانون أو قل جمّد فى عهده ، ثم وجد من الشيوخ ـ للأسف الشديد ـ من أجازوه !

موقف فى الجزائر:

ومن المواقف التى تذكر الشيخ : موقفه فى «ملتقى الفكر الإسلامى» فى الجزائر فى أواخر الثمانينيات ، عندما وقف صديقنا الدكتور سعيد رمضان البوطى ـ الداعية الإسلامى المعروف ـ يتحدث عن ضرورة اشتغال الدعاة بالتربية والتوجيه ، وترك السياسة لأربابها ، ويكفى الحكام أو الساسة ما يعانون من متاعب الحكم ، وآفات السياسة . . إلى آخر ما قال ـ غفر الله لنا وله ـ حول هذا الموضوع ، مما أثار الحاضرين فى الملتقى وأقلقهم .

وكان الرئيس الجزائرى الشاذلى بن جديد حاضراً فى ذلك الوقت ، وشعر المشاركون بالحرج . وهنا طلب الشيخ الغزالى الكلمة ، وصعد إلى المنصة ، وأثنى على صديقه الشيخ البوطى ، ولكنه خطّأه فى توجهه ، وإن العالم المسلم لا يسعه أن يسكت عن باطل ، أو يغمض عن ظلم أو يتغاضى عن المنكرات منَ حوله ، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنزل الله ، وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم والعلم ، وأن المسلمين إنما أصيبوا وهزموا يوم فصلوا بين الأمرين . . إلى آخر ما قال ـ حفظه الله ورعاه .

وبذلك وضع الشيخ الحق فى نصابه ، وأتى الأمر من بابه ، واستراح الجميع لتعليق الشيخ ، ومنهم بن جديد نفسه ، وقد ذكر الشيخ له موقفًا فى أيام الجهاد ، دلل به على أهمية الدين وضرورة الإيمان للسياسة وللجهاد .

لم أكن حاضراً فى ذلك الملتقى ، ولكن نقله إلىّ الإخوة الحضور ، كما نشرته جريدة «الشرق الأوسط» فى حينه .

الشهادة فى مقتل فرج فوده:

ومن أخطر المواقف وأحدثها للشيخ ، موقف «الشهادة» الأخيرة فى محكمة أمن

الدولة، فى قضية مقتل الدكتور فرج فوده، تلك الشهادة التى أحدثت دويا، بل زلزالا فى دنيا السياسة وعالم الفكر والثقافة، وتناولتها الأقلام المختلفة بالتعقيب ما بين مؤيد ومنكر ومتوقف.

لقد طلبت المحكمة حضور الشيخ، بناء على طلب دفاع المتهمين، ليجيب عن أسئلة معينة وجهها إليه الدفاع(١).

والمحكمة استدعت الشاهد فسألته بالآتى، فأجاب: اسمى محمد الغزالى أحمد السقا، وسنى ٧٦ سنة، وأعمل عضوا بمجمع البحوث الإسلامية، ومقيم بالدقى ١٠ ش قمبيز بميدان الدكتور سليمان ـ وحلف اليمين.

س: ما معلوماتك؟

ج: أنا مستدعى من قبل الدفاع بناء على طلب المحكمة استجابة لطلب الدفاع.

س: من الدفاع: هل الإسلام دين ودولة؟ وما معنى هذه المقولة؟

ج: الإسلام عقيدة وشريعة، وعبادات ومعاملات، وإيمان ونظام ودين ودولة.. ومعنى هذه المقولة ذكرته الآية الشريفة: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] كما قال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]. فالإسلام دين شامل منذ بدأ من خمسة عشر قرنا. وهو دين ودولة لم تنفصل فيه السلطة الزمنية عن المعانى الروحية، وقد جاءت النصوص متشابهة فى إيجابها لشتى الأركان، فمثلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، و ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وجاءت هذه الأقوال فى عبادة جنائية كالقصاص، وفى عبادة شخصية كالصيام، وفى عبادة دولية كالقتال. فالعبارة واحدة وإن اختلفت اتجاهات التشريع. ومعروف أن أطول آية فى القرآن هى التى نزلت فى الدَّين وهى عبادة اقتصادية، والتى تبدأ آياتها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ إلخ الآية [البقرة: ٢٨٢]. وبالإحصاء والاستقرار نجد أن الإسلام دين للفرد والمجتمع والدولة، وأنه لم يترك شيئا إلا وتحدث فيه، ما دام هذا الشىء يتصل بنظام الحياة وشئون الناس.

---

(١) ننقل شهادة الشيخ هنا كما سجلها حرفيا كتاب الأستاذ أحمد السيوفى «محاكمة المرتدين» وكذلك التعليقات عليها.

س: من الدفاع: هل تطبيق الشريعة الإسلامية فريضة واجبة؟

ج : أدع الإجابة عن هذا السؤال للقرآن نفسه، فالله سبحانه وتعالى يقول لنبيه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله فى آية أخرى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

س: من الدفاع: ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحودا أو استهزاءً؟

ج : الشريعة الإسلامية كانت تحكم العالم العربى والإسلامى كله حتى دخل الاستعمار العالمى الصليبى ـ وكرهه للإسلام واضح ـ فألغى أحكام الشريعة الإسلامية، وأنواع القصاص، وأنواع التعزير، وأنواع الحدود، وحكم الناس بالهوى فيما يشاءون. وقد صحب الاستعمار العسكرى استعمار ثقافى مهمته هى جعل الناس يطمئنون إلى ضياع شريعتهم وإلى تعطيل أحكام الله دون أن يتبرموا، وأنا كأى مسلم أقرأ قوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ إلخ [النور: ٢] أجد الآية مقلوبة فى المجتمع، وأجد القانون يقول: إذا اتفق شخصان بإرادة حرة على مواقعة هذه الجريمة فلا جريمة، وقد تسمى حبا وتسمى عشقا. ولكن نص الشريعة عُطل وروح الشريعة أزهقت.. فكيف يقبل مسلم هذا الكلام أو يستريح لهذا الوضع، وبالتالى كيف يسخرون منى إذا قلت يجب إقامة الشريعة؟ وأعرف أناسا كثيرين يرون تعطيل الشريعة، ويجادلون فى صلاحيتها، ويثبتون حكم الإعدام الذى أصدرته الحكومات الأجنبية أو الاستعمار العالمى على هذه الشريعة التى شرفنا الله بها. إنهم يعدمونها إعداما ويريدون تثبيت هذا الإعدام، ويجادلوننا باستهزاء أحيانا فى صلاحية الشريعة للتنفيذ. هذا كما قلت وكما قال الله تعالى، وليس بمؤمن يقينا من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحداً أو استهزاء. بل كما قال الله تعالى فى وصف هؤلاء الناس فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]. ويعرف الإنسان أنه منافق من رفض حكم الله. وقد قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧]، ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ إلى آخر الآيات فى نفس الموضوع [النور ٤٨ - ٥٠].

س: من الدفاع: ما حكم من يدعو إلى أن يستبدل بحكم الله شريعة وضعية تحل الحرام وتحرم الحلال؟

ج : ليس هذا بمسلم يقينا: يقول الله تعالى فى هؤلاء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ٦٠].

س : هل يُعَدّ هذا العمل عملاً كفريًا يُخرج صاحبه من الملة؟

ج : نعم، فمن رفض الحكم بما أنزل الله جحداً واستهزاءً هو بلا شك يخرج من الملة.

س من الدفاع: فما حكم المسلم الذى يأتى هذا الفعل الكفرى أو القول الكفرى عن تعمد وعلم بمعانيه ومراميه؟

ج : مهمتى الشخصية هى أن أشرح له كعالم وأدحض شبهاته وأبين له الحقيقة. وليست مهمتى كداعية إلى الله أن أتلمس العيوب للناس، ولست أفرح بإيقاع أقدامهم فى الحبائل والشباك. . وإنما أنا طبيب أعالج المرضى، وأريد أن أنقذهم من الجراثيم التى تفتك بهم. فإذا كان عنيداً يرفض كل ما أقول، ويأبى إلا تكذيب الله ورسوله، فلا أستطيع أن أقول إنه مؤمن.

س: من الدفاع: هل يصح لإنسان نطق بالشهادتين الادعاء بالإسلام مع المجاهرة ورفض تطبيق الشريعة الإسلامية، والدعوى إلى أن يستبدل بشرع الله شرائع الطواغيت من البشر؟

ج : أولا يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨]، بل إن بعض الناس كان يحلف أنه مؤمن ولكن ميله للكفار وجبنه عن مقاتلتهم والدفاع عن الإسلام نفى الدين عنه، قال تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧]. ومعنى الآية أن قولهم مؤمنون مع تكذيب أعمالهم لهم لا يقبل، والإيمان باتفاق العلماء قول وعقيدة وعمل. ثم ألفت النظر

إلى أن ديننا اسمه الإسلام . . أى الخضوع لله ، ومعنى ذلك أن إبليس كان يعلم أن الله حق ويجادله . . فرفض الأمر والنهى يخرج الإنسان عن الملة .

س: من الدفاع: هل يُعَدّ من يأتى هذه الأفعال الكفرية، والأقوال الكفرية مبدلاً لدينه مفارقا للجماعة؟

ج : نعم يُعَدّ مرتدًا عن الإسلام .

س: من الدفاع: ما حكم هذا المرتد شرعا؟

ج : حكم المرتد فى الشريعة واضح ، وأنا لى رأى خاص . فالرأى العام فى الإسلام أنه مخطئ، وأن الارتداد قد تكون له أسباب ، فيمكن أن يكون لإنسان شُبهة ولا يحسن فهم الدليل . . فأنا مهمتى كشف الشبهة وبيان الدليل . وقد يرى الحاكم بدل أن يقتل أن يسجن سجنا مؤبدًا لأمر ما . وعندما كان الجدال بين النبى وزعماء مكة فى صلح الحديبية فقد عرض أمر على الرسول . وقد انتهى الرسول إلى أن من ترك المدينة وجاء لمكة لا يمنعه الرسول، ومن ترك مكة وذهب إلى المدينة يمنعه الرسول ، وقد سأل الصحابة الرسول فى ذلك فقال لهم : «شر وأريد أن أبعده عنكم» . ورأيى الخاص لو أن واحدًا من الناس ارتد لا أتعقبه ، ولكن بقاءه فى المجتمع جرثومة ينفث سمومه ويحض الناس على ترك الإسلام، فيجب على الحاكم أن يقتله .

س : من الدفاع: قررتم فضيلتكم أنه قد يكون صاحب القولة الكفرية لديه شبهة أو لم تبلغه الحجة، فماذا إذا بلغته الحجة؟

ج : هذا ككفر الفراعنة . . جحدوا وجود الله وعصوا موسى ، وهذا يكون ارتدادًا صريحا حاسما .

س: من الدفاع : من الذى يملك إيقاع الحد على المرتد المستوجب قتله؟

ج : المفروض أن جهاز القضاء هو الذى يقوم بهذه المهمة ، فهو الذى يقيم الحدود ويقيم التعازير ويحكم بالقصاص ، ولا يكون ذلك لآحاد الناس حتى لا تكون فوضى .

س: من الدفاع: فماذا لو كان القانون لا يعاقب على الردة والقضاء لا يوقع الحدود؟

ج : هذا عيب القضاء ، وعيب المسئولين عنه ، والقانون معيب .

س: من الدفاع: ماذا لو أن القانون المطبق لا يعاقب.. هل يبقى الحد على أصله من وجوب الإيقاع؟

ج : حكم الله لا يلغيه أحد. . والحد واجب الإيقاع.

س: من الدفاع: ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الأمة، هل يُعَدّ مرتكبا جريمة أو مفتئتًا على السلطة؟

ج : يُعَدّ مفتئتًا على السلطة، وأدى ما يجب أن تقوم به السلطة.

س: من الدفاع : هل هذا المفتئت على السلطة بفرض أن السلطة توقع حدا، هل له عقوبة فى الإسلام؟

ج : أنا لا أذكر أن له عقوبة فى الإسلام.

س: من المحكمة: هل لديك أقول أخرى؟

ج : لا.

تمت أقواله. ووقع (محمد الغزالى).

أثر شهادة الشيخ فى الحياة العامة:

زلزلت الأرض زلزالها بعد شهادة الشيخ؛ لمكانته المرموقة فى مصر والعالم العربى والعالم الإسلامى والعالم كله، وثارت ثائرة خصوم الفكر الإسلامى، وأعداء الحل الإسلامى، وكل الحاقدين على الإسلام، والخائفين منه، والمبغضين له، وتكالبت الأقلام المسعورة والمأجورة على الشيخ الجليل، وانتهزها الشيوعيون المهزومون، والمغتربون المقهورون، والعلمانيون الموتورون، انتهزوها فرصة لينهشوا من لحم الشيخ، ناسين أن لحمه سم زعاف.

وسالت أنهار الصحف بالكلام عن الشهادة والشاهد، ولم يعبأ الشيخ بما قيل ويقال.

حتى بعض الأقباط دخل فى المعركة (١)، وهاجم الشيخ بوقاحة وسلاطة، مع أنهم كانوا من قبل لا يجترئون على أن يمسوا بكلمة علماء الإسلام!

---

(١) غالى شكرى، فى مجلة له فى مقال طويل عن الشيخ الغزالى.

وذهب وزير مسئول إلى الشيخ فى بيته ملحا فى الضغط عليه، ليصدر تصريحا أو بيانا، أو يكتب كلمة ـ أو نحو ذلك مما يروق له ـ يفسر به موقفه بما يشبه التراجع عما قاله فى الشهادة.

ولكن الشيخ أبى إلا أن يثبت على موقفه، وظل كالصخرة العاتية، التى تحطمت عليها كل تلك المحاولات، ولم تجد فتيلا.

ولما ألح هذا المسئول على الشيخ وكرر عليه القول مرة بعد مرة، قال له فى صراحة وجلاء: أنا لم أكتب مقالا فى صحيفة، ولا ألقيت خطبة فى جامع، ولا محاضرة فى جمعية، ولكنى استدعيت للشهادة أمام محكمة، فشهدت بما أعتقد أنه الحق الذى أدين الله به وألقاه عليه، فإذا كان فى شهادتى بعض الغموض، فلتدعنى المحكمة مرة أخرى، وأنا أشرح لها موقفى.

وبهذا حسم الأمر، ولم يعد هناك مجال للقيل والقال.

ولكن الصحافة لم تصمت، وخصوصا بعد أن انضم إلى شهادة الشيخ: شهادة أ. د. محمود مزروعة رئيس قسم العقائد والأديان بكلية أصول الدين بالأزهر، والتى كانت أصرح وأشد من شهادة الشيخ، والتى اتهم فيها الشاهد فرج فوده بالردة صراحة، وقدم من كتبه ومقالاته ما يدل على ذلك للمحكمة.

ومن أهم ما نشرته الصحافة المصرية فى الموضوع: ما أثاره الصحفى المعروف صلاح منتصر فى جريدة الأهرام القاهرية. ونحن نورده هنا لأهميته.

أسئلة مهمة للشيخ:

فى أهرام ١٨ من يوليو فجر صلاح منتصر عدة أسئلة لفضيلة الشيخ الغزالى، نظراً لأهميتها نوردها ونورد الرد عليها من الشيخ، وخاصة أننا استشعرنا أن الأستاذ صلاح يحاول أن يضع فخا للشيخ.. ولكن الشيخ الغزالى خرج من هذا المطب بسهولة متلحفا بقواعد الشريعة. وهذا نص ما كتبه الأستاذ صلاح منتصر فى عموده اليومى [1]:

أسئلة إلى الغزالى:

فضيلة الشيخ محمد الغزالى له منا كل احترام وتقدير.. بالإضافة إلى ما نعرفه عن

---

(١) نقلا عن كتاب: محاكمة المرتدين، السابق ذكره.

علمه وجهده الكبير للقيام بدور الداعية، الذى يتمنى قوة المسلمين وخروجهم من مرحلة الضعف والهوان التى يمرون بها اليوم.

ولقد كانت لفضيلة الشيخ الغزالى شهادة أمام المحكمة التى يمثل أمامها المتهمون باغتيال الدكتور فرج فوده، وحسنا تم نشر هذه الشهادة بالنص حتى نعرف على وجه الدقة ما قاله فضيلة الشيخ.. وإن كان أحد الزملاء (الأستاذ فهمى هويدى أهرام ٧/٦) قد وجد أن حديث الشيخ أمام المحكمة يحتاج إلى إيضاح للعامة، فكتب يحاول هذا الشرح تحت عنوان «حاشية على شهادة الغزالى». ولكن يبدو أن الحاشية فى حاجة إلى حاشية.. وليس فى الدين حرج كما تعلمنا.. كما أن الدين كدستور للحياة لابد أن يصل إلى الناس ببساطة حتى وإن كان معقداً فى بعض التفاصيل.. لكن مهمة الداعية أن يسهل لا يصعب، وهو ما يجعلنى أرجو فضيلة الشيخ الغزالى - بعد أن قرأت شهادته، وبعد أن قرأت الحاشية التابعة لشهادته - أن يجيب عن هذه الأسئلة التى أتصور أن ملايين مثلى قد سألوها وينتظرون من فضيلة الشيخ إجابة عنها.

إن أسئلتى يا فضيلة الشيخ هى:

١ - أى الدرجات أعلى فى المعصية: الكافر أم المرتد؟

٢ - متى يكون الفرد كافرا، ومتى يكون مرتدا؟

٣ - من الذى يملك تكفير فرد، ومن الذى يملك الحكم عليه بالردة؟

٤ - هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية وواضحة.. أم يستطيعه أى فرد أو جماعة وبطريقة سرية ومغلقة؟

٥ - هناك بعض الدارسين من يشكك فى حد الردة، ويقول: إن حد الردة ليس موجودا صراحة فى القرآن الكريم.. فهل هذا صحيح؟

٦ - هل يتعارض ما ورد فى القرآن الكريم عن حرية العقيدة. واعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى، مع القول بحق أى فرد أو جماعة فى تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟

٧ - المعروف أن فضيلتكم اشتركتم فى ندوة كان فرج فوده طرفا فيها، وكان ذلك فى معرض الكتاب فى يناير من العام الماضى قبل اغتياله بنحو ستة أشهر، فهل كان قبولكم للاشتراك فى هذه الندوة لمناقشة فرج فوده كمسلم أو محاولة استتابته كمرتد؟

٨ ـ حماية لأنفسنا وأبنائنا وشبابنا من الزلل، ما الذى ورد فى كتابات فرج فوده يجعله فى موضع الشبهة بالكفر أو الردة؟

فضيلة الإمام. . إن الدعوة ضريبة وفرض. . وأحسب أن تساؤلاتى هى أمانة فى عنقك كداعية للرد عليها، مع كل تقديرى واحترامى.

صلاح منتصر

رد من الغزالى:

أبدأ أولا وأشكر فضيلة الشيخ محمد الغزالى على سرعة استجابته بالرد على ما وجهته إلى فضيلته من أسئلة (أهرام الأحد ١٨/ ٧). . وقد أرسلها لى مكتوبة بخط اليد مع مقدمة، بأمل نشرها كاملة دون تلخيص، «فإنى قمت عنكم بمهمة الإيجاز، وأحسب أن أى نقص فى العبارة يفسد الرد. . وهذا ما لا يرضيكم». وهأنذا أنشر نص الرد كاملا:

١ ـ أى الدرجتين أعلى فى المعصية: الكافر أو المرتد؟

جواب: الكافر أقل سوءا من المرتد. فإننى قد أشترك فى عمل تجارى مثلا مع كافر بالإسلام، يهوديا كان أو نصرانيا، وفى كلتا الحالتين يجب البر بهم وبذل الود لهم. أما المرتد فهو كخائن الوطن منبوذ مكروه، وقد استعمر الأوربيون أرضنا ومحوا شرائعنا وشعائرنا، فمن انضم إليهم فى عداوتهم. . فكيف نصادقه؟

٢ ـ متى يكون الفرد كافرا ومتى يكون مرتدا؟

جواب: الكافر امرؤ خالى البال من تعاليم الإسلام. لعلها لم تبلغه أو بلغته ولم يقتنع بها. ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا. أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف ما نحن عليه ثم رأى لمآرب خاص أن ينضم إلى خصومنا، وأن يؤيدهم بما يستطيع. أى أنه خائن غادر. أما إن كانت لديه شبهة عقلي، فلابد من إزالة شبهته ومحو ما يتعلق به من أوهام ولو ظل سنين على قيد الحياة.

٣ ـ من الذى يملك تكفير فرد أو الحكم عليه بالردة؟

جواب: أهل الذكر وحدهم. . أعنى الراسخين فى العلم، فإن اتهام فرد بالكفر جريمة، والإسلام دين مضبوط التعاليم. فمن استباح الخمر مثلا وسخر من حرمتها، أو من ترك الصلاة جاحدا واستهزأ بشريعتها فليس بمسلم، بل هو ناقض للمجتمع ومنكر للوحى وخارج على الأمة.

وسلطة الاتهام بالكفر محددة، وليست كلأً مباحًا لأى إنسان.

٤ ـ هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية واضحة، أم يستطيعه أى فرد أو جماعة وبطريقة سرية مغلقة؟

جواب: قلنا: إن الفقهاء الثقات وحدهم هم مصدر الفتوى. ورأيهم يكون واضحا ومعلنا. إلا إذا كان الإسلام مضطهدا وحرية العمل به مصادرة. إن جو الحرية الرحب هو الذى يستطاع الأخذ والرد فيه، ولن تكون الحرية لطرف واحد بداهة، بل تضمن الحرية لجميع الأطراف يقولون ما لديهم فى أمان.

وبقيت أربعة أسئلة أخرى سبق أن وجهتها إلى فضيلة الشيخ.. أكمل بإذن الله غدا رده عليها.

صلاح منتصر

بقية رد الغزالى:

فى عمود أمس نشرت النص الكامل لما تضمنته رسالة فضيلة الشيخ محمد الغزالى ردا على أربعة أسئلة سبق أن وجهتها إليه، وفيما يلى بقية إجاباته عن أربعة أسئلة أخرى أنشرها بالنص دون انتقاص حرف واحد.. حتى علامات التعجب، فهى كما وردت فى رسالة فضيلته:

٥ ـ هناك بعض الدارسين الذين يشككون فى حد الردة.. ويقولون: إنه ليس موجودا صراحة فى القرآن الكريم، فهل هذا صحيح؟

جواب: نعم لم يرد فى القرآن الكريم قتل المرتد[١]، وإنما وردت بذلك السنن الصحاح. وعندى أن جريمة الردة متفاوتة السوء والخطر، وقد تستحق القتل إذا ساوت ما نسميه الآن الخيانة العظمى، أو ما نسميه الخروج المسلح على الدولة. وقد تكون شبهة عارضة يكتفى فيها بالتوبة النصوح. وأمام القضاء تعرف الحقيقة، ويتحدد العقاب العدل، ويوزن خطأ كل فرد!!

٦ ـ هل يتعارض ما ورد فى القرآن الكريم من اعتبار الحكم على إسلام الفرد من

(١) هذا ليس مسلما، فبعض فقهاء السلف يرون آية الحرابة فى سورة المائدة تشمل المرتدين؛ لأنهم يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا. انظر: بحثنا عن عقوبة المرتد فى الفصل الأول من كتابنا: ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده.

اختصاص الحق سبحانه وتعالى، مع القول بحق أى فرد أو جماعة فى تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟

جواب: إن قلوب الناس إلى الله بيقين. ولكن لمسالكهم حدودا وضوابط من وضع الله ذاته، وإلا سرت الفوضى بين الناس. فمن يدعو إلى ترك العلاقات الجنسية حرة، ويمارى فى جريمة الزنا وعقوبتها، لا يمكن اعتباره مسلما؛ لأنه مخاصم لحكم الله وخارج عليه. ولذلك قال فى ضرورة الطاعة التامة: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١]. فما العمل إذا لم يتب ويقم الصلاة ويؤت الزكاة؟ حكم الله واضح.

٧ـ اشتركت فى مناظرة مع فرج فوده لأنى كنت طامعا ـ إذا شرحت له الحق، وبسطت أدلته ـ أن أعود بالرجل إلى الإيمان، ولكنى وجدته يكره الإسلام ونظامه، وينكر صلاحية أحكامه للبقاء. أى أنه يؤيد حكم الإعدام الذى أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز إلى أعدائنا بصراحة!!

هذا وقد أصدر نفر من علماء الأزهر كتابا تضمن ما نسب إلى فرج فوده من خروج على الإسلام واستهزاء بتعاليمه.. ويستطيع الأستاذ صلاح منتصر أن يقرأ هذا الكتاب.. ذلك وأقول أخيرا: إننى رجل من الدعاة إلى الله، لا أتمنى إلا الحرية لى ولخصومى على السواء، وأكره العدوان والمشاكسة، ولكنى أشكو من أن دينى يجار عليه وينتقص منه ويحرم أهله ما يسمى فى عصرنا بحقوق الإنسان، وأن المنتمين إلى هذا الدين فى طور سيئ من تاريخه، وتكاد تذهب كراماتهم الخاصة والعامة فى مهب الرياح.

محمد الغزالى

عقوبة قتل المرتد:

كان سؤالى الأخير إلى فضيلة الشيخ محمد الغزالى هو: إذا قتل إنسان إنسانا آخر بحجة أنه كفر أو ارتد.. فما عقوبته؟ هل يقتل قصاصا أم تعزيرا، أم نقول ـ كما فهم البعض من شهادتكم أمام القضاء ـ بأنه لا عقوبة عليه؟

وقد تلقيت شاكرا رد فضيلة الشيخ الغزالى.. وفيما يلى نصه كما أنقله من رسالته المكتوبة بخط يده:

« إذا ارتد أحد عن الإسلام رفع أمره إلى القضاء ليبت فى مصيره وفق حكم الله . . وقد قلت : إن جريمته إذا ساوت الخيانة العظمى حكم القضاء بقتله . وتتقرر هذه المساواة فى حالات شتى ، نذكر منها : التهوين من شأن القرآن والطعن فى مكانته ، وجحد الفرائض المعلومة من الدين بالضرورة والدعوة إلى تركها ، واستباحة الكبائر وطلب فتح حانات الخمور ومواخير البغاء . . والسخرية من الحدود الشرعية ، وإهانة الرسول ﷺ ، إلى آخره . . فإذا أعلن المرتد توبته وأصلح نفسه سقط الحد عنه . . وعاد مسلما كما كان . . وليس للجمهور إقامة الحدود أو إيقاع العقوبات من قصاص وتعزير ، فذلك للقضاء ، ومن فعل شيئا من ذلك فقد افتأت على السلطة . . وهنا يقوم القضاء بتعزيره حسب ما يصون المصلحة العامة وهيبة القضاء .

وليست هنالك عقوبة محددة لهذا المسلك . . بيد أننا نلفت النظر إلى أن التهاون فى معاقبة المرتدين يفتح باب الفوضى . ومعروف أن هناك من ارتد وبسطت عليه بعض الحكومات حمايتها كسلمان رشدى ، واعتقادى أن حكومتنا ترفض هذا السلوك ، وأن قضاءنا ـ مع غيبة التعاليم الإسلامية ـ سيمنع هذه الفوضى ، ويصون حق الله سبحانه فى ذلك ، ولكم الشكر على سعة صدركم وكريم خلقكم » .

محمد الغزالى

ولعلنا بعد نشر نص الرسالتين اللتين تضمنتا رد فضيلة الشيخ الغزالى على ما وجهته إليه من أسئلة نفتح الباب لمن يريد التعليق . . راجيا ممن يقول رأيه مراعاة القراءة الجيدة لكلمات الشيخ ، ولا مانع من إعادة قراءتها مرة وأكثر ، حتى لا يختلط عليه الأمر ، ويعلق على معنى لم يقصده ، وأن يكون الحديث موضوعيا وموجزا كلما أمكن ، وأن يتم فى إطار الاحترام الكامل للشيخ . . فقد نتفق أو نختلف على بعض ما يقول ، ولكننا بكل العفة والموضوعية نتحاور ونتبادل الأفكار .

صلاح منتصر

خاتمة

خـــاتمـــة

لقد طالت هذه الدراسة وطالت أكثر مما كنت أتوقع لها. وما حيلتى إذا كانت المادة غزيرة، ومجال القول ذا سعة؟

لقد كنت أعرض الفكرة وأريد أن أستشهد لها من كلام الشيخ الغزالى، فأجد أمامى بدل النص اثنين وثلاثة وأربعة وأكثر، كلها تتناول الموضوع الواحد بأساليب مختلفة، وصور متنوعة، وكلها معجب ورائع، فيحتار المرء: أيها يأخذ، وأيها يدع، وكم يأخذ منها، وكم يترك؟

وكنت أوثر دائما أن أعبر عن أفكار الشيخ ما استطعت بقلمه لا بقلمى، وبكلامه لا بكلامى، فقلمه أبلغ، وكلامه أبين وأروع، وأدل على المقصود الذى أنشده. ومن هنا نقلت فقرات طويلة أحيانا من كتبه تعبر عما أريد. وأعتقد أن قارئى اليوم سيفرح وينشرح صدره عندما يقرأ هذه الفقرات فى موضعها اليوم، وإن كان قد قرأها من قبل فى كتب الشيخ.

والحق أن هذه الدراسة أثبتت أننا أمام قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه، وإمام فذ من أئمة الفكر والدعوة والتجديد. بل نحن أمام مدرسة متكاملة متميزة من مدارس الدعوة والفكر والإصلاح، لها طابعها، ولها أسلوبها، ولها مذاقها الخاص. وتحتاج إلى دراسات عدة لإبراز خصائصها ومواقفها وآثارها. فليس الغزالى ملك نفسه، ولا ملك جماعة أو حركة، ولا ملك قطر أو شعب، بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء.

نحن أمام عالم مفكر حر، عاش عمره كله للإسلام، لا يشرك به شيئا آخر، ونذر له فكره وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهاده واجتهاده، وخاض معارك حياته كلها تحت راية الإسلام، رافضا كل راية جاهلية، بأى اسم ظهرت، وتحت أى عنوان تزينت للناس، متخذا شعاره: ﴿.. إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. لم يتخذ غير الله وليا، ولم يبتغ غير الله حكما، ولم يبغ غير الله ربا، وهو رب كل شىء.

لقد عاش الشيخ بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبدا: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغي أن يؤتى الدين من قبَله وتفريطه، بل يجب أن يتنبه دائما لأعدائه في الداخل والخارج، وأن يقف لهم بالمرصادَ مدافعا ذائدا، بل مقاتلا مهاجما، فخير وسائل الدفاع الهجوم، لا يلقى السلاح، ولا ينشد الراحة، ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى قائمة، والحرب على الإسلام وأمته دائرة، والدم الإسلامى مستباح، وأكثر الموكلين بالحراسة يغطون فى نوم عميق، أو مشغولون بالجدل حول فروع المسائل، وصغائر الأمور!

لقد كتبت الأقدار على الشيخ أن يحارب فى جبهتين واسعتين:

الأولى: جبهة الخصوم الكائدين للإسلام، المتربصين به الشر، الكارهين لانتشار أنواره وعودته إلى قيادة الحياة من جديد.

بعض هؤلاء من خارج الإسلام، وخارج أرضه من القوى العالمية التى تخافه أو تبغضه: من اليهودية والصليبية والشيوعية والوثنية، الذين اختلفت دياناتهم، واختلفت طرائقهم، ولكن اتحدت أهدافهم على ضرب الإسلام، ووقف مسيرته، ووضع الأحجار والعثرات فى طريقه. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الجاثية: ١٩].

وبعض آخر ـ للأسف الشديد ـ من داخل أرض الإسلام، بل من أبناء المسلمين أنفسهم، وممن يحملون أسماء المسلمين: محمد وأحمد وحسن وحسين، وعمر وعلى.. ولكنهم لا يضمرون للإسلام إلا شرا، ولا لدعاته إلا عداوة، ولا لشريعته إلا تنكرا.. وربما عادوه؛ لأنه ضد شهواتهم المحرمة، وضد مظالمهم المفترسة، وضد مصالحهم الآثمة، وضد مطامعهم الفاجرة.

والجبهة الثانية: جبهة (الأصدقاء الجهلة) للإسلام، الذين يضرون الإسلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه، يهشمون وجهه من حيث يظنون أنهم يدفعون ذبابة عنه! هؤلاء الذين سماهم الشيخ (الدعاة الفتانين) الذين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول، وبالجزئيات عن الكليات، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب.

إنه يشكو من دعاة أغلبهم نكبة على الإسلام، وقذى فى عينه! إنهم لا يقرءون ولا

يعانون، والقليل من الحقائق لديهم لا يضعونه فى موضعه الصحيح، وعلل الأمة لا تلقى منهم أساة ولا بكاة؛ لأنهم مشدودون إلى جدليات الماضى السحيق، ولا يدركون ما جدّ حولنا، ولا الطفرات الهائلة التى قفزت بها الحياة على أرضنا.

وإذا كان الجسم المصاب بفقر الدم يسقط فى أول مراحل الطريق، فالعقل المصاب بفقر المعرفة أعجز من أن يلاحق مطالب الجهاد، أو يلبى حاجات الحق.

إن مكمن الخطر على مستقبل الإسلام ومستقبل أمته وصحوته، تكمن فى هؤلاء الذين وجه إليهم الشيخ جل كتبه فى المرحلة الأخيرة، عساهم أن يتعلموا من جهل، وينتبهوا من غفلة، وينتهوا عن الإعجاب بالرأى، والازدراء للغير، وأن يتعلموا الذلة على المؤمنين، والتوقير للكبار، والرحمة للصغار.

يقول الشيخ: «والخطورة تجىء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين، يعلو الآن نقيقهم فى الليل المخيم على العالم الإسلامى، ويعتمد أعداء الإسلام - فى أوربا وأمريكا - على ضحالة فكرهم فى إخماد صحوة جديدة لديننا المكافح المثخن بالجراح.

إن الحضارة التى تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا، بيد أنها ستبقى حاكمة مادام لا يوجد بديل أفضل!

هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحية كثة؟ أو عقل أذكى، وقلب أنقى، وخلق أزكى، وفطرة أسلم، وسيرة أحكم؟

لقد نجح بعض الفتيان فى قلب شجرة التعاليم الإسلامية، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعا أو جذورا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقا تتساقط مع الرياح!

وشرف الإسلام أنه يبنى النفس على قاعدة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. وأنه يربط الاستخلاف فى الأرض بمبدأ: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١]»(١).

وهذا ما يخيف الشيخ الإمام ويثير فزعه على غد الأمة. يقول سدده الله:

«لقد خامرنى الخوف على مستقبل أمتنا لما رأيت مشتغلين بالحديث ينقصهم

---

(١) السنة النبوية: ص ٨.

الفقـه، يتحولون إلى أصحاب فقه، ثم إلى أصحاب سياسة تبغى تغيير المجتمع والدولة على نحو ما رووا ورأوا. . !!

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الدينى الهابط هو أنه لا يدرى قليلا ولا كثيرا عن دساتير الحكم، وأسـاليب الشـورى، وتداول المال، وتظالـم الطبـقـات، ومـشكلات الشـبـاب، ومتـاعب الأسرة، وتربيـة الأخلاق. . ثم هو لا يدرى قليلا ولا كثيرا عن تطويع الحياة المدنية، وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة، والأهداف الكبرى التى جاء بها الإسلام.

إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة، لها تهيج، وبها تنفعل، وعليها تصالح وتخاصم! هززت رأسى أسفا وأنا أرمق مسار الدعوة الإسلامية!

إن الرسـالة التى استقبلهـا العـالـم قديما استقـبال المقرور للدفء، واستقبـال المعلول للشفاء، هانت على الناس فلم يروا ما يستحق التناول، وهانت على أهلها فلم يدروا منها ما يرفع خسيستهم ويحمى محارمهم»(١)!!

فى مقدمة كتابه: «الإسلام فى وجه الزحف الأحمر» كتب الشيخ يقول:

رأيت أن أكـتب هذه الصـحـائف الحـافلة بالحـقـائق العلمية والتـاريخيـة، وأودعتـهـا صـرخات قلب غيـور على دينه، شفيق على أمتـه. وأعـرف أننى بكتـابتـهـا سـأتعـرض لعداوات مميتة!! ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام!!

وفى مقدمة كتاب: «قذائف الحق» قال الشيخ:

أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه، ويريدون استغلال المصائب التى نزلت بأمته، كى يبنوا أنفسهم على أنقاضها.

يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين.

وقد قررنا نحن أن نبـقى، وأن تبـقى معنا رسـالتنا الخـالـدة، أو قـررنا أن تبـقى هذه الرسالة، ولو اقتضى الأمر أن نذهب فى سبيلها، لترثها الأجيال اللاحقة! إلى أن يقول فى نهاية المقدمة:

إن الله أخذ على حـملة الوحى أن يعـالنوا به، ويكـشفـوا للناس حـقـائقه. وأكـد عليهم ذلك فى قوله تعـالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عـمـران: ١٨٧]. فـمـا بد من البيان وعدم الكتمان.

---

(١) هموم داعية: ص ٥٥.

وأعلم أن ذلك قد يعرض لمتاعب جسام، ولكنى أقول ما قال صديقنا عمر بهاء الدين الأميرى:

الهـــــول فـى دربى وفـى هدفـى | وأظل أمــضى غيــر مــضطرب!
مــا كنت من نـفـسى على خَـور | أو كـنـت مـن ربـى عـلـى ريَـب!
مــــا فـى المنايـا مــــا أحــــاذره | الله ملء الـقــصــد والأرب!

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

صدق الله العظيم

مؤلفات فضيلة الدكتور: يوسف عبد الله القرضاوى

• فى الفقه وأصوله:

١ ـ الحلال والحرام فى الإسلام .

٢ ـ فتاوى معاصرة جـ ١ .

٣ ـ فتاوى معاصرة جـ ٢ .

٤ ـ تيسير الفقه : فقه الصيام .

٥ ـ الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية .

٦ ـ مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .

٧ ـ من فقه الدولة فى الإسلام

٨ ـ تيسير الفقه للمسلم المعاصر .

٩ ـ الفتوى بين الانضباط والتسيب .

١٠ ـ عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية .

١١ ـ الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد .

١٢ ـ الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط .

• فى الاقتصاد الإسلامى:

١ ـ فقه الزكاة (جزءان) .

٢ ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .

٣ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء .

٤ ـ فوائد البنوك هى الربا الحرام .

٥ ـ دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى .

• فى علوم القرآن والسنة:

١ ـ الصبر فى القرآن .

٢ ـ العقل والعلم فى القرآن الكريم .

٣ ـ كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟

٤ ـ كيف نتعامل مع السنة النبوية؟

٥ ـ تفسير سورة الرعد .

٦ ـ المدخل لدراسة السنة النبوية .

٧ ـ المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان) .

٨ ـ السنة مصدراً للمعرفة والحضارة .

• عقائد الإسلام:

١ ـ وجود الله .

٢ ـ حقيقة التوحيد .

• فى تيسير فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة:

١ ـ الحياة الربانية والعلم .

٢ ـ النية والإخلاص .

٣ ـ التوكل .

٤ ـ التوبة إلى الله .

• فى الدعوة والتربية:

١ ـ ثقافة الداعية .

٢ ـ التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا .

٣ ـ الإخوان المسلمون ٧٠ عامًا فى الدعوة والتربية .

٤ ـ الرسول والعلم .

٥ ـ الوقت فى حياة المسلم .

٦ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد.

• فى ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية:

١ ـ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى.

٢ ـ أين الخلل؟

٣ ـ أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة.

٤ ـ فى فقه الأولويات.

٥ ـ الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه.

٦ ـ الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة.

٧ ـ ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده.

٨ ـ غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.

٩ ـ شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان.

١٠ ـ الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم.

١١ ـ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف.

١٢ ـ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.

• سلسلة: حتمية الحل الإسلامى:

١ ـ الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.

٢ ـ الحل الإسلامى فريضة وضرورة.

٣ ـ بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين.

• نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام:

١ ـ شمول الإسلام

٢ ـ المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة.

٣ ـ موقف الإسلام من الإلهام والكشف، والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى.

٤ ـ السياسة الشرعية فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها.

• إسلاميات عامة:

١ ـ الإيمان والحياة .

٢ ـ العبادة فى الإسلام .

٣ ـ الخصائص العامة للإسلام .

٤ ـ مدخل لمعرفة الإسلام .

٥ ـ الإسلام حضارة الغد .

٦ ـ الناس والحق .

٧ ـ جيل النصر المنشود .

٨ ـ درس النكبة الثانية .

٩ ـ خطب الشيخ القرضاوى جـ١ .

١٠ ـ خطب الشيخ القرضاوى جـ٢ .

١١ ـ لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر .

١٢ ـ قضايا معاصرة على بساط البحث .

١٣ ـ قطوف دانية من الكتاب والسنة .

• شخصيات إسلامية:

١ ـ الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .

٢ ـ الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن .

٣ ـ نساء مؤمنات .

• فى الأدب والشعر:

١ ـ نفحات ولفحات ـ ديوان شعر .

٢ ـ المسلمون قادمون ـ ديوان شعر .

٣ ـ يوسف الصديق ـ مسرحية شعرية .

٤ ـ عالم وطاغية ـ مسرحية تاريخية .

• رسائل ترشيد الصحوة:

١ ـ الدين فى عصر العلم. ٢ ـ الإسلام والفن.

٣ ـ النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه.

٤ ـ مركز المرأة فى الحياة الإسلامية.

٥ ـ فتاوى للمرأة المسلمة.

٦ ـ جريمة الردة وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة.

٧ ـ الأقليات الدينية والحل الإسلامى.

٨ ـ المبشرات بانتصار الإسلام.

٩ ـ مستقبل الأصولية الإسلامية.

١٠ ـ القدس قضية كل مسلم.

١١ ـ ظاهرة الغلو فى التكفير.

• محاضرات الدكتور القرضاوى:

١ ـ لماذا الإسلام؟ ٢ ـ الإسلام الذى ندعو إليه.

٣ ـ واجب الشباب المسلم. ٤ ـ مسلمة الغد.

٥ ـ الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير.

٦ ـ قيمة الإنسان وغاية وجوده فى الإسلام.

٧ ـ لكى تنجح مؤسسة الزكاة فى التطبيق المعاصر.

٨ ـ التربية عند الإمام الشاطبى.

٩ ـ مع المصطفى فى بيته.

١٠ ـ السنة والبدعة.

١١ ـ زواج المسيار ـ حقيقته وحكمه.

١٢ ـ الضوابط الشرعية لبناء المساجد.

١٣ ـ موقف الإسلام العقدى من كفر اليهود والنصارى.

١٤ ـ الشفاعة فى الآخرة بين النقل والعقل.

الفهـرس

رقم الإيداع ٢١٩٩ / ٢٠٠٠
I S B N 977- 09- 0602-6

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس.٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس ٠ ٨١٧٧٦٥ (٠١)